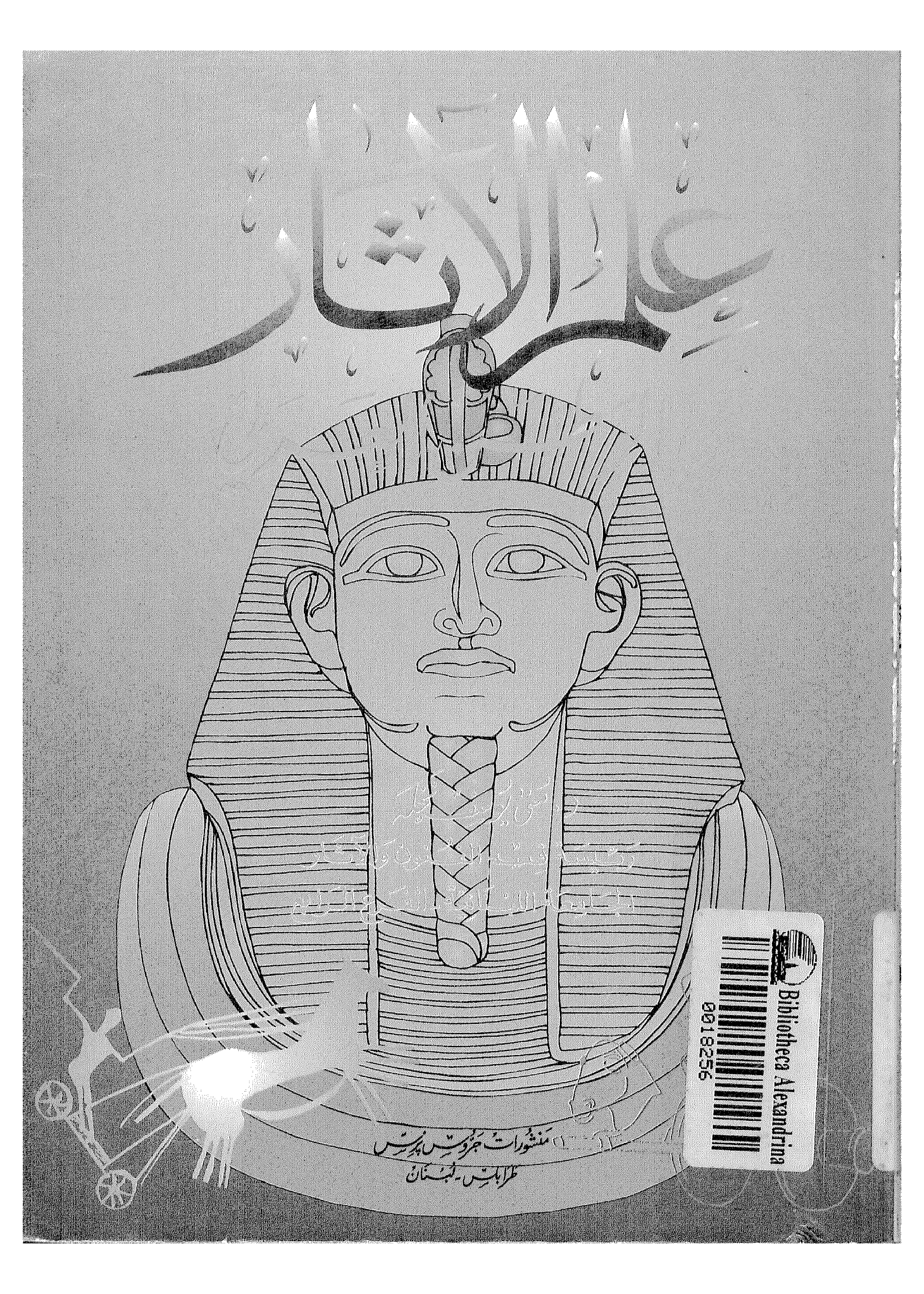
علم الآثار



منشورات جروس برس

طرابلس - لبنان

علم الآثار

في الوطن العربي



د. منى يوسف نخله
رئيسة قسم الفنون والآثار
الجامعة اللبنانية - الفرع الرابع



منشورات
جروس برس
طرابلس - لبنان

جروس برس : شارع عز الدين ص. ب : ١٨٩
طرابلس ــ لبنان

اهداء

« إلى زوجي الدكتور جورج حجّار »

تقديم

بعد تزايد التنقيب الأثري المنظَّم في أرجاء الوطن العربي، سقطت مقولة «الحضارة نبعت من الغرب»، وزال الاعتقاد بأن الحضارة الانسانية ظهرت في بلاد اليونان والرومان وانتقلت منها الى سائر بلدان العالم؛ زالت هذه المسلّمات القديمة، ولم تعد مقبولة حتى كفرضيات، وأخذ خط سير الحضارة الانسانية يتوضَّح شيئاً فشيئاً مع إكتشاف مئات المواقع الأثرية الهامة في الوطن العربي من مغربه الى مشرقه، وبات معروفاً لدى الجميع أن الحضارة الانسانية نبعت من المشرق العربي القديم حيث تمَّت القفزات الحضارية النوعية الهامة في تاريخ البشرية، كمعرفة الزراعة وتدجين الحيوان ومعرفة الفخار والغزل والحياكة... وإقامة الدول المدن الأولى في بلاد الشام وبلاد الرافدين. ولقد إكتشفت آثار هذه الدول المدن في مواقع عديدة مثل أوروك وأريدو وماري وبابل وإبلا وقطنة ويمحاض وعرفا... حيث تمَّ إكتشاف المعابد والقصور وألواح الشرائع والقوانين... ولم يعد خافياً على أحد أهمية الدور الحضاري الذي لعبته هذه المواقع الأثرية القديمة.

لكن المشكلة الانسانية أن اهتمام البحّاثة والكتّاب ظلَّ منصباً على كل موقع على حدة، فظهرت نشرات ودراسات عديدة يتخصص كل منها في موقع معيَّن مثل إبلا وماري وأوغاريت وجبيل وبابل.. وباتت المكتبة العربية والعالمية تفتقر الى دراسات شاملة تعالج كافة هذه المواقع،

يستثنى من ذلك بعض الدراسات التي قام بها بحاثة قلائل مثل الدكتور سلطان محيسن. ولقد أدركت الدكتورة منى نخلة أهمية ذلك، ونظرت الى مجمل هذه المواقع في اطار متكامل شامل ومترابط، وذلك للتأكيد على الوحدة الحضارية الشاملة للوطن العربي بمختلف أرجائه، فأخذت مثلاً العمارة الدينية كظاهرة حضارية وتحدَّثت عن أنواع المعابد وتطور أشكالها ليس في موقع معيَّن إنَّما في كافة المواقع الأثرية القديمة في الوطن العربي. وبذلك تكون هذه الدراسة الأكاديمية من الدراسات العلمية القليلة التي تعالج الوحدة الحضارية للعالم العربي القديم إعتماداً على مخلّفاته الأثرية.

الدكتور فاروق حبلص

المقدمة

إنها موسوعة آثارنا، آثار الوطن العربي وآثار الحضارات التي تعاقبت على أرضه. إنها مواقع اكتشفت، إنها جزء من كل، نطل من خلالها على عالمنا العربي، نتلمس في ترابه وحجره معالم سمعنا بها. قرأنا عنها أو شاهدناها، تبعث فينا حب الأرض، تشعرنا بدفء التراب وبرعشة الحجر، تذكرنا بشعب خلف لنا حضارة وتاريخاً حافلين بالمآثر الحية والناطقة، تحملنا على أجنحة الخيال الى البعيد الغابر وتثير فينا روح البحث، تجعلنا ننظر إلى الأرض نخاف وطأها نتحسس خطوطها. ففي ثناياها وحناياها كنوز دفينة، وللكنوز دلائلها ومؤاشراتها ولاكتشافها علم، إنه علم الآثار. والكنوز ليست في الواقع وبمفهومها العام أموالاً مكدسة ومغمورة، إنها شاهد حضاري وفني، إنها كل كسرة فخار وكل شظية حجرية، كل مدماك. كل مسكوكة، كل إناء ... كل بناء مدني ديني أم مدفني ... تكتنزه أرضنا وتنتظر بعثه ليحدثنا عن عصره وعن دوره الحضاري والتاريخي.

معاً نطل على عالمنا من خلال صفحات تتناول علم الآثار فتحدد مفهومه وتلقي الضوء على مراحله التاريخية، تدخل في تشعباته، تغوص في تفاصيله ومحتوياته، تدرس مداخله، تلج أبوابه، تواجه تنوع مواده تتحسس آثارها، تحيط بأطرها الجغرافية والتاريخية، تعيش اجواءها الاجتماعية والسياسية. تتساءل عنها من بعيد. تجيبك، تشدّك، تغريك، تدفعك إلى البحث والتنقيب لتستكشف الماضي وتستنطقه، لتتحقق من الحاضر فتقارنه، لتستقرىء المستقبل وتخطط له.

عالم واسع هو عالم الآثار. لا نصل إلى بدايته ولا إلى نهايته، عالم يبقى في الكثير من نواحيه غامضاً مبهماً ينتظر جهد الأثريين والأخصائيين لتفسير ظواهره ومنجزاته. فأين نحن من سر التحنيط عند المصريين القدماء. مثلاً؟ وهل صحيح أن اكتشافات القرون الوسطى هي فعلاً اكتشافات جديدة؟ وإلى أي مدى وصلت العلوم والتقنيات الحديثة في تحليلها ودرسها لمظاهر الحضارات القديمة؟ ...

اسئلة تطرح سنحاول الإجابة عليها من خلال المعطيات الرئيسة التي يتناولها علم الآثار مركزين على الشواهد الاثرية للحضارات القديمة وبنوع خاص في الوطن العربي، ملتقى الحضارات التي تعاقبت على أرضه والتي شهدت فترات انقطاع وتواصل والتي اختلطت وامتزجت وتفاعلت عبر العصور وتكاملت في حضارتنا العربية الاسلامية. مخلفة تراثاً غنياً تبرز معالمه في المواقع الأثرية الموزعة على أرض الوطن العربي من المحيط إلى الخليج: في فلسطين وسوريا والعراق ولبنان وليبيا ...

ونظراً لاتساع وغنى الوطن العربي ورغبة منا في إشباع فضول القارىء سنعتمد التنوع العلمي المدروس في اختيار النماذج على اختلاف موادها واغراضها والتي لا يستفيد منها المثقف فقط إنما الزائر أيضاً والسائح وهاوي الآثار. كذلك سيجد الطالب في هذا الكتاب موسعاً وموجزاً في آن معاً لما تناولته دراسته خلال مرحلة معينة، إضافة إلى أسماء أهم المراجع المعتمدة والتي بامكانه العودة إليها لمزيد من التعمق في التفاصيل.

وعلم الآثار لا يقوم فقط على دراسة الشواهد المكتشفة وليس حصراً على الاخصائيين ولا على اصحاب النظريات والمبادىء. إنه علم تجاوز فيه عدد الهواة عدد الاخصائيين، علم تجاوز «دراسة الحجر»، إنه علم الانسان الذي سخّر الطبيعة ومظاهرها لخدمته، فملكها حيناً وملكته أحياناً. علم الآثار ذو شقين : نظري وعملي ، ولا بد لمن يرغب معرفته وفهمه من الاضطلاع عليه نظرياً وعملياً لأن الغاية من دراسته أولاً وأخيراً هي الحفاظ

على التراث الحضاري الكامن في كل بقعة من العالم، هذا التراث الـذي بنـاه الإنسان. فأين نحن من تراثنا؟ إنه ماثل أمامنا، حاضر فينا، فلنعمل على كشفه وابرازه وصيانتـه، لا على سبيـه وبيعـه في المزادات العلنيـة وغيرهـا، بأساليب علمية مترفعة تحصّن تراثنا وتـدعّم أسسه الحضاريـة.

الفصل الأول

علم الآثار: مفهوم ومضمـون

تلقى الآثار اهتماماً كبيراً في عصرنـا الحاضر، وعلمهـا لم يعـد قصراً على فئة أو نخبة من المثقفين، وقد بلـغ أوج مراحـل تطـوره مـع العلـوم الحديثـة التي تساعد على رؤية واقعية وقـراءة جديـدة للحضارات القديمـة.

كل أثر بالنسبة للعالم أو الباحث ينطـق، كسرة الفخـار، الحجـر القديـم، صغيراً كان أم كبيراً، مدماكاً أم حجر فسيفساء، صدفة البحر، قطعة النقـود ... ولكن كيف نحدد ونفهم علم الآثار اليوم؟ أين يكمـن ومـا هـو مجالـه الحقيقي؟ هل هو علم التاريخ؟ هل هـو تاريـخ الفـن؟ أيـن هي مفاتيـح هـذا العلم؟ وكيف نتمكن انطلاقاً مـن دراسة قطعـة نقديـة، مثلاً، تحديـد الحالـة الاقتصادية لمنطقة مـا؟ وكيـف نستطيـع توضيـح ودراسة المعتقـدات الدينيـة لشعب ما من خلال مـذبح أو معبـد ... نقش أو كتابـة ...؟ ...

وقبل أن نغوص في ما يحتويه علم الآثـار، علينـا العـودة قليلاً إلى العلمـاء الذين تناولوا هذا العلم وحاولوا تحديده سواء كان في المعاجم أم في المؤلفات والابحاث التي نشروها فنجد مثلاً قاموس «روبير الصغير» (Le petit Robert) يحدده بقوله: «إنه علم الاشياء القديمة وخاصة الفنـون والصروح القديمـة».

(Science des choses ancicennes et spécialement des arts et monuments antiques)، بينما نجد معاجم أخرى عديدة تعود بنا إلى أصل الكلمة الفرنسية أرخيولوجيـة (Archéologie) فتقـول إنهـا مأخـوذة عـن اليونانيـة ومركبـة مـن كلمتين أساساً «Arkhaios»، وتعني قديـم و«Logos»، وتعني بحث او خطاب علمي. وعند العرب نجد أنه «علم القيافة أو متابعـة الأثـر، والأثر هو ما بقي من رسم الشيء»، «وعلم الآثـار» هـو معرفـة بقايـا القـوم

من أبنية وتماثيل ومخنطات ونقود وما شاكل ...» (المنجد في اللغة والأدب والعلوم ـ لويس المعلوف ـ الطبعة الجديدة). لكن علم الآثار ليس علماً حديثاً، إنه علم واكب العصور القديمة. وأفضل دليل على ذلك آخر ملوك بابل نابونيد (Nabonide)، من القرن السادس قبل الميلاد، الذي أهتم بجمع وحفظ الآثار الدينية لبلاد ما بين النهرين. كذلك اليونان والرومان الذين وصفوا الأبنية القديمة أو جمعوا موجودات القبور كما في كورنثيا (Corinthe)، فقد ذكر سترابون (Strabon)، الجغرافي اليوناني، ما شاهده وما قاله المؤرخ اليوناني Polybe الذي كان بين الرومان عندما غزوها، وكيف أعادوا بناء وترميم المعابد.

ورغم ان الفكر الذي ساد العصور القديمة كانت غايته جمع وحفظ واقتناء كل ما هو قديم وجميل لكنه بالتالي كان نموذجاً له تأثيره الواضح على مفهوم علم الآثار والبحث الأثري وجعل منه علماً تميز عبر العصور التاريخية عن علم التاريخ. فمنذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر ميلادي بدأت في ايطاليا اعمال البحث والتفتيش في الأرض عن المكنونات الثمينة، خاصة التماثيل. وأول عمليات التنقيب التي تمت فعلياً كانت في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي، أولاً في مدينة هيركيلانوم (Herculanum) التي اكتشفت سنة ١٧١٩م. ثم في مدينة بومباي (Pompéi) سنة ١٧٤٨ م، على يدي فلاح، هاتان المدينتان الرومانيتان ـ الإيطاليتان اللتان دمرهما بركان فيزوف (Vésuve) سنة ٧٩ م. وطمرتهما حممه.

ونجد جاك سبون (Jacques Spon) الرحالة الفرنسي الليوني (Lyonnais)، من القرن السابع عشر ميلادي، قد أخذ كلمة أرخيولوجية عن اليونان، وله يعود الفضل في احيائها، ولكنه أعطاها مفهوم دراسة الأبنية القديمة والتي تعود الى العصور الكلاسيكية من الناحية الفنية والتاريخية.

وتاريخياً التنقيب الأثري لم يبدأ عملياً إلا في أواسط القرن التاسع عشر ميلادي في بلاد ما بين النهرين، في نينوى ونمرود. وفي مصر على أيدي الفرنسيين والانكليز.

ففي البدء كانت عمليات التنقيب تهدف إلى جمع الشواهد الأثرية ونقلها إلى المتاحف خاصة الى قصر اللوفر والى المتحف البريطاني. فالقنصل الفرنسي فيكتور بلاس (Victor Place) الذي حلّ محل بوتا (P.E. Botta) سنة ١٨٢٥ عبر عن ذلك بقوله:

«Aussitôt qu'une excavation ne paraissait pas conduire à des bas-reliefs, elle était abandonnée». (Ninive et l'Assyrie, X, p. 37)(أي طالما أن حفرية لا يظهر أنها تؤدي الى منحوتات بارزة، كانت تهمل).

كذلك نجد أن خلفاء هنري لايار (Henry Layard)، المنقب الانكليزي الذي اصبح سنة ١٨٧٧ م. سفيراً في اسطنبول، هرموزد رسّام ونمرود رسّام قد أقاموا حفريات عديدة في بلاد ما بين النهرين، وأوكلوا في كثير من الأحيان أعمال التنقيب إلى رؤساء العمال (الورش) المحليين الذين كانوا يعملون فقط على العثور على قطع أثرية دون أي اهتمام علمي. وهذا ما حمل هيلبرخت (Hilprecht)، عند زيارته لنمرود، على القول : إنه مشهد لتخريب شامل «un tableau de totale destruction» أضف إلى ذلك أنهم فكروا تفجير الزقورات بالديناميت للوصول بسرعة إلى الكنوز التي كانوا يظنونها دفينة فيها. ومثلهم في ذلك مثل الايطالي بلزوني (Belzoni) الذي حاول سنة ١٨٢٠ فتح أبواب المدافن الفرعونية بواسطة الأكباش (Bèliers) وهي عبارة عن آلة حربية قديمة كانت تدك بها الأسوار وغيرها...

ولا نرى عمليات التنقيب تأخذ منحىً علميا إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع المهندسين الألمانيين كولدوي (Koldewey) في بابل (١٨٩٩ - ١٩١٧ م.) وأندريه (Andrae) في آشور (١٩٠٣ - ١٩١٤ م.)، وإليهما يعود الفضل في التغيير الكلي لأساليب التنقيب الأثري، رغم أن اعمالهما اقتصرت على دراسة سطحية للمواقع الأثرية.

بعد الحرب العالمية الأولى أخذت أعمال البحث والتنقيب تتجه نحو عمق المواقع لاستكشاف ما تكتنزه من معالم حضارية، ولم تعد حصراً على

موقع أو منطقة بل انطلقت بعد الحرب العالمية الثانية تنتشر وتتسع رقعتها لتشمل العالم بأسره ومعها تحدد مفهوم علم الآثار الذي لم يعد مقتصراً على دراسة أبنية العصور القديمة إنما دراسة كل ما له علاقة بالحضارات القديمة. وبالتالي، إن علم الآثار هو مجموع دراسات تساهم في بعث واحياء أعمال الانسان موضحة مراحل تطوره الحضاري منذ نشأته حتى القرن السادس عشر ميلادي. وهذا لا يعني أن علم الآثار، كما يعتبره البعض. جزءٌ من علم التاريخ، إنه علم قائم بذاته له مرتكزاته ومبادئه ومنطلقاته. ولا يمكن اعتباره علماً مستقلاً عن غيره من العلوم إنما علماً مرتبطاً بباقي العلوم داعماً لمنجزاتها مؤكداً على تطورها بالشواهد الحسية والواقعية، إنه همزة الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبه تدحض الأحداث علمياً ومنطقياً وانطلاقاً من ثوابت بعيدة الأصالة، يعمل على كشفها التنقيب الأثري ودعامته الأولى البحث العلمي الدؤوب والمتواصل والأمين على حضارات الشعوب.

والباحث العلمي الأمين يذهب في بحثه إلى أبعد الحدود الزمنية ولا يكتفي بالوقوف عند فترة تاريخية ولا أمام موقع معين، وهنا يكمن الفرق بينه وبين المؤرخ وبالتالي بين علم الآثار وعلم التاريخ. وانطلاقاً من هذا المفهوم يبدأ عالم الآثار بحثه بعد أن يختار موقعاً للتنقيب، ولكن عليه قبل البدء أن يبحث في المراجع والمصادر وأن يجري تحقيقاً مع السكان ومع السلطات المسؤولة أثرياً عن المنطقة ليتبين ما اكتشف سابقاً في الموقع. وهل اجريت فيه عمليات تنقيب ووضعت تقارير عنها ونشرت؟ وبناء على ذلك يطلب إذناً من السلطات المعنية ليحظى بحق مشروع لأعمال البحث والتنقيب. وطبيعي أن دراسة أي موقع أثري تتبع مراحل عديدة ودقيقة وتتطلب فريق عمل منظم ومتخصص لكل مرحلة ابتداءً من التصوير الجوي إلى التصوير الأرضي إلى أعمال السبر والحفر والكشف والترميم والصيانة والحماية وإعادة البناء ... وأهم عمل هو نشر نتائج التنقيب.

وعلم الآثار اليوم تشعبت وكثرت فروعه ومدارسه وبالتالي اختصاصاته فنجد منها علم آثار ما تحت البحار أو ما تحت المياه وهو علم حديث يعود

بتاريخه إلى عام ١٩٥٠ م. ويبحث عن كل ما غمر تحت مياه البحار أو البحيرات أو الأنهار أو الينابيع والآبار. وخاصة بقايا السفن القديمة وما حملته والمدن المغمورة وحتى تقادم الآلهة ... وعلم الآثار الجوي ويعود بتاريخه إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ويعتمد على الطائرة كوسيلة رئيسة للبحث، وعلم الآثار القياسي ويتضمن طرق التأريخ التي تسمح بقياس الزمن الماضي ومنها التحليل بواسطة الكربون ١٤ وبدراسة الأشجار والنباتات وبالقوة المغناطيسية. وعلم الآثار الاختباري الذي يبحث عن شروط الحياة وبالتالي التقنيات، وعلم الآثار الصناعي ويدرس تطور المشاغل والمصانع، وعلم الآثار الفلكي ويدرس دور الأبنية وعلاقتها بعلم الفضاء وعلم الفلك ... علم آثار ما قبل التاريخ وما قبيل التاريخ وعلم الآثار التاريخية والحضارات التي رافقت كل مرحلة. ولكن جميع مراحل الدراسة لا يجوز أن تخفي هدف علم الآثار الذي يسعى من خلال الشواهد إلى بعث الحياة في أشياء نسيها الإنسان وأهملها بينما احتضنتها الأرض مكتنزة ذكرياتها.

واختصاصات علم الآثار تشعبت سواء كان من ناحية المراحل التاريخية والحضارية أم ناحية المادة الأساسية ومشتقاتها. فنجد أخصائيين في الحضارة الحلفية كما في الناطوفية أو الفينيقية أو المصرية أو اليونانية أو الرومانية أو البيزنطية أو الاسلامية ولكل مرحلة من مراحل هذه الحضارات. كما نجد أخصائيين في علم الخزفيات والمعدنيات والزجاجيات والمخطوطات والمسكوكات التي تأخذ طابعاً وصفات مميزة عن غيرها من الحضارات التي سبقتها عاصرتها أو تلتها.

بعد هذا العرض الذي اعتمدنا فيه ايجاز مضامين علم الآثار يمكننا القول بأن علم الآثار يبدأ مع الانسان ويتناول تفاعله مع محيطه الطبيعي والبشري وما خلفه هذا التفاعل من شواهد توضح تطوره عبر العصور.

الفصل الثاني

المراحل التاريخية لعلم الآثـار

لا يعرف علم الآثار حدوداً زمنية أو جغرافية أو حسية. ففي كل لحظة تُبعث شواهد تـدفعك إلى الغوص في أبعـاده فتحيـا معهـا تحدثك تستنطقهـا وتطلب منها المزيد ولا تستزيد. وكلما تعمقت فيه عثرت على جديد يشدك إلى الأبعـد، فتقـف مستطلعاً ألغـازه محاولاً تحليـل رمـوزه، يـدفعك الى ذلك شوق لمزيد من العلم والمعرفـة.

ومـا الاكتشافـات ونتائجهـا ومـا سعي العلـوم على تنـوع اختصاصاتهـا ومجالاتها لاستقراء الماضي والـوصول بـه الى الحاضر الـذي نعيش إلا أكبـر دليـل على ذلك. وتقنيـات إنسان اليـوم ليست إلا تطـوراً لتقنيـات الانسان القديم ولسانـه تطـوراً لايمـاءات وايحاءات إنسان العصور القديمـة. وسعيـه للاستقرار ولتكوين جماعات فقرى ومدن مهد لنشوء الـدول العصريـة.

انطلاقاً من هذا التطور المتواصل والمستمر واستناداً إلى المعطيـات الأثريـة فإن حضارات العصور القديمة تبعت مراحل تطور يختلف تاريخها الـزمني مـن منطقـة إلى أخـرى وفقاً لتاريـخ اكتشافهـا لأولى التقنيـات التي أجمـع الباحثون والعلماء على اعتبارها محطات فصل للأوجه الحضارية عند الشعوب، كاكتشاف النار واكتشاف الزراعة والاستقرار وتأنيس الحيوان وصناعة الفخار وصناعـة المعـادن التي بـدأت بتصنيـع البرونـز ومـن ثـم الحديـد... كما كان للتحولات المناخية دورها في خلق وتكوين محطات تمركز الانسان، وتعاقب العصور الدفيئة والعصور الباردة ظهرت تأثيراته واضحـة في غضون المليـوني سنة الأخيرة. واستناداً الى الشواهد الأثريـة أعطى العلمـاء الحضارات القديمة تسمية الحـدث أو الاكتشاف أو الموقـع الأهـم في تاريـخ تطورهـا وقسمت إلى:

أولاً ـ حضارات ما قبل التاريخ (Civillisations préhistoriques)

وتقسم حضارات ما قبل التاريخ بدورها إلى عصور ثلاثة وهي:

١ ـ العصر الحجري القديم (Paléolithique)

٢ ـ العصر الحجري الوسيط (Mésolithique)

٣ ـ العصر الحجري الحديث (Néolithique)

١ ـ العصر الحجري القديم:

يبدأ العصر الحجري القديم مع ظهور أول محاولات استقرار الانسان الـ (hominidés) وذلك منذ ثلاثة ملايين سنة وينتهي حوالي تسعة آلاف سنة قبل الميلاد ويقسم إلى فترات ثلاث:

أ ـ العصر الحجري القديم الأدنى (Paléolithique inférieur)

ب ـ العصر الحجري القديم الأوسط (Paléolithique moyen)

ج ـ العصر الحجري القديم الأعلى (Paléolithique supérieur)

أ ـ العصر الحجري القديم الأدنى: ظهرت فيه أولى أدوات الانسان وكانت عبارة عن حصي مشغولة صنعها الرجل المدعو "homo habilis" شواهدها تأتي من أفريقيا الشرقية وتعود بتاريخها إلى حوالي مليوني سنة ونصف المليون. وقد حلت محل هذه الأدوات فيما بعد الصناعة الأشولية (Acheuléen)، التي دُعيت كذلك نسبة الى مدينة سان أشيل (Saint-Acheul) بوادي نهر السوم بالقرب من أميان (Amiens)، في فرنسا، حيث عثر على شواهد هامة سنة ١٨٣٧ ميلادية، وقد تميزت الصناعة الأشولية بشطب الحجر من جهتين فقط، وعرفت الفؤوس الصغيرة ذات الوجهين المشطوبين (Bifaces)، وكانت تستعمل لقتل الحيوانات وللنبش عن جذور النباتات، وقد صنعها الانسان المدعو "homo-erectus" أي المنتصب القامة والذي نزح من أفريقيا إلى آسيا وأوروبا. ثم تلتها الصناعة الأبفيلية (Abbevillien)

نسبة الى (Abbeville) في فرنسا وتميزت بالشطب من جهتين ونزع شظايا كبيرة. ومن أهم المواقع التي تعود الى عصر الصناعة الأشولية موقع ست مرخو شرقي اللاذقية وموقع اللطامنة شمالي حماة (سوريا).

ب ـ **العصر الحجري القديم الأوسط:** ويمتد من حوالي ١٠٠٠٠٠ إلى ٣٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد. كانت الصفة المميزة لهذا العصر هي صناعة الشظايا الحجرية التي نجد أهم مواقعها في يبرود وفي كهف الدوارة (في سوريا). وقد دُعي إنسان أوروبا لهذا العصر نيادرتال (Néanderthal) نسبة إلى وادي نيادر بالقرب من مدينة دسلدروف في المانيا الغربية حيث عثر على أول هيكل عظمي له في آب سنة ١٨٥٩. إنسان هذا العصر كان أول من دفن موتاه وانتج الصناعة الحجرية الموسيتيرية (نسبة الى Moustier في بلجيكا) المشطوبة من جهة واحدة. وقد عثر في فرنسا على ملامح الثقافة اللوڤالوازيه (Levalloisien نسبة الى منطقة Levallois) المميزة بكثرة الشظايا والمأخوذة من نواة مقطوعة بشكل مميز، وتعتبر هذه الصناعة اللوفالوازية معاصرة للصناعة الموستيرية. وإنسان هذه الفترة عاش في الملاجىء الصخرية أو في العراء تحت الخيم.

ج ـ **العصر الحجري القديم الأعلى:** ويمتد من سنة ٣٥٠٠٠ إلى حوالي سنة ١٠٠٠٠ قبل الميلاد. ظهر في هذا العصر الرجل العاقل "homo sapiens sapiens" الذي اخترع الفن. وقد نمت الصناعة العظمية خلال هذه الفترة وتميزت فيها أربع ثقافات:

ـ الشاتلبيرونية (Le Châtelperronien)

تلي الموستيرية مباشرة وقد احتفظ فيها الانسان، خاصة في صناعة أدواته الحجرية والصوانية، بالكثير من مزايا الموستيرية المتطورة.

ـ الأور ينياسية (L'Aurignacien) ـ نسبة الى مغارة «L'Aurignac» في فرنسا ـ ظهرت فيها أولى محاولات الفن التصويري (L'art figuratif) على جدران المغر.

ـ السوليترية (Le Solutréen) ـ نسبة إلى منطقة "Solutré" في فرنسا ـ تميزت فيها ادوات الانسان الحجرية بالشطب الدقيق والمتوازي والذي يشمل وجوه القطعة.

ـ المجدالينية (Le Magdalénien) نسبة الى مغاور "La Madeleine" في فرنسا ـ وتميزت بالانتشار الواسع للصناعة العظمية وبنوعية الاعمال الفنية البيتية أو الجدرانية (Art mobilier ou pariétal).

إنسان هذا العصر كان صياداً دائم الترحال، اصطاد الغزلان على أنواعها. وفي سوريا مواقع أثرية تعود إلى هذه الفترة في يبرود وفي حوض الكوم شمال شرقي تدمر، وفي أبي هريرة في وادي الفرات وقد استوطن هذا الموقع منذ حوالي ١١٥٠٠ ق. م. وفيه مساكن عديدة، تعتبر قرية، تعود الى حوالي سنة ٩٥٠٠ ق. م. وهذه المساكن عبارة عن حفر في الأرض سقوفها من الاغصان والبوص.

٢ ـ العصر الحجري الوسيط:

وهو المرحلة الممتدة ما بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وقد اقتصر صيد الانسان فيه على الحيوانات الصغيرة لأن الحيوانات الكبيرة وأهمها حيوان الرنة (Renne) اختفى خاصة من أوروبا الغربية.

وفي موقع أبي هريرة تبين أن الاستقرار الفعلي كان على مدار العام وكان الانسان يعيش من الصيد ويجمع قوته بشكل منتظم من النباتات البرية التي كانت تنمو في السهوب المجاورة ومنها القمح البري والحشائش الريشية (Stipa) والعدس والجلبان ... وقد ظل هذا الموقع مأهولاً بلا انقطاع منذ حوالي سنة ٩٥٠٠ حتى حوالي سنة ٧٠٠٠ ق. م.

وفي فلسطين عرفت هذه الفترة باسم النطوفية وإنسان نطوف أو إنسان كهف الشُكْبة وكهف عواد وطابون وساخون في جبل الكرمل ومخابىء

صحراء النقب وسهل الأردن ولبنان وسوريا، هذا النطوفي صنع أشياء صوانية صغيرة أخذت شكل مقاطع دائرية صغيرة وتميزت عن الميزوليتية الأوروبية في اللمعان الذي اكتسبته شفراتها نتيجة لكثرة استعمالها في قطع النباتات النجيلية كما عثر مع هذه الشفرات على مقابض عظمية، نقشت عليها أشكال حيوانات، تكوّن مرتبطة مناجل الحصاد. ومن الشواهد الأثرية أيضاً مساحق ومدقات جيرية وبازلتية وأودات عظمية صغيرة منها المسلات والصنانير والمخارز وتماثيل وحلى وأصداف تزينية كلها صنعت بدقة وتلبية لمتطلبات الحاجات المعيشية، مما يدل على أن النطوفيين بلغوا درجة متقدمة من التطور نسبة لبقية المناطق خاصة الأوروبية ليس فقط صناعياً إنما حياتياً، فقد دجنوا الكلب من الحيوانات وكانوا أول مزارعي الشرق.

وقد عثر في شمال العربية السعودية على أقدم رسوم صخرية إحدى عشرة منها تعود إلى ما بين ١٠٠٠٠ و ٨٠٠٠ سنة ق. م. وتبين أن إنسان تلك المنطقة وفي تلك الفترة كان يعتمد الصيد وسيلة عيش رئيسة.

٣ ـ العصر الحجري الحديث:

لم يعد إنسان العصر الحجري الحديث يعتمد الصيد فقط فقد اعتمد الصيد والرعاية معاً واصبح منتجاً، وأبرز دليل على ذلك ست وسبعو ن رسماً صخرياً تعود إلى الألف السادس ق. م. عثر عليها في شمالي المملكة العربية السعودية، وذلك يعني أنه أخذ يربي الحيوانات وعرف الزراعة واكتشف صناعة الفخار والحياكة وبنى القرى.

يبدأ هذا العصر في الشرق منذ حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد وفي أوروبا الغربية منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وينتهي حوالي سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد أي مع بداية العصر البرونزي. وفي بعض المناطق، خاصة في الشرق، هناك مرحلة انتقالية بين العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي وهي المرحلة التي بدأ فيها استعمال النحاس. وتدعى هذه المرحلة الكلكوليتية

(Chalcolithique) أو الأنيوليتيـة (Énéolithique) وكلمة كالكوليتية مشتقـة من اليونانيـة: Khalkos تعني نحاس أو برونــز وLithos تعني حجـر، بمعنى آخر عصر الحجر ـ النحـاسي.

وعمليـة تأنيس الحيـوان والنبـات رافقت استقـرار الرحالـة القنــاصين في قرى، وبدأت في مناطق التلال الوفيرة الأمطار، قرب الينابيع وعلى شواطىء الأنهار والبحيـرات. وإنسان المواقـع المكتشفـة طوّر شكـل بيوتـه البيضاويـة فاصبحت مستطيلة تضم أكثر من غرفة مبنية بالطابـوق أرضيتهـا وجدرانهـا مكسوّة بـالجص، وبعض المنـازل المكتشفـة احتـوى على مصاطب ومواقـد وأفران. وتوزعت المعابد بين البيوت. أمـا المدافـن فكـانت عبـارة عـن حفـر طليت جوانبها بالصلصال أو الجير المدقـوق. ومـن أهـم وأبـرز المواقـع: تـل المريبط، تل أسود، ويبرود في سوريا ومو قـع قتـال صويـوك في الأنـاضول، وجبيـل في لبنـان، وأريحا في فلسطين، وقبـة الخـراب في دجيبـوتي، وبــاب المندب ...

وكان إنسان هـذه المرحلـة يغـزل ويجـدل الكتـان أو الصوف ويخيــط ملابسه بإبر صنعت من عظام الحيوانات أو مـن حجـر السَبَج (حجـر أسود زجاجي) وهو حجر بركاني. كما أنه عرف الطبخ وصنـع لـه ملاعـق عظميـة وأوعية خزفيـة زينهـا بـرسوم تمثـل حيوانـات وصيادين، كما أنـه صاغ مـن الخزف تماثيل صغيرة ترمز إلى عباداته من ربّات وأمهات عاريات وحيوانات.

وحـوالي سنـة ٥٠٠٠ ق. م. عـرف الانسان أول معـدن وهـو النحـاس فاستعمله خاماً ثم صنّعه ورافـق استخدامـه والمتاجـرة بـه ظهـور حضـارات المدن خاصة في الشرق. ومع اكتشاف هذا المعـدن ندخـل العصر البرونـزي ثـم الحديـدي أو مرحلـة مـا قبيـل التاريـخ أو كما اصطلـح بعض العلمـاء على تسميتها بعصر المعادن (Période protohistorique ou Âge des métaux).

ثانياً: حضارات ما قبيل التاريخ (Civilisations Protohistoriques)

تدخل حضارات مرحلة ما قبيل التاريخ بين أواخر الفترة الزمنية الما قبل التاريخية التي لم تعرف الكتابة وأوائل العصر التاريخي الذي عرف الكتابة، حدودها الزمنية القصوى والدنيا وتقسيمها يستند الى تطور طراز وشكل الأدوات والاسلحة والزخارف. هذا التطور ظهر نتيجة لتنقلات الشعوب أو غزواتها أو هجراتها أو نتيجة لتطور طبيعي في الموقع نفسه.

وحضارات ما قبيل التاريخ اسم أعطي لحضارات لم تعرف الكتابة ولكنها عاصرت حضارات تاريخية ومن خلال كتابات هذه الأخيرة وبوسائل المقارنة العلمية تمكن العلماء من جمع المعلومات عن هذه الحضارات ومنها مثلاً حضارة الغول (Civilisation Gauloise)، التي تعود إلى ما قبيل التاريخ.

١ ـ العصر البرونزي L'Age du Bronze

تتغير الفترة الزمنية المحددة للعصر البرونزي وفقاً للمواقع، فنجد أنه يشمل ثقافات تعود الى ما قبل التاريخ. كما في أوروبا الغربية، وإلى ما قبيل التاريخ، كما في كريت المينونية أو وادي الهندوس، وإلى العصور التاريخية كما في بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر.

في الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد ظهرت أولى معالم التعدين في الشرق الأدنى وانتشرت في حوض البحر الأبيض المتوسط ووصلت إلى أوروبا بين سنة ٢٥٠٠ و ٢٠٠٠ ق. م. وفي المرحلة الانتقالية أي الكلكوليتية أو الإنيوليتية استعمل الذهب والنحاس كحلي ولأغراض تزينية بينما السلاح والأدوات الأخرى ظلت تصنع من الحجر الصواني.

وتقنية صناعة البرونز اختراع آسيوي، تمّ في منطقة من مناطق آسيا قديماً، من هنا يمكننا اعتبار آسيا مركز ولادة العصر البرونزي الذي اتفق العلماء على أنه يبدأ حوالي الألف الثالث قبل الميلاد. هذا التحديد الزمني يشمل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في الأناضول، سوريا، فلسطين

كريت واليونان. أما بلاد ما بين النهرين وخاصة سومر التي ساهمت في حضارة العصر البرونزي والتي لا تعرف هذا التقسيم التاريخي فيمكننا أن نضمنها إياه، فكل ثقافات الشرق الأدنى هي بالتالي، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتطور التقني كما هي مرتبطة بالتحولات التاريخية التي تحدد عموماً العبور من مرحلة إلى أخرى. كذلك نجد أن هذه التسمية لا تُطبّق على مصر رغم أن مراحل الامبراطوريات القديمة والوسطى والحديثة تنطبق على العصر البرونزي القديم والوسيط والمتأخر. وفي أوروبا تنتشر تقنية البرونز متأخرة أي حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد، ولا شك في أن مصدرها الشرق الأدنى، وأن التقنيين الآسيويين في بحثهم عن مصادر جديدة للمواد الأولية أوصلوها إلى أوروبا. والعالم الهندي يتبع عن قرب تطور الشرق الأدنى، بينما الهند تحديداً لم تعرف هذه المرحلة وظل النحاس منتشر الاستعمال فيها طوال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. والصين عرفت البرونز خلال القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد. أما أفريقيا السوداء (الداخلية) فنجد أنها لم تعرف البرونز بل انتقلت مباشرة من العصر الحجري الحديث الى العصر الحديدي. والبرونز الذي انتشر في وادي النيل وشمالي السودان بواسطة مصريي الامبراطورية الحديثة لم يذهب انتشاره أبعد من ذلك. والعالم الأميركي لا يمكننا إدراجه في العصر البرونزي لأنه لم يعرفه إلا في فترة متأخرة جداً عن غيره من شعوب العالم.

والعصر البرونزي يمتد في الشرق الأدنى من حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد وحتى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، وفي أوروبا الغربية يمتد بين سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وسنة ٩٠٠ قبل الميلاد.

هذا الفرق الزمني يوضح ويبرز أهمية الشرق الأدنى وتفوقه الحضاري على شعوب العالم القديم.

ويقسم العصر البرونزي إلى مراحل ثلاث نوضحها في الجدول التالي، معتمدين توزيعها الزمني في الشرق الأدنى ونعطي نموذجاً له موقع إيبلا

(تل مرديخ) في سوريا، ونأخذ بالنسبة لأوروبا التوزيع الزمني المعتمد في المراجع الأثرية والتاريخية.

	الشرق الأدنى	إبيلا	أوروبا
العصر البرونزي القديم	ق.م. ق.م. من ٣٠٠٠ حتى ٢٠٠٠	ق.م. ق.م. من ٣٥٠٠ حتى ٢٠٠٠	ق.م. ق.م. من ١٨٠٠ حتى ١٥٠٠
العصر البرونزي الوسيط	ق.م. ق.م. من ٢٠٥٠ حتى ١٦٠٠ أو ق.م. ق.م. من ٢٠٠٠ حتى ١٥٥٠	ق.م. ق.م. من ٢٠٠٠ حتى ١٦٠٠	ق.م. ق.م. من ١٥٠٠ حتى ١٢٠٠
العصر البرونزي المتأخر أو الحديث	ق.م. ق.م. من ١٦٠٠ حتى ١٢٠٠ أو ق.م. ق.م. من ١٢٠٠ حتى ١١٠٠	ق.م. ق.م. من ١٦٠٠ حتى ١٢٠٠	ق.م. ق.م. من ١٢٠٠ حتى ٩٠٠ أو ٧٠٠ ق.م.

أ ـ العصر البرونزي القديم:

إنه الفترة الواقعة بين الألف الرابع والألف الثالث قبل الميلاد بالنسبة للشرق الاوسط وقد صهر فيه النحاس مع القصدير ليشكل منهما البرونز وهو أصلب وأفضل من النحاس الصافي. هذا المعدن الجديد انتشر بسرعة ووصل إلى أوروبا حوالي سنة ١٨٠٠ ق.م. واللقى الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة نادرة جداً إذا ما قورنت مع عدد المواقع المكتشفة خاصة في الشرق.

ب ـ العصر البرونزي الوسيط:

ويمتد من حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. وحتى حوالي سنة ١٦٠٠ ق.م. في الشرق. ومن سنة ١٥٠٠ ق.م. حتى حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. في الغرب (أوروبا). وقد تميز هذا العصر بانتشار الأفران المعدنية علماً أن درجة ذوبان النحاس تفوق الـ ١٠٨٠° درجة مئوية وتفترض تقنية متطورة وتصميماً بامكانه تحقيق هذه الحرارة المرتفعة.

ج ـ العصر البرونزي المتأخر:

يعتبر فترة مميزة وفريدة ثقافته أتت نتيجة لهجرة الشعوب الوافدة من الشرق ومن أهم مظاهرها في أوروبا أسلوب جديد في دفن الموتى يقوم على حرق الميت وحفظ رماده في علب مدفنية في الأرض.

شهدت العصور البرونزية حضارات، تزامنت أو تتالت، وثقافات كانت أساساً، دفعها ومهد لولوجها العصور التاريخية التي عرف فيها العالم القديم تطورات تقنية وصناعية وسياسية واجتماعية، وكان من أهمها تقنية الحديد التي اعطت اسمها لحقبة تاريخية طويلة تدعى العصر الحديدي.

ثالثاً ـ العصور التاريخية.

العصر الحديدي L'Age du Fer

تطلق هذه التسمية على المرحلة التي تلي العصر البرونزي وفيها أصبح استعمال الحديد دارجاً في صناعة الأدوات العادية خاصة الأدوات الزراعية والحربية فظهرت السيوف الطويلة والقصيرة ورؤوس الحراب والسهام والفؤوس.

ففي بلاد الأناضول بدأت صناعة الحديد في الألف الثاني قبل الميلاد وفي أوج العصر البرونزي. وانتشرت هذه التقنية تدريجياً اعتباراً من القرن الثاني عشر قبل الميلاد في مناطق الشمال الشرقي لحوض البحر الأبيض

المتوسط ثم في بلاد البلقان الأوروبية. ويعزو البعض تفوق الحثيين وشعوب البحر، في صناعة الحديد على معاصريهم من المصريين ومن شعوب بلاد ما بين النهرين، لأنهم كانوا يملكون أسلحة حديدية. والجدير بالذكر أن السلاح الحديدي لم يصبح شائعاً إلا في القرون الأولى من الألف الأول قبل الميلاد. ويذهب العلماء في تحديد العصر الحديدي في أوروبا الوسطى وفي شرقي حوض المتوسط إلى القرن الثاني عشر أو الحادي عشر قبل الميلاد.

إن استعمال مصطلح العصر الحديدي الأول أو الثاني أو الثالث، كما هي الحال بالنسبة لمصطلح العصر البرونزي يبقى قليل الانتشار ولا يستعمل فعلياً إلا في قبرص وفلسطين. ويفضل عليه اليوم التوزيع الآتي: ـ العصر الحديدي الأول، أو عصر القضاة والمملكة الموحدة، ويمتد من القرن الثاني عشر قبل الميلاد حتى القرن العاشر قبل الميلاد.

ـ العصر الحديدي الثاني، أو عصر انقسام المملكة الموحدة إلى مملكتي يهودا واسرائيل، ويمتد من القرن التاسع قبل الميلاد حتى أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

ـ العصر الحديدي الثالث، أو العصر الفارسي، ويمتد من سنة ٥٥٠ قبل الميلاد تقريباً حتى سنة ٣٣٠ ق.م.

أما بالنسبة لبلاد الأناضول فالعصر الحديدي هو المرحلة التي شهدت غزوات الفريجيين (شعب من أصل هندو ـ أوروبي). وبالنسبة لبلاد اليونان إنها المرحلة المظلمة أو المرحلة الما قبيل الهندسية والهندسية وأوائل الآرخية، وفي أوروبا إنها المرحلة المدعوة هالستات ولاتين. أما في مصر فالعصر الحديدي لا وجود له كمصطلح، ويبدأ في أفريقيا السوداء الشرقية في القرون الأولى ميلادية من خلال التجارة مع السودان وخاصة مع مروة (Méroé). وفي إيران مرحلة العصر الحديدي هي عصر الميديين والفارسيين. وفي الهند والصين نجد أنه يعتبر عصر الخزفيات الرمادية في الهند العائدة للألف الأول قبل الميلاد، وعصر الممالك المحاربة في الصين، ويبدأ فعلياً في أواسط الألف الأول قبل الميلاد.

عموماً، يمكننا اعتبار أواخر الألف الثاني قبل الميلاد بداية للعصر الحديدي والقرن الأول قبل الميلاد نهاية لـه.

ونستطيع، من خلال الجدول التاريخي اللاحق، أن نلاحـظ الحضارات التي ظهرت في العالم ومدى التطور الحضاري الـذي وصلت إليـه في تاريـخ محدد نسبياً. فحتى أوائـل الألـف السابـع قبـل الميـلاد كانت جميـع شعـوب العالم تعيش مـن القنص والقطـاف ولم تكـن تعـرف التجمعـات البشريـة في القرى التي بدأت تتكون خلال العصر الحجري الحديث. واكتشاف الانسان للزراعة وتأنيسه للحيـوان ساهما في تجمـع الرحالـة ـ القنـاصة واستقرارهـم وبدء عملية بناء المساكن الدائمة، وتعتبر هـذه المرحلـة ثـورة بالنسبـة للعـالم القديـم. معالمهـا بـدأت في الشرق الأدنى ومنـه امتـدت وببـطء إلى أوروبـا والشرق الأقصى. ولكننا نجد شعوب الغـرب مـا زالت في العصر الحجـري الحديث بينما كان المصريون يبنون أهرام الجيزة وشعوب بلاد ما بين النهرين ينشئون المدن ــ الدول في سومر والأكديون يشكلون أول امبراطورية سامية.

ونجد من ناحية أخرى الرومان يوحدون شعوب الغرب والشرق بينمـا تنمو في اميركا حضارة المايـا (Mayas). وفي البيرو تزدهر ثقافة تياهواناكـو (Tiahuanaco) في الوقت الذي تجتاح فيه الغزوات الجرمانية أوروبا. ويبدأ عصر النهضة في أوروبا في الوقت الذي تنهار فيه امبراطوريات هنود أمريكا قبل أن يغزوها الأوروبيون.

وهذه المقارنة التاريخيـة تبقى نسبيـة لأننـا عنـد قـراءة الكتب التاريخيـة القديمة نستغرب دقة التأريـخ بعض الأحيـان. كتأريـخ حكـم ملك آشوري أو حملة فتح في آسيا أو حكم فرعون في مصر أو معركة يونانيـة أو فارسيـة أو رومانية. لكننـا عندمـا نـدرك أن لكـل شعب طرقـه الخـاصة في حساب السنوات أو الزمن تزول دهشتنا. فاليونان سجلوا تاريخهم بدءاً بتاريـخ أول دورة للألعاب الاولمبيـة أي منـذ سنـة ٧٧٦ قبـل الميـلاد وكانت تفصل بين الدورة والأخرى مدة أربع سنوات (وقد تبنت هذا التقليد الدول المعـاصـرة

في إقامة الدورات الرياضية الأولمبية). والرومان كانوا يسجلـون تـاريخهـم انطلاقاً من تاريخ تأسيس مدينة روما، أي من سنة ٧٥٣ قبل الميلاد. ونجد الشرقيين يحسبون تاريخهم معتمدين مدة ملك حكامهم. إلى جـانـب هـذا كله فقد ساهمت النصوص والكتابات القديمة على أنواعها في تحديد تاريـخ الحضارات القديمة، هذا التحديد الذي تطلب جهودا جبارة في حقول العلم عامة خاصة بالنسبة لحضارات ما قبل التاريخ وما قبيل التـاريـخ.

لا يقف علم الآثار عند تاريخ محدد ولكنه يـذهـب إلى أبعـد الحـدود الزمنية يحاول استقراءها، يراقب تطورها، يدرسها، يغـوص في تـشعبـاتـهـا اللامحدودة، متطلعاً لاكتشاف الجديد ـ القديم المتواصل، ساعياً إلى تنظيمها علمياً وعملياً. وعلماء الآثار يمهدون لذلك بوضعهم المصطلحات التي تحدد المراحل الحضارية فنجدهم تارة قد تناولوها بشكل عام واعطوها اسماً شمـل مرحلة تاريخية لا حدود موضوعية لها، كما هي الحال بالنسبة للعصور الحجرية أو البرونزية أو الحديدية، وأخرى حصروها بموقع أو منطقـة أو سلالـة أو شعب أو معتقد، كما في حضارة تل حلف أو عبيد أو سومر والسـومـريـين أو طيبة والطيبين أو كنعان والكنعانيين أو اليـونـان واليـونـانـيين أو رومـا والرومانيين أو سلوقس والسلوقيين أو بيزنطية والبيـزنـطـيين أو المسيـحـيـة أو الاسلاميـة ...

وفي دراستنا لن نقف عند نهاية العصر الحديدي ولكننا سنعـود إليـه خلال بحثنا عن حضارات الشعوب القديمة في العالم العربي وسنكتفي بذكـر تأثيرات بعض الحضارات التي ما زالت واضحة على المعالم الأثرية في عالمنـا العربي كالحضارة اليونانية والرومانية والبيزنـطيـة.

* الجدول التاريخي *

التاريخ	أوروبا الغربية	اليونان	مصر	الشرق الأدنى	الهند والصين	أميركا
قبل الميلاد ١٢٠٠٠	العصر الحجري القديم					
	العصر الحجري الوسيط					العصر الحجري
٨٠٠٠				حجري حديث		
٥٠٠٠		حجري حديث		(تركيا ـ فلسطين		
٤٠٠٠	حجري حديث			سوريا ـ العراق) تل حلف وعبيد		
					حجري حديث	أولى زراعات
٣٠٠٠	أبنية ميغاليتية		الامبراطورية القديمة	بداية سومر أور أوروك تأسيس طروادة		الذرة في المكسيك
٢٥٠٠ ٢٠٠٠	نهاية الحجري الحديث	أوائل العصر البرونزي	أهرام الجيزة	الامبراطورية الأكدية في بلاد ما بين النهرين	بداية حضارة الهندوس	بداية الزراعة في الأنـد
				أول زمّورات		
١٨٠٠	العصر البرونزي		الامبراطورية الوسطى		عهد شنغ في الصين	اولى الفخاريات
١٦٠٠				الامبراطورية البابلية		
١٤٠٠		العهد الميساني	الامبراطورية الحديثة الطيبيون	هيمنة الحثيين	أريان في الهنـد	دخول زراعة الذرة الى أميركا الشمالية
١٢٠٠						
١٠٠٠		غزوات الدوريين		انهيار الحثيين		
					عهـد شو في الصين	
٨٠٠	العصر الحديدي الأول (هالستات)	العصر الحديدي	اوائل الفترة المتأخرة	العبريون في فلسطين		

٦٠٠	اوائل روما غزوات السليتين	التوسع اليوناني (ايطاليا وتركيا)		هيمنة الآشوريين ثم البابليين	دخول الحديد الى الصين	أولى المدن في البيرو (شافين)
٥٠٠	العصر الحديدي الثاني (لاتين)		سيطرة الفرس	حتى الهندوس		
٤٠٠		هيمنة آثينا				أولى المدن ذات الأبنية الحجرية في المكسيك
٣٠٠	توسع روما	انتصارات الاسكندر الكبير ووصوله حتى الهندوس				
٢٠٠		الامبراطورية اليونانية المقدونية			اوائل عهد الامبراطورية الصينية من ٢٢٠ – ٢١٠ ق.م.	اوائل حضارة المايا
١٠٠	نهاية قرطاجة	انتصار الرومان تابعة لروما		البارتيون أسياد بلاد فارس وما بين النهرين		أولى أهرامات المكسيك
صفر ميلادي	اجتياح الرومان لبلاد الغول				سلالة هان في الصين	
١٠٠	أوج الأمبراطورية الرومانية					أوج المانيا والاولمك في المكسيك
٢٠٠						
٣٠٠				الساسيون أسياد بلاد فارس وما بين النهرين		
٤٠٠	غزوات البرابرة نهاية الامبراطورية الرومانية					
٥٠٠		الامبراطورية البيزنطية				
٧٠٠	ممالك الفرنج			فتوحات العرب مركز الخلافة بغداد		نهاية امبراطورية المايا القديمة
٩٠٠						
١٠٠٠	العصور الوسطى			أولى حملات الأتراك		التولتيك في المكسيك
١٢٠٠	العصر القوطي			اجتياح المغول بقيادة جنكيز خان		ظهور الأهرام من جديد (تيوكالي) الأزتك في المكسيك والإنكا في البيرو
١٤٠٠						
١٥٠٠	اكتشاف أميركا	احتلال الأتراك القسطنطينية				الغزو الاسباني

الفصل الثالث

العالم العربي وحضارات الشعوب القديمة

إن تاريخ الحضارات القديمة التي عاشت على أرض الوطن العربي طويل، تطور وتجدد وكان انعكاساً لنمط الحياة السائدة وللظروف الطبيعية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. والترحال، والتنقل المستمر، سعياً وبحثاً عن الاستقرار، والتنازع على مصادر المياه والرعي خلق نوعاً من الفوضى في العالم القديم وسمح لشريعة الغاب التحكم بمصائر الشعوب. والاستقرار تطلب الدفاع الذي لم تعد له الصفة الفردية، إنما الجماعية ومع تشكل الجماعات ونشوء القرى فالمدن تكونت الممالك الصغيرة التي ما أن شعرت بقوتها حتى حاولت التوسع فاصطدمت بغيرها من القبائل أو الممالك، ونتيجة للانتصارات تكونت الممالك الكبيرة والامبراطوريات التي تزامنت مع بعضها أحياناً وأقامت علاقات ودية أو تجارية أو عسكرية. وهكذا نشأت ممالك وزالت أخرى وتكونت امبراطوريات وزالت أخرى.

وطبيعي أن تكون نقاط العبور والمحطات التجارية البرية والبحرية بين منطقة وأخرى من أكثر المواقع أهمية في العالم القديم كما في عالمنا اليوم. وخريطة العالم العربي اليوم ليست هي نفسها أيام السومريين أو البابليين أو الآراميين ... أو غيرهم من شعوب الحضارات القديمة كما أنها ليست على ما كانت عليه في أوج الفتوحات الاسلامية. وهذا ما يحملنا على تناول أهم الحضارات القديمة التي تركت بصماتها على أرض الوطن العربي. وقبل البدء في بحثنا لا بد لنا من إلقاء نظرة ولو سريعة على شعب ذريته ما زالت

تشغل حيزاً كبيراً من الدراسات الانسانية التي تنقصها المستندات والمعطيات المادية لتثبت رأياً أو مقولة لا تدحض، إنه الشعب السامي.

١ ـ الساميون:

من هم الساميون؟

لقد ورد في الفصل العاشر من سفر التكوين ـ العهد العتيق:

«١) وهؤلاء بني نوح سام وحام ويافث ومن لد لهم من بنين بعد الطوفان.

٢) بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس.

....

٦) وبنو حام كوش ومصرائيم وفوط وكنعان.

٧) وبنو كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا. وبنو رعمة شبا وادان.

٨) وكوش ولد نمرود وهو أول جبار في الأرض.

٩) وكان جبار صيد أمام الرب ولذلك يقال كنمرود جبار صيد أمام الرب.

١٠) وكان أول مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار.

١١) ومن تلك الأرض خرج أشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح.

....

٢١) وولد لسام أيضاً بنون وهو أبو جميع بني عامر أخو يافث الأكبر.

٢٢) بنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام.

....

٢٦) ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح.

....

٣١) هؤلاء بنو سام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم.

٣٢) هؤلاء عشائر بني نوح بمواليدهم وأممهم ومنهم تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان».

من خلال هذا التصنيف الأولي والمبسط الوارد في الفصل العاشر من سفر التكوين والذي يعطي أرومة مشتركة للعيلاميين الذين يتكلمون لغة آسيانية وللآشوريين والآراميين والعبريين ذوي اللهجات السامية نتبين أن سام يعتبر أب ذرية انتشرت في الشرق، ولكننا نجد أيضاً أن السامية تتضمن المفهوم الألسني أكثر منها الثقافي أو العنصري مثلها مثل اللغة الهندو ـ أوروبية ولا توجد حضارة سامية واحدة كما أنه لا توجد حضارة هندو ـ أوروبية واحدة وكل من الشعوب السامية القديمة حيث استقرت كونت ثقافة خاصة بها رغم وجود بعض الملامح الحضارية المشتركة فيما بينها.

ويبقى أن نعرف المنشأ الأصلي للشعوب السامية ومن أين أتت أساساً، وأين حلت؟

ولو عدنا قليلاً إلى الفصل العاشر من سفر التكوين نجد:

«١٢) وراسن بين نينوى وكالح وهي المدينة العظيمة.

١٩) وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آت نحو جرار إلى غزّة وأنت آت نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع.

....

٢٩) وأوفير وحويلة ويوباب. كل هؤلاء بنو يقطان.

٣٠) وكان مسكنهم من ميشا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق».

أنه يذكر أين استقروا دون أن يذكر من أين جاؤوا؟ ...

ولقد اعتمد العديد من الأخصائيين نظرية تنحى إلى القول بأن مهد الشعوب السامية كان شبه الجزيرة العربية ويبنون نظرتهم ليس فقط على ما ورد في سفر التكوين إنما أيضاً على أن اللغة العربية هي من أقرب اللغات إلى اللغة السامية العامية. وأن هناك حالات لغوية سامية يظهر فيها تأثير المصرية القديمة. وأن هناك تقارباً بينها وبين اللغات الحامية المحكية في أفريقيا الشرقية وحتى مع لغة قبائل البربير (Bérbères) شعب أفريقيا الشمالية، الأبيض، والذي يعتبر من أقدم الشعوب المعروفة أثرياً.

وهناك نظرية أخرى تقول إن هناك جماعات من العصر الحجري الوسيط، بين الألف العاشر والألف الثامن قبل الميلاد، تفرقت وكوّنت الشعوب السامية ومن غير المجدي أن نبحث عن مهد محدد لها. ولكنه من المؤكد أن الساميين وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين وأكد كانت أول دولة منظمة لهم. وأهمية العنصر السامي في ماري وكيش منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد تظهر أنهم كانوا في هذه المنطقة منذ زمن بعيد وتثبت أن شعوب ما قبل التاريخ في بلاد ما بين النهرين وخاصة شعوب حضارة تل عبيد كانوا ساميين طردوا منها أو انصهروا مع السومريين الذين استطاعوا تبني لغتهم.

ولو عدنا إلى لوحات إيبلا (تل مرديخ) لوجدنا أنها تكشف عن وجود دولة تتكلم لغة سامية قريبة من اللهجات الكنعانية منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، وهذا الاكتشاف جعل مسألة أصل الساميين ومجيئهم من الجزيرة العربية تطرح من جديد. ومن خلال دراسة بعض المفردات السامية نجد أن بعضها مشترك لفظاً ومعنى ككلمة «نهر» المستعملة في جميع اللغات السامية، بينما كل لغة تستعمل لفظاً مختلفاً للدلالة على الجبل، وهذا أمر مألوف يأتي نتيجة لاحتكاك الشعوب ببعضها البعض، وبالتالي بلاد ما بين النهرين وحدها تؤكد على أنها كانت أول مهد للشعوب السامية.

أضف إلى ذلك، إن هجرة العموريين والآراميين أساساً من سوريا تفترض وجود أول مراكز انتشار الساميين في أعالي الفرات وفي المناطق الجنوبية.

وتاريخ الآشوريين الذين تمركزوا شمالي بلاد ما بين النهرين منذ الألف الثالث قبل الميلاد لا يدل على أنهم كانوا من المهاجرين، بل يؤكد أنهم يتحدرون من الشعوب القديمة التي كانت مقيمة عند ضفاف دجلة منذ أواخر العصر الحجري الحديث.

وعندما نتحدث عن حضارة سامية نميز الواحدة منها عن الأخرى لأن لكل منها خصائصها. فهناك الحضارة الأكدية والبابلية والأشورية والفينيقية والعبرية والنبطية والآرامية والعربية والأثيوبية ...

٢ ـ السومريون:

أتى السومريون بلاد ما بين النهرين من آسيا الوسطى من منطقة جبلية، وكان وصولهم في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، على شكل جماعات صغيرة ساهمت في عدم ترك أي أثر تاريخي لدخولهم. ومن المؤكد أن تدفقهم يبدأ في عصر جمدة نصر، أي في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، والذي يليه عصر ما قبل سرجون (حسب تسمية الباحثين الفرنسيين) أو عصر السلالات القديمة الأولى والثانية والثالثة (حسب تسمية الباحثين الانكلوسكسونيين) أو عصر التحول الاول + عصر مسيليم وعصر التحول الثاني + عصر أور الأولى (حسب تسمية الباحثين الألمانيين) وخلال هذه المرحلة الأخيرة بلغت الحضارة السومرية أوج بروزها. وتعتبر أوروك مدينة البطل الأسطوري غليغاميش، المركز الأكثر تعبيراً عن الثقافة التي حملها السومريون والتي تميزت بظواهر كان من أهمها عنصر الحجر الذي ادخلوه معهم إلى جنوبي البلاد، حيث استقروا، كما تذكر النصوص البابلية، في المنطقة الممتدة من بغداد شمالاً حتى رأس الخليج جنوباً، ومعلوم أن هذه المنطقة خلو من الحجارة. فقد بنوا من الحجر الزقورات التي تذكر بعبادات الجبليين القدماء، وصاغوا منه منحوتاتهم البارزة، وحملوه كتاباتهم التي تشير إلى أسماء الآلهة التي أقاموا لها المعابد وإلى أسماء الأشخاص المدفونين في المدافن الملكية.

واللغة السومرية مثل اللغات الآسيانية القديمة، تحمل خصائص اللغات السامية البدائية والهندو ـ أوروبية البدائية، احتوت على الكثير من المفردات الأكدية وغيرها من اللغات القديمة. وقد عزا بعض العلماء الى السومريين ابتداع الخط والكتابة المسمارية. وهذا أمر لا يمكن الجزم به لأن محاولات الانسان تدوين لغته قد جرت في بلاد الشام وفي جنوب بلاد ما بين النهرين في آن معاً. وبديهي أن حكم الجوار والتعايش بين السومريين والأكديين قد فرض التبادل الحضاري على مختلف وجوهه. ونصوص إيبلا تعتبر أوضح دليل على الشوط البعيد الذي بلغته اللغة الأكدية القديمة من دقة في قواعد النحو والصرف في ذلك العصر.

أهم مدن سومر، أور، أوروك، لاغاش، أومّا، أدب ماري، كيش، أوان، أكشاك. هذه المدن كونت كل منها «المدينة ـ الدولة» أو «المدينة ـ المعبد» وكانت في صراع دائم لبسط الهيمنة التي انتقلت دورياً من واحدة إلى أخرى.

ومن خلال التنقيبات الأثرية تبين أنه حتى عصر السلالات القديمة الثانية لا نجد قصوراً مستقلة لأن الملك كان حسب معتقداتهم كاهن المعبد ونائب الله نزلت سلطته من السماء ويعيش داخل أسوار المعبد. هذا «الملك ـ الكاهن» يحمل لقب «إن» (En) ويعني سيد، ولم يظهر لقب ملك إلا في عهد السلالات القديمة الثانية. ومع ظهور لقب ملك أو لوغال (Lugal) ظهر بناء القصر المستقل عن المعبد وهو الشاهد على الفصل بين السلطتين الدينية والمدنية وبروز الملكية العسكرية. وأول قصر معروف هو قصر تل «أ» (A) في كيش، وأول من حمل لقب لوغال هو ملك كيش ميباراجيزي (Mebaragesi)، حوالي سنة ٢٧٠٠ ق.م.

وما احتوته قبور أور التي تعود إلى القرون اللاحقة تشهد على التقدم الحضاري المادي الذي بلغه السومريون، سواءً كان في تصنيع المعادن أم في اعمال بناء المدن والصروح. ومن الأمثلة على ذلك المعبد البيضاوي في خفاجي، الى الشمال الشرقي من بغداد، ـ ومعبد الرب سن المستطيل

الشكل في خفاجي أيضاً، والمعبد المربع في تل أسمر إلى الشرق من خفـاجي، ومعبد عشتار في ماري ومعبد أينـانّا في نيبـور.

توقف توسع المدن السومرية فجأة في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد نتيجة لظهور أمبراطورية أكد السامية. والأكديون بدورهـم دمجـوا حضارة السومريين بحضارتهم ونشروها حيث وصلوا، إلى أن جاءت غـزوات قبائـل جوتي ولولّوبي (Guti و Lullubi) البربرية، من الجبال المجاورة (زاغروس)، وقضت على الامبراطورية الأكدية واجتاحت السهول. وحوالي سنة ٢١٢٠ ق.م. قلب ملك أوروك أوتوهيكـــال (Utu-hegal)سلطـة الجـوتيين وأسر ملكهم تيريكان (Tiriqan) فنهض السومريون من جديد وبـدأ عهـد هيمنـة لاغاش وأور. وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد عـادت سيطـرة السومـريين من خـلال سلالات إيسين ولارسا (Isin et Larsa) وبعد انتصار بابل أيـام حمورابي اختفت سومر سياسياً، ولكن اللغـة السومريـة ظلت لغـة الطقـوس الدينية، كما أن العديد من العناصر الحضارية السومرية اندمجت مـع الساميـة ـ البابلية وظلت حية فيهـا.

٣ ـ الأكديـون:

يعتبر سرجون مؤسس أول أمبراطوريـة ساميـة امتـدت على كل بـلاد مـا بين النهرين وعلى قسم من سوريا وآسيا الصغرى، وقد ظهر في كيش كقائد جبار، ورغم أن كيش بقيت مدينة رئيسية إلا أنـه أسس أكـد وجعـل منهـا عاصمة لملكه. وقضى على الممـالك السومريـة ووحـد بـلاد مـا بين النهريـن وتوسع نحو المناطق المجاورة، وبعد وفاته خلفه ولداه ريمـوش ومانيشتـوزو. ولمدة قرن ونصف سيطرت السلالـة الأكديـة على العـالم الشرقي، وكـونت امبراطورية دخل معها الساميون التاريخ. والمرحلة الأكدية تكمن أهميتهـا في أنها جعلت السلطة الملكية تتفـوق على السلطـة الدينيـة وتسحقهـا هـذا مـن ناحية، ومن ناحية أخرى أوجدت الملكية الخاصة التي لم تعرف قبل عهدهم ودفعتها الى الانتشار بسرعة.

وموقع أكد لا يزال حتى الآن مجهولاً ومعظم المعلومات التاريخية وصلتنا من خلال الشعوب التي غزتها أو نهبتها، أو مما دوّنه كتّاب الدولة الأكدية من أخبار الفتوحات والتي نقلها عنهم مؤرخون بابليون وآشوريون. ويروي سرجون قصته: «كانت أمي فقيرة؛ أبي لم أعرفه؛ بعد ولادتي وضعتني أمي في سلة من القصب المطلي بالحمر (أو الزفت) وتركتني في النهر؛ النهر حملني نحو أكّي (AKKI)، محرر المياه، الذي جعلني بستانيه ... عندئذٍ احبتني الآلهة عشترت؛ مارست الملكية خلال خمسون سنة». ومن النص نتبين أن أكّي (Akki) كان يعمل ساقياً لبساتين أورزبابا ملك كيش وقصة سرجون مؤسس الامبراطورية الأكدية وصلتنا من خلال نص يعود الى العهد الآشوري. ويبقى السؤال مطروحاً كيف توصل هذا الولد الفقير المتروك لأهواء النهر، مثل موسى النبي إلى السلطة؟

اسطورة لا يمكن تجاهلها ولا تجاهل ما خلفه لنا الأكديون من آثار تكشف عن التطور الذي بلغوه في تصنيع المعادن، خاصة في صناعة البرونز، وفي النحت على الحجارة، خاصة نحت الأختام الاسطوانية المأخوذة في معظمها من حجارة كريمة، وفي الأوابد المعمارية القليلة المكتشفة، فقد بلغ الفن أوجه والأدلة على ذلك ماثلة في الشواهد التي تتمثل في العمارة والنحت والفنون الجميلة بشكل عام.

لم تكشف التنقيبات عن موقع أكد رغم المحاولات التي تمت في مواقع عديدة ومنها موقع تل الدير، جنوبي بغداد. ولكن كشف عن مواقع أكدية في تل أسمر وفي مدينة آشور في العراق. وفي تل براك في سوريا. وفي كل من المواقع المذكورة قصر، وأهم هذه القصور هو قصر الملك نارام سين الأكدي في تل برارك، وكما درج عليه القدماء كان الموقع نفسه تشغله الشعوب بالتتالي، فقد بني فوق معبد يدعى معبد الألف عين، وقد بلغت سماكة جدرانه الخارجية العشرة أمتار أما الداخلية فتراوحت بين ٣,٣٠م. و ٢,٣٠م. شكل القصر مربع ضلعه ١٠٠ م. يضم داخله عدة باحات ومستودعات وقد عثر في أحد المستودعات على بقايا من الحنطة المتفحمة. ويظهر أن هذا القصر كان الهدف من إقامته حماية الطرق التجارية بين بلاد

ما بين النهرين وآسيا الصغرى. وقصور هذا العصر امتازت بتعدد الباحات الداخلية التي تحيط بها الغرف والمستودعات وبسماكة الجدران وتعتبر رمزاً لقوة الدولة وعظمتها كيف لا، وهي مسكن الملك ومقره.

أما ما عثر عليه من شواهد تعود لأكد العاصمة ففضل العثور عليه يعود إلى أعمال النهب ! ذلك أن الغزاة حملوا معهم تحف أكد ومن أهمها رأس جميل لسرجون من النحاس عثر عليه في نينوى، نصب لنارام سين وتمثال كبير لمانيشتوزو ونصب لسرجون عثر عليهم في سوسة.

ـ رأس سرجون النحاسي، ويعزوه البعض لنارام سين، يعتبر من أجمل ما عثر عليه في العصر الأكدي، وقد برع الفنان في إظهار ملامح سرجون: أنف طويل، حاجبان مقوسان، شفتان عريضتان، لحية طويلة لولبية وشعر مضفور ومجدول بشكل فني رائع.

ـ تمثال مانيشتوزو ويظهر فيه مرتدياً، عوضاً عن المئزر الجلدي القصير الجامد الذي كان يظهر في منحوتات السومريين، مئزراً محاكاً طويلاً ومتموجاً وقد ظهرت عند أطرافه نهايات الخيوط وكأنها شراريب. وما يميزه هو الطول الطبيعي الذي اصبحت تنحت به التماثيل بعد أن كانت تمثل قصيرة جداً.

ـ نصب أو مسلة نارام سين، منحوتة تخلد ذكرى انتصار نارام سين على قبائل اللولوبي ويظهر فيها مرتدياً الخوذة ذات القرنين، وفوق رأس الجبل الذي يقف أمامه، الشمس والكواكب، وعند قدميه الجنود يتسلقون الجبل بين الأشجار ... وفي هذا النصب يتخلى الفنان عن تقسيم اللوحة إلى حقول أفقية ليمثل لنا مشهداً طبيعياً متكاملاً.

ـ نصب أو مسلة سرجون ويظهر فيها الملك القائد لجنوده، والأسرى المكبلين، وسرجون يضرب الأسرى والربة تجلس على العرش. وفي هذه المنحوتة يظهر التأثير السومري في الشبكة المليئة بالأسرى وفي ترتيب المشاهد وفي الثياب التي لم تتغير كثيراً عن ثياب العصور السابقة.

وأفضل وأوضح معبر عن الحياة بمختلف وجوهها عند الأكديين هي الأختام التي نحتت بمشاهد حياتية وطبيعية ودينية، كمجالس الشراب والعزف على الآلات الموسيقية والصيد والحرث وصراع الحيوانات الأليفة والبرية، والطقوس الدينية كمثول المتعبد أو الكاهن في حضرة الرب أو الربة وتمثيل المعبد على ظهر ثور، وتمثيل الآلهة ومنها شمش، إيا، عشتار، الحنش، إله الجو، اله الخصاب، ومشاهد صراع الآلهة فيما بينها. وأيام سرجون وابنته أن ــ خيد ــ وانا فقد كانت المواضيع تقليداً لما سبقها، أما في عهد ريموش ومانيشتوزو فقد زال التأثير السومري، وفي عهد نارام سين بلغ فن النحت على الأختام ذروته وظهرت مواضيع جديدة مثلت فيها حتى الاساطير.

أهم ملوك السلالة الأكدية:

سرجون (٢٣٧١ ق.م. ــ ٢٣١٦ ق.م.)، ريموش (٢٣١٥ ق.م. ــ ٢٣٠٧ ق.م.)، مانيشتوزو (٢٣٠٦ ق.م. ــ ٢٢٩٢ ق.م.) نارام سين (٢٢٩١ ق.م. ــ ٢٢٥٥ ق.م.) وإليه ينسب تدمير إيبلا. شار ــ كلي ــ شاري (٢٢٥٤ ق.م. ــ ٢٢٣٠ ق.م.) حمل لقب ملك كل الملوك ولكنه لم يستطيع حماية المملكة من التمزق ومن الحركات التحررية فقام السومريون من جديد يستعيدون سيطرتهم وتوغل البرابرة الجوتيون الوافدون من جبال زاغروس. وبعد وفاته حكم ست ملوك ضعفاء، نذكر منهم: دودو (٢٢٢٦ ق.م. ــ ٢٢٠٦ ق.م.) وشودورول (٢٢٠٥ ق.م. ــ ٢١٩١ ق.م.)

بُعثت نهضة الممالك السومرية والأكدية من جديد بمساعدة الكنعانيين الأموريين الذين توغلوا في البلاد وأسسوا ممالك سيطرت فيما بعد على كل بلاد ما بين النهرين. أما الجوتيون الذين دمروا المدن والقر ى وسيطروا لمدة قرن تقريباً على المناطق الشمالية من بلاد سومر وأكد فلم يتركوا أي أثر حضاري يذكر وظلت حضارة البلاد الأصلية هي المهيمنة. ومن بين المدن التي استعادت نهضتها: أوروك عاصمة السومريين التي قضى ملكها

على الجوتيين، لاغاش ومن أهم ملوكها جوديا، أور ومن أهم ملوكها أورنامو مؤسس سلالة أور الثالثة، وأسين ولارسا اللتان حكمتهما سلالات كنعانية سيطرت على البلاد وانبعثت عنها دولة قوية هي الدولة البابلية.

٤ ـ البابليون:

شعوب سومرية أكدية وأمورية اختلطت وشغلت بلاد سومر ابتداءً من أوائل الألف الثاني قبل الميلاد وأخذت تسمية البابليين نسبة إلى بابل الواقعة في جنوبي بلاد ما بين النهرين. والتي لم تكن سوى مركزاً تجارياً صغيراً في الوقت الذي كانت فيه ماري قد بلغت أوج مجدها. ففي القرن الثامن عشر قبل الميلاد. أيام حمورابي، هيمنت بابل على بلاد ما بين النهرين الوسطى واندمج تاريخ الشعوب البابلية مع تاريخ عاصمتهم التي اصبحت بابل المدينة الأسطورية. وعملية التوحيد الواضحة في شرائع حمورابي الشهيرة تقوم على صهر الشعوب وترفض المبادىء السياسية ـ الإثنية من سومرية وأكدية وغيرها ...

وحمورابي، يعتبر أعظم ملك بابلي من السلالة الأمورية، استطاع بفضل سياسته الصارمة اخضاع المدن ـ الممالك المجاورة. وقد عثر على النصب الذي حمل شرائعه في سوسة سنة ١٩٠٢ م. هذا النصب الذي لم يعره مكتشفه ده مورغان (De Morgan) بادىء الأمر أهمية كبرى يعتبر من أهم القوانين التاريخية المتعلقة بمختلف النواحي الحقوقية وقد تضمنت ٢٨٢ مادة منظمة ومبوبة ومرتبة ترتيباً منطقياً واضحاً وشاملاً. وقد سادت فيها روح العدالة والديمقراطية وخلت من الاحكام الدينية، ومما جاء فيها:

«وعندئذ آل وبال (وهما الاها بابل) قد نادياني باسمي، أنا حمورابي، الملك السامي الذي يتقي الآلهة، لكي أقوم بما يعود إلى خير البشر، وأجعل الحق سائداً في هذه البلاد، وأقضي على الشرير والفاسق وأمنع الظالم من الاضرار بالضعيف ...»

أقيم هذا النصب أساساً في بابل في مدينة سبار ولكن الملك العيلامي شتروك ناختّي حمله إلى سوسة في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. إنه من حجر الديوريت يبلغ ارتفاعه ٢,٢٥ م. وعرض قاعدته ١,٩٠ م. نقشت عليه الشرائع بالكتابة المسمارية. القسم العلوي منه على شكل قوس يحمل مشهداً يمثل الإله شمش، إله الشمس والعدل، جالساً على عرش جانبه تحت كواجهة معبد، معتمراً تاجاً تزينه القرون، ومن كتفيه تنبعث أشعة الشمس. ولحيته الطويلة تتدلى على صدره، يقدم بيده اليمنى الصولجان والخاتم لحمورابي المنتصب أمامه والذي يرفع يده اليمني خاشعاً، عوض أن يمدها لتناولهما كما في نصب زمري ليم الذي يقف أمام الآلهة عشتار التي تنصبه ملكاً في ماري.

ويعتبر نصب حمورابي من أهم الأعمال التي تمثل ليس فقط المجتمع البابلي من جميع نواحيه القانونية إنما أيضاً يعبر عن فن بابل القديم الذي يتمثل أيضاً في رأس جميل من حجر الديوريت يمثل الملك المشرع عجوزاً تبدو عليه علامات الارهاق والألم الروحي، وقد عثر عليه في سوسة، وفي تمثال عابد جاث من البرونز المغطى بالذهب، مقدم للإله أمورو، عثر عليه في مدينة لارسا في العراق، يبدو فيه العابد جاثياً على ركبته اليمنى ورافعاً يده اليمنى متسائلاً بخشوع المتعبدين.

والفن لسان حال الشعوب، فتوحيد البلاد الذي سعى إليه حمورابي خلق فناً توفيقياً، تلين وتهدأ فيه صلابة وقساوة المنحوتات السومرية بتأثير النعومة والأناقة السامية. والفن البابلي القديم يبقى غير واضح المعالم في مدينة بابل التي تعرضت بعد حمورابي لغزوات الشعوب المجاورة والوافدة ولكنه تمثل في مواقع أخرى عديدة، نذكر منها مثلاً مدينة ماري أيام زمرليم خاصة القصر المعروف باسمه.

وتنهض بابل من جديد في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد أيام نبوخذنصر وتبدأ المرحلة الكبرى الثانية من الفن البابلي أو مرحلة الامبراطورية

البابلية الحديثة الشهيرة بهندستها خاصة بمعابدها وزقوراتها وقصورها المميزة بضخامتها الموروثة عن الآشورية، ولكن الجمود يسيطر على منحوتاتها مقارنة مع المنحوتات الآشورية التي تضج بالحياة.

وأهم الملوك البابليين:

في عهد الامبراطورية القديمة: حمورابي (١٧٩٢ ق.م. ـ ١٧٥٠ ق.م.)

سامسويلونا (١٧٤٩ ق.م. ـ ١٧١٢ ق.م.)

أبيشوح (١٧١١ ق.م. ـ ١٦٨٤ ق.م.)

أميديتانا (١٦٨٣ ق.م. ـ ١٦٤٧ ق.م.)

اميزادوكا (١٦٤٦ ق.م. ـ ١٦٢٦ ق.م.)

سامسوديناتا (١٦٢٥ ق.م. ـ ١٥٩٥ ق.م.)

في عهد الامبراطورية البابلية الحديثة: بنو بلاصر (٦٢٦ ق.م. ـ ٦٠٥ ق.م.)

نبوخذ نصر (٦٠٥ ق.م. ـ ٥٦٢ ق.م.)

أول مردوك (٥٦٢ ق.م. ـ ٥٦٠ ق.م.)

نرجليزار (٥٥٩ ق.م.٥٥٦ ق.م.)

نبو نيد (٥٥٥ ق.م. ـ ٥٣٩)

ونبو نيد تخلى عن الحكم لابنه بال ـ شار ـ أوستور (بالتزار كما جاء في العهد القديم) وفي عهده وضع الفرس نهاية للامبراطورية البابلية.

لا بد لنا خلال بحثنا من أن نلقي نظرة، ولو سريعة، على شعوب لم تترك آثاراً وفنوناً خاصة بها رغم أن سلالاتها لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الشعوب القديمة، وقد أتينا على ذكر بعض منها كالأموريين (أو العموريين) والكاشيين.

٥ ـ الأموريـون:

تطلق تسمية أموريين على الشعب الأموري الذي ورد ذكـره في نصوص العهد القديـم. ففي عهـد ابراهيـم انشأوا مملكتين يفصل بينهمـا نهـر الأردن والبحر الميت. وتذكر نصوص بلاد ما بين النهريـن ونصوص المصريين هـذا الشعب الذي يبقى لغزاً في كثير من حالاتـه. وقـد كان ومـا زال منشأ هـذا الشعب الأصلي موضع بحث ونقاش.

من الباحثين من قال بأنه أتى من سوريا من المناطق الصحراويـة الواقعـة غربي نهـر الفـرات، مـن المنطقـة المدعـوة أمـورو (Amurru)، ومعنى هـذه الكلمة، الأكدية ـ السومرية، الغرب. وقد وردت في نصوص بـلاد مـا بين النهرين التي تعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبـل الميـلاد. ومنهـم مـن يقـول بأنهم قبائل هاجـرت مـن أواسط آسيـا الصغـرى. ومنهـم مـن يقـول بأنهـم شرقيي الأصل وهذا القول مشكوك به خاصة بعد اكتشاف نصوص إيبـلا، السومر ـ أكدية، التي تدمجهم مـع جماعـات تسميهـا مارتـو (Martu) مما يدل على أن المارتو لا يمثلون شعباً محدداً، إنما مجموعـات مـن الأشخـاص يمارسون حرفاً محددة. وهم يحملون أسماء ساميـة وغيـر ساميـة، وهـذا أيضاً ينفي النظرية القائلـة بأن الأمـوريين هـم قبائـل رحـل ساميـة كانت أصلاً في سوريا. وهناك كتابة أكدية مـن عهـد شار ـ كلي ـ شاري (٢٢٥٤ ق.م. ـ ٢٢٣٠ ق.م.) مفادها أن هذا الملك شن حملة على أمـوروم (Amurrum) في الصحراء السورية. ولكن في الفترة نفسها تقريباً نجـد في سومـر مارتـو ـ أموريت موظفين أو تجاراً أسماؤهم سومريـة أو أكديـة.

وفي أوائل الألف الثاني دمّر الأموريون أور وأصبحوا أسياد بلاد مـا بين النهرين وأسسوا أول سلالة بابلية لها شأوها ومجدها مع حمورابي (كما سبـق وذكرنا).

وقال بعض المفكرين أن الأموريين خلال توسعهم السريع ودكهم لأور. حاصروا في الشرق مدن فلسطين. وهم المسؤولون أخيراً عن نهاية الامبراطورية المصرية القديمة وعن هـروب الآسيـويين أمامهـم ووصولهم إلى مصر مـروراً

بفلسطين والذي لم يكن وحده سبباً في انهيار الامبراطورية المصرية القديمة إنما أيضاً ضعف السلطة الممفية.

أما المؤكد والثابت فهو أن الأموريين، الذين ظهروا في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد في سوريا، أنشأوا في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد ممالك في المناطق السورية والفلسطينية ومملكة قوية باتجاه الشرق كان مركزها بابل.

٦ ـ الكاشيون:

إن أول ذكر للكاشيين كان أيام سامسويلونا، خليفة حمورابي، والسنة التاسعة من حكمه تدعى «سنة الغزاة الكاشيين». هؤلاء «البرابرة» حاولوا مرة ثانية التوغل إلى بابل أيام أبيشوح. ويظهر أنهم دخلوا فيما بعد بلاد ما بين النهرين كمرتزقة أو كعمال ولكنهم اصبحوا في القرن السادس عشر قبل الميلاد أسياد مملكة خانا (Khana)، شمالي ماري، ومن مملكتهم هذه اتخذوا نقطة انطلاق وحاولوا مرة جديدة احتلال بابل التي كانت تعاني من حصار ملك الحثيين مرسل الأول. ولكن بابل صمدت ولم تسقط تحت سيطرتهم إلا في أيام ملكهم أرغوم الثاني سنة ١٥٦٠ ق.م.

ومن المؤكد أنهم قدموا من جبال زاغروس مع أن بعض المؤرخين يعتبرون منشأهم الأصلي بلاد القوقاز. كما أن البعض ينسب إليهم استعمال العربات ذات العجلات المشععة (دائرتها الداخلية مفرغة تدعم إطارها الخارجي أشعة تربط بينه وبين محور العجلة)، التي تجرها الأحصنة، وادخالها الى بلاد ما بين النهرين.

ظلت السلالات الكاشية مسيطرة على بابل حتى سنة ١١٥٧ ق.م. عندما هزم العيلاميون آخر ملوكهم إنليل ـ نادين ـ آخي عند ضفاف دجلة. ورغم أن الكاشيين اعتمدوا لغة وعادات وتقاليد ومعتقدات وحتى آلهة شعوب بلاد ما بين النهرين فقد أتوا ببعض العناصر المميزة. فقد غلبت على فنهم صناعة الأشياء الصغيرة، خاصة من الطين المشوي، كالرؤوس

البشرية والحيوانية، وبصناعة حجارة الحدود والمساحة للأملاك الخاصة والعامة التي كانت تحمل نصوص مسمارية أكدية تتضمن اسم المالك وحدود ملكه ولعنة من يمسها، إضافة إلى الرموز الدينية، وقد أخذت هذه الحجارة الشكل المخروطي أو شكل نصب أو مسلة. والجدير ذكره هو أن معظم المستفيدين من هذه «البيانات العقارية» أو شهادات الملكية كانوا كاشيين مما حمل على القول بأن الكاشيين كانوا يمثلون ارستقراطيي عهدهم أو اقطاعييه.

٧ ـ الآشوريون:

من أصل سامي كانوا قبائل رحل، في الألف الثالث قبل الميلاد، في المناطق المجاورة لنهر دجلة، وحول المركز الذي أصبح فيما بعد آشور. والنصوص الآشورية القديمة تأتي على ذكر ملوكهم ساكني الخيام. وحتى الآن لا نعرف تاريخ استقرارهم في آشور، ولكنهم تحضروا في العهد الأكدي وبعد تمركزهم انشأوا علاقات تجارية مع كبدوسيا (Cappadoce)، المنطقة الوسطى من الأناضول، وخاصة مع كانش (شرقي تركيا) حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. حيث أسسوا محطة لقوافلهم هناك.

أول ملك محارب وفاتح كان شمشي ـ أدد (١٨١٣ ق.م. ـ ١٧٨١ ق.م.) الذي بسط سيطرته حتى ماري في شمال سوريا والتي اصبح ابنه يسمع ـ أدد (Iasmah - Adad) حاكمًا عليها سنة ١٧٩٦ ق.م. وقد عثر على تمثال في ماري، يعتبر من أقدم التماثيل التي تحمل كتابة، للرب شمش أمر بنحته ملك ماري يسمع ـ أدد، حسب ما ورد في الكتابة المنقوشة على ظهر التمثال. لكن حمورابي وضع حداً لهذا التوسع سنة ١٧٥٤ ق.م.، ظلت بعدها البلاد الآشورية لمدة أربعة قرون تحت سيطرة الكاشيين ثم الميتانيين، حتى مجيء آشور أو باليت الأول الذي استقل. وبعد سنة ١٢٤٤ ق.م.، تاريخ استلام تيكولتي نينورتا الأول السلطة، عاد الآشوريون إلى سياسة التوسع والحرب. وتمكن تيكولتي نينورتا الأول من التغلب على الحثيين والكاشيين ووصل إلى الخليج الفارسي. وبعد فترة من التدهور ارتقى

أدد ـ نيراري الثاني العرش فنهضت المملكة الآشورية من جديد وناصبت جميع ممالك المنطقة العداء وشنت الحروب ضدها وأخضعتها وضمتها بعد صراع طويل استمر منذ عهد أدد نيراري الثاني سنة ٩١١ ق.م. حتى آخر عصر آشور بانيبال سنة ٦٢٧ ق.م. وتعتبر هذه الفترة عهد الامبراطورية الأشورية الحديثة التي امتدت من جبال ايران حتى البحر الأبيض المتوسط. وشملت حروبهم مناطق ايران والأناضول وبابل وعيلام وبلاد الشام ومصر ونجد والحجاز وقبرص. واسرحدون (٦٨٠ ق.م. ـ ٦٦٩ ق.م.) أخضع مصر ووصل حتى طيبة سنة ٦٧١ ق.م. ولكن هذه الامبراطورية التي ظلت طيلة ثلاثة قرون القوة الأعظم في المنطقة ما لبثت أن سقطت سنة ٦١٢ ق.م. نتيجة لضربات الميديين والبابليين معاً.

تبدلت عواصم الآشوريين مراراً ولكن آشور ظلت العاصمة الروحية. ومن أهم عواصمهم: كالاخ (نمرود) التي أسسها آشور ناصربال وقد بنى فيها قصراً له كما بنى فيها شملنصر الثالث قصره المركزي، دور شاروكين (خورسباد) وقد بناها سرجون الثاني وأقام فيها قصره الكبير، ونينوى التي كانت عاصمة سنحاريب واسرحدون، وآشور بانيبال وكل من هؤلاء الملوك بنى فيها قصراً.

هذه العواصم تمثل آثارها حضارة تعتبر من أغنى حضارات الشرق الأدنى القديم، خاصة في بلاد ما بين النهرين، ورغم ما ذكرته نصوص الشعوب القديمة التي خضعت لسلطة وجبروت الآشوريين ووصفتهم بالبرابرة الدمويين والمحاربين والاعداء الشرسين لا يسعنا إلا أن نعترف بخصب حضارتهم. فهندستهم قوية ولكنها أنيقة اعتمدت أساساً على المبادىء السومرية كما في الزقورات، وفنونهم بشكل عام أتت ثمرة حضارات سبقتهم وعاصرتهم، فقد أتوا بالفنانين من مختلف ارجاء امبراطوريتهم وأروع ما تتمثل فيه حضارتهم النحت، الذي ورثه عنهم الفرس الاخمينيون، خاصة منحوتات القصور التي تصور عالماً بكامله، ومن مواضيعها: مشاهد الصيد والحرب وإخضاع الاعداء والحفلات والمجالس والعبادة والآلهة المجنحة

وشجرة الحياة وحولها الجن. وفن صناعة البرونز كانت له مكانته وقد استخدم في كساء الأبواب ونقش بمشاهد أهمها تمثل انتصارات الملوك على الاعداء. كذلك الرسم وقد عثر على رسوم في دور شاروكين وفي تل برسيب. وأهم من هذا كله ما اتحفنا به آشور بانيبال الذي أمر بجمع آداب بابل وسومر وغيرهم في مكتبة نينوى التي ضمت ٢٠٠٠٠ رقيم من بينها ملحمة غالغاميش الشهيرة. هذه المكتبة وما احتوته تضعنا أمام حضارة تعتبر من أهم حضارات الشرق الأدنى القديم.

٨ ـ العيلاميون:

نشأت أول مملكة منظمة في منطقة عربستان (خوزستان في إيران) وكانت تدعى باللغة المحلية آنذاك علتامتي (Haltamti)، ونقلت هذه التسمية، كما وردت في العهد القديم، إلى عيلام ومعناها «أرض الله». ولا يزال حتى الآن أصل ومنشأ هذا الشعب غير معروف وكذلك لغتهم رغم الجهود التي يبذلها العلماء والمؤرخون.

ويعود تاريخ هجرة العيلاميين، إلى الأرض التي أخذت اسمهم «عيلام»، إلى الألف الخامس قبل الميلاد ويعتبرون مزارعين منذ الألف الثامن قبل الميلاد. وأهم مدنهم سوسة التي كانت مدينة حقيقية في الألف الرابع قبل الميلاد. ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد كانت لعيلام علاقات تجارية خاصة مع شعوب بلاد ما بين النهرين، الذين تطلعوا دائماً نحو عيلام التي كانوا يأتون منها بالخشب والنحاس والرصاص والفضة والقصدير وحجر البناء والحجارة النادرة مثل الألباتر والديوريت والاوبسيديين. واصبحت العلاقة بين العيلاميين وشعوب بلاد ما بين النهرين أوثق فيما بعد. ونتيجة للاحتكاك والعلاقات المباشرة نجد العيلاميين يتأثرون بالسومريين في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد وبالأكديين في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد.

وحوالي سنة ١٨٥٠ ق.م. استلم إبارتي، المجهول الأصل، السلطة في عيلام واعلن نفسه ملك أنشان (Anshan) وسوسة، وسلالته حكمت عيلام

لعدة قرون وحمل ملوكها لقب سوكال ـ ماخ أي «الحاكم الكبير» أو «الملك الكبير». وقد كانت لسوسة منذ القرن ١٨ ق.م. أهمية كبيرة حتى أن تاريخ العيلاميين اعتبر جزءاً من تاريخها. وقد حمل إليها ملوكها غنائمهم وبنوا فيها القصور والمعابد. وقد عرفت سوسة كغيرها من عواصم العالم القديم مراحل أفول ولكنها عادت إلى أوجها أيام الأخمينيين والفارسيين. فبنى فيها داريوس الأول قصراً يعرف بقصر الأبادانا ـ نسبة الى قاعة الأبادانا أي قاعة الاجتماعات والحفلات ـ وأرتاجركس ممنون في أوائل القرن الرابع ق.م. بنى فيها معبداً للنار.

وفي سوسة، المدينة الملكية، تسع مدن أقيمت فوق بعضها البعض في الفترة الممتدة من عصر الامبراطورية البابلية الحديثة حتى العصور الاسلامية. وأهم ما فيها مسجد يعتبر من أقدم مساجد إيران يعود بتاريخه إلى أيام الفتح العربي.

٩ ـ الفرس والأخمينيون:

شعب من أصل هندو ـ أوروبي أتى من شمالي القوقاز في الألف الأول قبل الميلاد. وقد ظهر اسم هذا الشعب لأول مرة في عهد الملك الأشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ ق.م. ـ ٨٢٤ ق.م.). وأول استقرار له كان في القرن التاسع قبل الميلاد، بالقرب من أورارتو. وأول موجة منه هم الميديون الذين انشأوا في القرن الثامن قبل الميلاد مملكة قوية عاصمتها أكباتان، حمدان حاليا. والفرس هم الموجة الثانية التي استقرت في أوائل القرن السابع قبل الميلاد جنوب شرقي سوسة.

خلال هذه الفترة نشأت مملكة صغيرة أسسها أخمينيس، جد الأخمينيين، وكانت أول مملكة لهم. وخلفه ابنه تيسبس (Tiespès)، الذي حمل لقب ملك أنشان (Anshan) فاحتل عيلام، التي اصبح اسمها منطقة بارسا (Parsa)، وعند وفاته قسم مملكته بين ولديه، أريارامني ملك بارسا (Parsa) وسيروس (أو قورش) (Cyrus) ملك بارسوماش (Parsumash). في الوقت نفسه قام

سياكزار (Cyaxare) الميدي يعيد تنظيم جيشه فتحالف مع البابليين وطرد السكيتيين الغزاة الذين احتلوا بلاده لفترة قصيرة من ٦٥٣ ق.م. حتى ٦٢٥ ق.م. واحتل نينوى سنة ٦١٢ ق.م. وتوسعت امبراطوريته حتى آسيا الصغرى. واعترف الفرس بملكيته ووحد القبائل والملك الذي خلّفه لابنه استياج (Astyage) سنة ٥٨٤ ق.م. مزوجاً إياه ابنة قمبيز.

وقمبيز ابن قورش وحّد المملكتين الفارسيتين وابنه قورش الثاني الكبير الذي تولى العرش سنة ٥٥٩ ق.م. حارب الميديين وانتصر عليهم ثم انطلق يفتح العالم وخلال ثلاثين سنة من الحكم وصل إلى شواطىء بحر إيجيه فأخضع ليديا. وفي آسيا الوسطى توفي تاركاً أمبراطورية فارسية عمل ابنه قمبيز الثاني على ضم مصر إليها. وخلفه داريوس الأول الذي وسع الامبراطورية ووصل الى الهندوس وحتى الدانوب ودامت امبراطوريته بعد ذلك قرناً ونصف القرن، ولكنها سقطت أمام فتوحات الاسكندر الكبير. وقد بلغت، كما نلاحظ، توسعات الفرس أيام الأخمينيين الى أقصى حدٍ. ونتيجة لتأثرهم بالفينيقيين واليونان وبحضارات شعوب وممالك بلاد ما بين النهرين خلقوا فنا امبراطورياً ضخماً انتشر في جميع انحاء امبراطوريتهم وخاصة في عواصم امبراطوريتهم ومنها: برسيبوليس، بازارغاد، سوسة ونقش الرستم التي اصبحت مدينة ملكية مدفنية.

هذه القبائل أو الجماعات التي شكلت ممالك فامبراطوريات كانت لها معالم حضارية تمثلت في ما اكتشف حتى الآن منها.

لم يبق الكثير من الآثار الميدية ولكن القبور الصخرية تعبر بوضوح عن فن العمارة في هذا العهد. فالميدي جعل مدفنه نموذجاً مثّل بيته. فقد حفرت القبور في الصخر وتألفت من مدخل تتقدّمه الأعمدة ومن غرفة مدفنية وأحياناً من غرفتين متجاورتين تفصلهما الأعمدة أو ترتفع الواحدة منهما فوق الأخرى. والأعمدة اسطوانية قاعدتها مستديرة وتاجها مربع ينتهي أحياناً بأشكال لولبية. وقد زينت الجدران، خاصة الواجهات، بمنحوتات ناتئة تمثل في معظم الأحيان رجلاً متعبداً، كما في مدفن «دوكاني دو» على الحدود الإيرانية العراقية. ومدفن «كيزكابان» فسقفه الذي يقلد السقف

الخشبي قد نحت على شكل جذوع الأشجار. أما الفنون الحرفية الصغيرة فقد ازدهرت في القرنين السابع والسادس ق.م. وإن دلت على شيء فعلى مهارة الفنان وعلى تأثره بفنون الشعوب المجاورة من آشورية وغيرها ... خاصة الحلى والصفائح الذهبية المنقوشة بمشاهد حياتية ودينية كمشهد الصيد وحاملي الهدايا والمتعبدين. وقد عثر على إبريق من البرونز يشبه إبريق الشاي وكأس ذهبي في همذان. وآثار زوية (Ziwyé)، خاصة المجموعة المدفنية التي كانت تشكل أثاث وحلى أحد الأمراء السكيتيين الذي دفن معه أتباعه والمؤلفة من قطع ذهبية وفضية ونحاسية وبرونزية وعاجية وخزفية، تعبر أفضل تعبير عن تأثر الفنون بعضها ببعض حيث يجتمع الطابع الأشوري من حيث الموضوع والإنشاء مع البابلي والميدي والسكيتي فصفائحها الذهبية ولوحاتها العاجية تحمل مشاهد تقليدية كصيد الحيوانات والشجرة المقدسة...

وتاريخ الميديين ومن ثم الأخمينيين مرتبط بتاريخ بابل وآشور وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر واليونان والهند. وطبيعي أن اتساع الامبراطورية أفسح مجالاً أكبر للتأثير الخارجي ولتفاعل الحضارات مع بعضها ولانعكاس هذا التأثير على الفنون بشكل مباشر، وسريع خاصة على فن العمارة والنحت.

إن الصفة العامة التي غلبت على العمارة الفارسية هي في الاستعاضة عن اللبن، الذي كان العنصر الأول والرئيس في عمارة بلاد ما بين النهرين، بالحجارة الضخمة، واعتماد الأعمدة التي سمحت ببناء غرف فسيحة، مثل الأبادانا، لم تعرفها من قبل سومر وعيلام وبابل وآشور . وإقامة المدن فوق مصطبة تحيط بها الأسوار الدفاعية العالية والمزو دة بأبواب كبيرة ازدانت بتماثيل الثيران المجنحة. وبرز التأثير المصري في تصميم القصور الملكية خاصة في أشكال الأبواب والنوافذ. كما برز التأثير البابلي والآشوري في العناصر الزخرفية، في المنحوتات الناتئة كالثيران المجنحة، وفي منحوتات الدرج الشرقي لأبادانا برسيبوليس مشاهد تمثل قدوم أربع وعشرون وفداً يمثلون أربع وعشرون شعباً يقدمون الهدايا والطاعة للملك.

وتذكر النصوص التي عثر عليها في قصر سوسة، التي اصبحت العاصمة الملكية في عصر داريوس الأول (٥٢١ ق.م. ـ ٤٨٥ ق.م.) في حين بقيت بازاركاد المركز الديني الرئيسي في الامبراطورية الفارسية، أن داريوس أتى بالنحاتين من اليونان والصاغة والنجارين من مصر وميديا ... كما استورد خشب الأرز من لبنان والذهب من سارد (عاصمة ليديا قديما ـ في تركيا) وبكتريانا (في افغانستان) والفيروز من خوارزم والفضة والأبنوس من مصر والعاج من الحبشة والخشب من غندارا (الهند) وحجارة الأعمدة من عيلام.

١٠ ـ البارتيون:

ظهر اسمهم منذ أوائل العهد الأخميني، وهم قبيلة من الفرسان المحاربين أقاموا شرقي بحر قزوين. في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد برز الأخوان أرزاس وتيريدات وأصبحا أسياد المنطقة المدعوة بارتيني. بعد وفاة أرزاس، وهو الأكبر، في معركة، تابع أخوه تيريدات حملاته على الحدود الشمالية لإيران واحتل مناطق عديدة وأخضعها لسيطرته وبعد موته سنة (٢١١ ق.م.) اصبح البارتيون أسياد دولة امتدت حتى جنوبي بحر قزوين، حيث كان السلوقيون. وبعد فترة اصبح ميتريدات الأول (١٧١ ق.م. ـ ١٣٨ ق.م.) سيد إيران بكاملها وميديا وبلاد ما بين النهرين وبلاد افغانستان قديماً، معتبراً نفسه مؤسس الامبراطورية البارتية، واحتفظ باستقلاله عن سلوقية. وأقام معسكراً، على ضفة دجلة مقابل السلوقيين، اصبح فيما بعد نواة ستيزيفون (بغداد اليوم) التي اصبحت عاصمة الامبراطورية، وقد ظل البارتيون الأرزاسيين (ابناء أرزاس) حتى سنة ٢٢٤ ميلادية أسياد المنطقة، أي حتى تاريخ مجيء الساسانيين. وكان البارتيون في حرب دائمة مع السلوقيين ثم مع الرومان الذين اصبحوا أسياد سوريا وفلسطين.

وفن البارتيين كان مميزاً خاصة في تخطيط مدنهم الدائرية ومنها فيروز أباد وتخت سليمان في ايران. وقد استبدلوا السقف المسطح في قصورهم بالقباب واعتمدوا الايوان والأقواس وحلت الركائز محل الأعمدة. ونجد في

منحوتاتهم الرجال ذوي اللحى والشوارب يرتدون الجلباب القصير وسروال الفرسان الطويل. وفي رسومهم تطغى المواجهة وهي الصفة المميزة لفن البارتيين. وتظهر تأثيراتهم في المدن المكتشفة مثل حترا (جنوب غربي الموصل في العراق)، دورا يوروبس (جنوب دير الزور في سوريا)، وبالمير (تدمر في سوريا). وقد عثر على مجموعة من الحلى والعاجيات البارتية في سوسة.

١١ ـ السلوقيون:

تطلق تسمة سلوقيين على سلالة سلوقس نيكاتور المقدوني. بعد وفاة الاسكندر المقدوني الكبير سنة ٣٢٣ ق.م. قسمت امبراطوريته مباشرة بين قواده، واستلم سلوقس، وهو أحد قواد الاسكندر، مرزبانية بابل فبسط سيطرته على بلاد ما بين النهرين وعمل على توحيد وفرض هيمنته على امبراطورية الاسكندر الآسيوية التي وصلت حتى الهند. ومع أن العهد السلوقي يبدأ فعلياً سنة ٣١٢ ق.م. إلا أن سلوقس نيكاتور لم يحظ بلقب ملك إلا سنة ٣٠٦ ق.م. وبعد حروب طويلة مع أنتيغون تمّ له النصر في معركة إيبسوس الشهيرة (Ipsos)، سنة ٣٠١ ق.م. وبانتصاره أخضع نهائياً سوريا لسلطته واصبح سيد آسيا الصغرى وجعل عاصمته انطاكية. وعندما قتل سنة ٢٨١ ق.م. خلف تاجه لسلالته. وأهم خلفائه انطيوخوس الثالث (٢٢٣ ق.م. ـ ١٨٧ ق.م.) الذي اجهض ثورات المرزبان الذين قاوموه في فارس وسوسة، ولكنه خسر فلسطين لمصلحة بطليموس الرابع وذلك سنة ٢١٧ ق.م. وبين سنة ٢١٢ ق.م. و ٢٠٤ ق.م. استعاد فرض سلطته على الامبراطورية التي وصلت حدودها حتى الهندوس ووقف في وجه البارتيين الذين توصلوا في أواسط القرن الثاني ق.م. إلى انتزاع القسم الشرقي بكامله من الامبراطورية السلوقية التي لم تعد تمتد إلا على سوريا. ففي الوقت نفسه قام المكابيون اليهود بثورة فقدت الامبراطورية السلوقية على أثرها السيطرة على فلسطين. وفي سنة ٦٥ ق.م. اصبحت سلوقية عبارة عن مقاطعة رومانية وذلك في عهد بومبي (Pompée).

في هذا العهد السلوقي نجد أن المفاهيم الفنية اليونانية قد فرضت نفسها على المدن، كما نشأت مدن جديدة منها: أنطاكية ومرفأها الذي عرف باسم سلوقية بياري (Sélleucie de Piérie) ودورا يوروبس (Doura-Europos)، وسلوقية دجلة (Séleucie du Tigre) وتأثير الهللينية يظهر في إيران موازياً لتأثير الأخمينيين خاصة في منحوتات برسيبوليس وسوسة وتل الزحاق (Tell-i Zuhâk). وفي المقابل نجد رفضاً للهلينية يظهر في إيران البارتية، وخاصة عند اليهود المكابيين في فلسطين.

ولا بد لنا من القاء نظرة على آثار المدن السلوقية لنتبين مدى تأثير الحضارة اليونانية على الشرق.

دورا ـ أوروبس: تنازع هذه المدينة التي أسسها سلوقس حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. البارتيون والساسانيون من جهة واليونان والروما ن من جهة أخرى نظراً لموقعها الاستراتيجي (حوالي ١٠٠ كلم جنوبي دير الزور على الضفة اليمنى لنهر الفرات) المسيطر على طرق القوافل التي تصل بين تدمر وسوريا الغربية وبلاد ما بين النهرين. وهذا ما جعلها مدينة مزدهرة في العالم القديم.

أحيطت المدينة بسور عال تتخلله أبراج مربعة الشكل، تخطيطها كتخطيط المدن اليونانية، تتوسطها ساحة عامة، أما أبنيتها فمن اللبن غير المشوي كأبنية بلاد ما بين النهرين. وقد ساهم جفاف المناخ في حفظ الرق والبردى والأقمشة والأخشاب والرسوم الجدرانية، وهذه الأخيرة كانت تزين المعابد وأهمها معبد ميترا، ومعبد الآلهة التدمرية المعروف باسم معبد الإله «بل» (Bel)، ومعبد مسيحي، ومعبد يهودي (سينا غوغ). وضمت المدينة داخل سورها أبنية عامة وقصراً لحاكم المدينة وحمامات. وأجمل ما كشف عنه مجموعة من المعابد تمتزج فيها معالم الحضارة اليونانية ـ الشرقية ومنها: معبد زوس ماجيستيوس، معبد تيوس، معبد زوس كيريوس، معبد أدونيس، معبد أترغاتيس، معبد دوليشين، معبد ألفاد، معبد أزّاناتخونا؛ حيث

يظهر تأثير الهندسة الشرقية، وخاصة بلاد ما بين النهرين، في المعابد ذات الإيوان. وهذا التأثير الذي يتضح أيضاً في الرسوم الجدرانية وفي العبادات اليونانية ـ الشرقية أعطى فناً مركباً جميلاً نجده في معظم المناطق التي وصل إليها اليونان.

سلوقية دجلة: على بعد ٣٠ كلم، الى الجنوب من بغداد، وعلى الضفة اليمنى لنهر دجلة، مجموعة من التلال الاصطناعية تشكل خرائب سلوقية دجلة التي أسسها سلوقس حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. في موقع أوبيس (Opis)، الشهير بعصيان جنود الاسكندر، بني قسم من هذه المدينة بمواد أتي بها من بابل، وتقوم قرب قناة نبوخذنصر التي تصل بين دجلة والفرات. وحسب المؤرخين سترابون وبلين (Strabon et Pline) فإن هذه المدينة كانت تعد في القرن الأول قبل الميلاد حوالي ستمئة ألف مواطن. ورغم خضوعها لسيطرة البارتيين سنة ١٤٣ ق.م.، الذين كانت عاصمتهم ستيزيفون تقابلها على الضفة اليسرى لنهر دجلة، فقد ظلت محتفظة بطابعها الخاص وبقيت المركز الرئيس الهللينستي للتجارة الشرقية إلى جانب الاسكندرية (مصر) ورودس. أحرقها تراجان سنة ١١٦ م. ودمّرها أفيديوس كاسيوس بين سنة ١٦٥ و ١٦٦ م. ولكنها كانت تعود وتنهض، وظلت في ازدهار مستمر حتى في عهد الساسانيين إلى أن انهارت في العهد العربي. وفي القرن التاسع ميلادي استعمل العباسيون موادها ومواد ستيزيفون لبناء بغداد، المدينة المستديرة، التي اصبحت العاصمة الجديدة للعالم الاسلامي. وقد عثر فيها من العصر السلوقي على القليل من الأوابد المعمارية وعلى الكثير من المسكوكات والتماثيل.

بنيت المدينة حسب مخطط متوازي الاضلاع تتقاطع الطرقات فيها عاموديا على طريقين رئيسين يقطعانها من الشرق الى الغرب، تحيط بها خنادق دفاعية، أبنيتها من اللبن بعضه مشوي والآخر غير مشوي وقد عثر فيها على آثار الساحة العامة والمسرح، وعلى معبد مدفني لسلوقس ديمتريوس، وعلى معبدين امتزجت فيهما عناصر يونانية ـ شرقية. كما عثر على ١٧١٦ تمثالاً من الطين المشوي ومن العظم تمثل آلهة عارية (تقليد بابلي) وكهنة

وموسيقيين وموسيقيات ... كذلك عثر على ٣٠ ألف مسكوكة. وكشف عن بناء يدعى «أرشيف تل عمر»، يعود إلى العهد السلوقي وهو عبارة عن ساحة تحيط بها الأبنية المتصلة من ثلاث جهات وقد تهدم هذا البناء نتيجة هجوم للبارتيين سنة ١٤١ ق.م. أدى إلى احتراقه وخسارة أوراق الرق والبردى التي كان يحتويها. وقد تمكّن الأثريون من جمع ٢٤ ألف ختم تعتبر نماذج عن الفن السلوقي في صناعة الأختام الحجرية الثمينة. بعض هذه الأختام حمل ثلاثة أو أربعة سطور تقضي بدفع رسوم مالية أو بالإعفاء من الرسوم ... ومؤرخة بالتأريخ السلوقي.

وقد تبين أن الأعمدة، التي عثر على بقايا منها في الشارع الرئيسي للمدينة كانت عبارة عن ركائز مستديرة، تقليد شرقي للعامود اليوناني. كذلك الأمر بالنسبة للعناصر الهندسية الرئيسة فكلها تقليد يوناني بطابع محلي أعطى فناً ونموذجاً جميلاً للفن اليوناني ـ الشرقي.

١٢ ـ الساسانيون:

أتينا على ذكر الساسانيين مراراً ولا بد لنا من القاء نظرة حول هذه السلالة وأثرها على المشرق العربي.

ساسان، جد هذه السلالة الايرانية، كان كاهناً في معبد الربة أناخيتا (Anakhita) في إسطخر، وقد تلاه إبنه باباك وورث عنه مسؤولياته الدينية كما ورث عن والد زوجته، الأمير المحلي، مسؤولياته الدنيوية وذلك سنة ٢٠٨ ميلادية ويعتبر هذا التاريخ أول عهد الساسانيين. ولكن ابنه أردشير (Ardeshir) هو مؤسس الامبراطورية الساسانية، فقد أخضع الامراء المحليين ووحد البلاد الفارسية ثم دخل في حرب مع أرتبان الخامس، ملك البارتيين، فانتصر عليه في ثلاث معارك وأخيراً قتله سنة ٢٢٤م. وبعد سنتين توّج ملكاً في ستيزيفون واصبح سيد الامبراطورية البارتية. وقد ظل الساسانيون أسياد إيران لأكثر من أربعة قرون، وتابعوا بعد البارتيين المعارك ضد الرومان والبيزنطيين.

في أوائل القرن السابع ميلادي عمت الفوضى الامبراطورية الساسانية وانتصر العرب، في معركة نهاوند، على آخر ملوكهم يزدجرد الثالث الذي قتل سنة ٦٥١ ميلادية واصبحت ايران خاضعة لحكم العرب واعتنقت الاسلام.

والساسانيون يمثلون الرد الوطني الايراني على المؤثرات الغربية، فقد وقفوا في وجه البارتيين واعتبروهم دخلاء كما اعتبروا أنفسهم ورثاء الأخمينيين. وقد تركوا آثاراً هندسية معمارية من الحجارة المقصبة تظهر معالمها في القصور ومعابد النار والحصون والسدود. وأهم هذه القبة ذات التصميم المربع والقباب السريرية التي تتميز بها قصورهم، المؤلفة من غرف استقبال تتوزع حول الإيوان ومن عدة فسحات تتفرع عنها الغرف السكنية، والتي نجدها في قصور فيروزأباد وبيشابور وقصر الشيرين... إلى جانب هذه الهندسة المميزة فقد كانت منحوتاتهم الصخرية تتمحور حول الملك كشخص رئيسي ومركزي وقد عثر على بعض منها في فيروزأباد ونقش الرستم ونقش الرجب وبيشابور ...

١٣ ـ الحثيون:

في القرون الأخيرة من الألف الثالث قبل الميلاد تدفقت جماعات هندو ـ أوروبية من شواطىء البحر الأسود نحو اليونان والأناضول. من بين هذه الجماعات جماعة شكلت نواة وأجداد الحثيين. ويبدو أن هذه الجماعة وصلت الى الأناضول عبر البلقان والبوسفور واستقرت بين سنة ٢٣٠٠ ق.م. و ٢٠٠٠ ق.م. في أواسط الهضبة الأناضولية، وتسميتهم حثيين أشتقت من حاثي أو حاثيت شعوب المنطقة الأصليين، ويظهر أن عناصر كثيرة حاثية ادخلها الحثيون وتبنوها في تكوين حضارتهم خاصة في المعتقدات الدينية وفي التعدين.

ويعود الفضل الى النصوص الأكدية والأشورية والحثية في معرفة اسم لغتهم المدعوة ناشيلي (Nashili)، أي لغة نيزا (Nésa)، هذه المدينة التي لم

يعثر عليها حتى الآن. ومن خلال النصوص نعلم أن أول ملوك الحثيين هم بيتخاناز (Pitkhanas)، وابنه أنيتاس (Anittas). وفي أيام هاتوسيل (Hattusil) توسعت امبراطورية الحثيين إلى سوريا وابنه مورسيل (Mursil)، بالتبني، قاد سنة ١٠٩٥ ق.م. حملة على بابل.

يلف الغموض المملكة الحثية حوالي النصف قرن لتعود إلى المسرح حوالي سنة ١٤٦٠ ق.م. تاريخ استلام توداليـاس الثـاني (Tudhaliyas II) العرش، مؤسس الامبراطورية الحثية الجديدة التي امتدت على اكبر قسم من بلاد الاناضول وشمالي سوريا. ويتوقف المد الحثي بعد سنة ١٣٠٠ ق.م. إثر اصطدام الحثيين وحلفائهم السوريين مع جيش رعمسيس الثاني المصري في قادش (تل النبي مند في سوريا). وآخر ملوك الحثيين هو سوبيلو ليوما الثاني (Suppuliliuma II) الذي استلم العرش سنة ١٢١٥ ق.م.

اختفت الامبراطورية الحثية فجأة حوالي سنة ١٢٠٠ ق.م. إما نتيجة لغزوات شعوب البحر أو إثر حملات شعوب جبلية أتت من شمال الأناضول. ولكن الحثيين لا يختفون كلياً من الساحة السياسية إذ نجدهم مقيمين في شرقي آسيا الصغرى وشمالي سوريا في أوائل الألف الأول قبل الميلاد ومختلطين مع الشعوب المحلية ومؤسسين لممالك صغيرة حثية ـ جديدة أو سورية ـ حثية، أهمها: ملاطية، كراتيبيه، كركميش، ماراش (مرعش)، تل حلف، زنكرلي. ولغتهم القريبة من الحثية المسمارية تكتب برموز هيروغليفية.

حثيون أو حثيون جدد أخذوا كثيراً عن الشعوب المحلية الأصلية التي مكثوا بينها ولكنهم في الوقت نفسه خلقوا فناً مميزاً قوياً صلباً وجافاً. فقد كانت مدنهم محاطة بأسوار ضخمة تتخللها أبواب صرحية، وادخلوا إلى فن الهندسة الاورتوستات المزخرفة بالعناصر الناتئة واعتمدوا المنحوتات على اختلاف انواعها خاصة المستقلة منها كالأسود الضخمة ... والحثيون، ورثة الأناضوليين، كانوا معدنين بارعين، ساهم في تطورهم غنى آسيا الصغرى بالمعادن من نحاس ورصاص وفضة وحديد وقصدير، وهذا الأخير ساعدهم على صهر البرونز وتصنيع الحديد في أواسط العصر البرونزي.

١٤ ـ الحوريون ـ الميتانيون:

حوالي القرن السادس عشر قبل الميلاد نشأت، في أعالي الفرات، شمالي سوريا، وفي الشمال الغربي لبلاد آشور وجنوب أرمينيا الحالية. مملكة قوية عرفت باسم ميتاني واستمرت حوالي الثلاثة قرون. وكان ملوكهم يتعاملون كالند للند مع ملوك الحثيين والمصريين. تارة يحاربونهم وأخرى يبرمون اتفاقيات تحالف معهم.

وتكوين المملكة الميتانية يرتبط بالحوريين الذين لم تحل رموز كتاباتهم المسمارية حتى الآن ولكن بعض اسماء الأعلام فكت رموزها بالمقارنة مع اللغات الأخرى المعاصرة لهم من قوقازية وسومرية. والبحث عن موطن الحوريين الأساسي ما زال قائماً في جنوب القوقاز. ففي مثلث الخابور قامت أول مملكة حورية، ذكرت في النصوص السومر ـ أكدية، وعرفت باسم مملكة أوركيش ونوار، أهم مدينتين لهذه المملكة التي تعود بتاريخها الى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد كما تؤكد على ذلك النصوص الأكدية. وسعي الحوريين للتوسع نحو الجنوب قادهم للاصطدام مع أمبراطورية أور الثالثة مما اضطر شولجي، أقوى ملوك أور، قيادة ثلاث حملات ضدهم.

في الألف الثاني قبل الميلاد اشتهر الحوريون، وشهرتهم واضحة من خلال نصوص الحثيين والمصريين والأوغاريتيين، وأرشيف ماري يفيدنا أنه في أيام زمري ليم كانت توجد في أعالي بلاد ما بين النهرين والفرات دويلات صغيرة حكمها امراء حوريون. ويظهر أن اتحاد هذه الدويلات كوّن المملكة الميتانية.

وقد بلغت سيطرة مملكة ميتاني أوجها حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد وامتدت من ألالاخ حتى نوزي. أما عاصمة الميتانيين المعروفة في النصوص باسم واشوكاني لم يحدد موقعها فعلياً حتى الآن مع أن الاتجاه يميل إلى موقع تل فخرية في سوريا. ويقف الأثريون عاجزين عن تحديد ميزات خاصة بالفن الحوري أو الميتاني الذي ذاب واختلط بالفن السوري لبلاد ما بين النهرين في ذلك العصر.

١٥ ـ الآراميون:

ترك الآراميون أثرهم البعيد في الشرق الأدنى، ويشكلون الموجة الثانية بعد الأموريين. ففي رسالة من تل العمارنة تعود بتاريخها الى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد يذكر لأول مرة الآراميون، الذين تسميهم أخلامو (Akhlamu) ويظهر أنهم كانوا يرتحلون قريباً من الفرات في الصحراء السورية، ومن المحتمل أن منطقة تدمر كانت أحد مراكزهم. واعتباراً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد نجدهم في حالة حرب دائمة مع الأشوريين في المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات ويخلقون جواً من عدم الأمان على الطرقات التي تربط بين منطقة بابل والمملكة الحثية. وقد ساهمت غزوات شعوب البحر في أواخر القرن الثالث عشر وسقوط الامبراطورية الحثية في توسعهم فازدادوا عدداً وعدوانية في منطقة الفرات الأوسط. وفي كتابة لتغلات فلاصر الأول، الملك الأشوري، تعود بتاريخها إلى سنة ١١١٢ ق.م. ظهر اسم الآراميين مع أخلامو وقد ترجمه بعض الكتاب بـ «البدو الآراميين».

ويظهر أن أخلامو اسم اطلق على مجموعة من القبائل وقبيلة آرام هي التي سيطرت تدريجياً على هذه القبائل حتى غلب اسمها على اسم شعبها.

وبينما كانت مصر وبلاد حثي تقف بوجه تقدم شعوب البحر نحو الداخل كان الآراميون يجدّون في فتح بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وبلغ توسع الآراميين أوجه في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد ولكن قوة الأشوريين آنذاك أوقفته من الشرق فتوجهوا نحو المناطق المحررة في الغرب نتيجة لزوال الحثيين وتراجع المصريين وأقاموا ممالكهم، التي امتدت من طوروس حتى نهر الزرقاء في الأردن، على انقاض الامبراطوريات القديمة المنهارة. في الشمال نجدهم في سامال (زنجرلي)، في جوزانا (تل حلف) في بيت عديني، في تل برسيب، في حماه، وفي دمشق، وفي البقاع في لبنان.

ومملكة اسرائيل طوال تاريخها كانت في صراع مع الممالك الآرامية التي قيضها الملوك الأشوريون الواحدة تلو الأخرى.

إلى جانب هذه الممالك فقد أسس الآراميون ممالك أخرى في بابل والجزيرة العربية وعند ضفاف الفرات ولكنها اصبحت فيما بعد جزءاً من الامبراطورية الفارسية.

إن التعايش بين أحفاد الحثيين، السوريين القدماء والآراميين ، خلّف الحضارة السورية ـ الحثية أو الحثية ـ الجديدة التي تميزت بها الممالك الصغيرة في سوريا الشمالية والتي بقيت لغتها حثية ـ هيروغليفية، بينما غلبت اللغة الآرامية في مناطق سوريا الجنوبية. هذه اللغة رغم زوال الهوية السياسية للآراميين انتشرت ببطء في العالم الشرقي واصبحت اللغة الثانية للامبراطورية الأشورية، وفي القرن الخامس قبل الميلاد اصبحت اللغة الرسمية للامبراطورية الفارسية التي جعلت منها لغة عالمية فقد سيطرت على شرقي حوض المتوسط خاصة وحلت محل اللهجات القديمة السورية ومحل العبرية. هذه اللغة ، مع بعض التعديلات، اصبحت اللغة السريانية التي ما زالت تستعمل في صلوات وطقوس بعض المسيحيين في سوريا.

وآثار الآراميين نجدها ممثلة في ممالكهم التي لم تتحد تحت راية واحدة و لم تخضع لقيادة واحدة. ففي جوزانا، (المعروفة بتل حلف)، والتي كانت عبارة عن مدينة كبيرة يحيط بها سور مستطيل الشكل، كشفت التنقيبات عن الحي الملكي، وهو عبارة عن حصن داخل مدينة محصنة ومن أشهر مبانيه المعبد القصر الذي بناه الملك كبارة والذي يعود بتاريخه الى القرن العاشر قبل الميلاد والمعروف باسم «بيت هيلاني» أو بيت عيلاني أي البيت العالي ـ (سوف نأتي على شرحه مفصلاً في باب الآثار المدنية الخاصة والعامة) ـ فقد زينت قواعد أعمدة الرواق الأمامي (المدخل) الضخمة حيوانات منها الثور والأسد واللبو ة وفوق كل قاعدة صنم، يمثل رباً، ذكوريٌ فوق الثور والأسد، وربة أنثى فوق اللبوة، أما دعامتا الرواق فهما عبارة عن تمثالين لأبي الهول، إضافة الى اللوحات المنحوتة التي تمثل مواضيع

الصيد والشمس المجنحة والآلهة والتنين ... وهي مواضيع تذكرنا بتراث من سبقهم من آشوريين وميتانيين وغيرهم ... ولكن الآراميين لم يكتفوا بالاقتباس أو التقليد بل ابتكروا وأخرجوا المواضيع باسلوبهم الخاص، ومجموعة المنحوتات المكتشفة في المواقع الأثرية خير شاهد على ذلك خاصة المنحوتات التي صيغت كتماثيل مجسمة ولوحات في آن معاً، إذ أن الناظر إليها من الأمام يرى فيها مقدمة الحيوان ومن الجانب صفحته، وقد مثلها النحات بدقة متناهية مراعياً إظهار الحركة والقوة.

وفي قصر تل برسيب (مملكة بيت عديني) عثر على صور جدارية رسمت بألوان زاهية كالأزرق والأحمر والأصفر مشاهدها تمثل استسلام الاعداء. أضف إلى ذلك ازدهار صناعة العاج، الذي لم تخل منه مدينة هامة في العصر الآرامي وقد كانت أهم مراكز صناعته صيدا وبيبلوس (لبنان) والسامرة (فلسطين) ودمشق وحماة وجوزانا (سوريا)، هذا الازدهار كان نتيجة لازدهار العلاقات التجارية مع مصر وأفريقيا بشكل خاص.

١٦ ـ الكنعانيون:

إن أصل هذا الشعب ذي اللغة السامية والذي كان يعيش في بلاد كنعان يبقى موضوع جدل، كذلك تاريخ استقرارهم وامتداد منطقتهم. فقلب أرض كنعان كان يمتد عند الضفة اليمنى لنهر الأردن، بين النجف وجنوب لبنان وسوريا، حيث اقتطع العبريون مملكتهم، ورغم ما ذكر في «العهد القديم» عن إبادة الشعب الغازي الاسرائيلي للشعب الأصلي وللمواشي، كما في جرش وعاي (Aï) فإن العديد من الكنعانيين ظلوا أحياء وامتزجوا بالغزاة. وموطن الكنعانيين في العصر البرونزي الوسيط والحديث امتد على الأقل حتى أوغاريت في شمالي سوريا، وقبل وصول الآراميين كانوا يشغلون قسماً كبيراً من سوريا الداخلية ومما لا شك فيه حتى الفرات. ولغة لوحات تل مرديخ (إيبلا) والتي ندعوها اليوم اللغة الإيبلية ترتبط مع مجموعة اللغات السامية الغربية التي تنتمي إليها الأوغاريتية الفينيقية والعبرية التي تعد لهجات

كنعانية. بالتالي الفينيقيون هم كنعانيون وتدخل فينيقيا القديمة في نطاقهم.

ظهر اسم الكنعانيين في النصوص التي تعود الى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، ونجده لأول مرة يذكر باسم «بلاد كيناني» في كتابة لإدريمي ملك ألالاخ في أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفي منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد نجده في رسائل تل العمارنة تحت لفظ «كيناخي» أو «كيناخني» وفي نصوص أوغاريت «كيناخي»، والنصوص المصرية تعطيه لفظ «كنن» لأول مرة أيام أمينوفيس الثاني (١٤٥٠ ق.م. ـ ١٤٢٥ ق.م.). وانطلاقاً من هذه المعطيات حدّد بعض المؤرخين تاريخ وصول الكنعانيين إلى هذه المنطقة من الشرق الأدنى في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. وقد ربطهم البعض بالهيكسوس الذين يظهر أنهم اختلطوا بالكنعانيين وحملوا اسماء ذات طابع كنعاني. ولكن في الواقع يظهر أن الشعوب الكنعانية كانت في مواقعها منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، كما تحملنا على هذا الافتراض شواهد تل مرديخ.

وفي الحقيقة لا نملك أي تأكيد يتعلق بموجة من الهجرات السامية أو من الناطقين بالسامية تدفقت في فترة ما من ما قبل التاريخ السوري ـ الفلسطيني، ويظهر أن أول ظهور لشعوب الكنعانيين يرجع إلى فترات بعيدة وأن الشعوب التي نعرفها في الحقبات التاريخية تشكلت ببطء دون أن تبرز كاجتياح ضخم لشعب سامي.

أما أصل لفظة كنعان ومصدرها فيبقى موضع جدل أيضاً، فكلمة «كيناخّو» التي تقرأ في نصوص نوزي (العراق) وتعني صباغ الأرجوان قربت من الكلمة التي يشار بها الى الفينيقيين وفسّرت على أنها «بلد الأرجوان» ولكن معنى الأرجوان لا يوجد إلا في نصوص نوزي، حتى في بلاد كنعان استعمل لفظ آخر يختلف عنه كلياً للدلالة على لون الأرجوان. وافترض البعض أنها تعني بلد الباعة لأن «العهد القديم» اعطى الكنعانيين هذه الصفة ولكن هذا الرأي لا ينطبق مع أي أصل سامي للكلمة. أما البعض الآخر فقد افترض أن معنى الكلمة هو البلاد حيث تنحني الشمس في الغرب، أي «بلاد المغيب»، انطلاقاً من «كن» التي تعني انحنى.

لم يتحد الكنعانيون كما الأموريون في دولة واحدة بل تفرقوا وتصارعوا فيما بينهم وأسسوا ممالك ولكن أياً منها لم تصف نفسها بالكنعانية مع أن أدريمي ذكر أنه لجأ إلى بلاد كنعان التي كانت تشمل كما ورد في رسائل تل العمارنة المنطقة الجنوبية الغربية من بلاد الشام حيث وصفت السواحل الواقعة إلى الجنوب من حوض النهر الكبير الجنوبي ببلاد كنعان. ومملكة حاصور في سهل الحولة على أنها من بلاد كنعان. وهذه المناطق بالذات نجد أنها تنسب إلى الفينيقيين، كما يعتبر الكثيرون أن آثارهم ما هي إلا آثار فينيقية.

فمن هم الفينيقيون؟

١٧ ـ الفينيقيون:

في الألف الأول قبل الميلاد كلمة فونيكس اليونانية تعني شعوب فينيقية، ففي هذه الفترة كانت فينيقية عبارة عن شريط من الأراضي يمتد بين جبال لبنان والبحر، ويشكل واجهة لبنان البحرية الحالية، ويتجاوزها جنوباً حتى جبال الكرمل وشمالاً حتى أرواد. وأهم مدنها كانت بيبلوس (جبيل)، التي شهدت أيام انتصار وازدهار خاصة في العصر البرونزي، وبيريت (بيروت) وصيدون (صيدا)، وصور، وأشزيب (شمالي عكا قديماً أديبا).

ولكن مصدر الكلمة اليونانية فونيكس يعني الأحمر ويعود بنا إلى صناعة اللون الأحمر الأرجواني الذي اعتبر مفخرة صيدون وصور. أما الكلمة نفسها (فونيكس) فتعني شجر النخيل، وقد اطلقت هذه التسمية على بلاد فينيقية (بلاد النخيل) لأنها اشتهرت بأشجار النخيل والفاكهة، فقد حمل التجار الفينيقيون معهم التمر وسعف النخيل وجابوا به البحار. ونجد المعنيين (اللون الأحمر وبلاد النخيل) واردين في نصوص بيلوس وكنوسوس التي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

واسم فينيقية ظهر في الأوديسة (Odysée) ويقصد به أهالي صيدون وصور الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الكنعانيين، أما في الأليادة

فيقصد به الصباغ الأرجواني، مما يشير إلى أن تسمية فينيقيين أطلقها اليونان عليهم نظراً لارتباط صناعة الأرجوان بهم في الألف الأول قبل الميلاد.

وفي نصوص المصريين التي تعود إلى عهد الامبراطورية القديمة إن كلمة فنخو (Fenkhou) كان يقصد بها حطابو لبنان، وفي عهد الأمبراطورية الوسطى تشير النصوص الى شعب فنخو الذي سكن قريباً من بيبلوس. فهل أطلق اسم فنخو على السكان المحليين الكنعانيين لمنطقة بيبلوس؟ يبقى السؤال مطروحاً كما يبقى الشك في منشأ الفينيقيين.

بلين وهيرودوت (Pline et Hérodote). يعتقدان أن الفينيقيين ليسوا أهل البلاد الأصليين إنما نزحوا من المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى المحيط الهندي والخليج العربي. وسترابون (Strabon) يشير إلى وجود مدن في الخليج العربي تحمل اسم صيدا، صور، أرواد ... وجوستنيان يقول بأنهم نزحوا من بلادهم الأصلية خوفاً من الزلازل إلى ضفاف البحيرة الأشورية ثم انتقلوا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط وأسسوا أول مدينة لهم، صيدون. والبعض يعتقد أن البحيرة الأشورية قد تكون بحيرة انطاكية قديماً، أي عند مصب نهر العاصي، والبعض الآخر يعتقد أنها إحدى البحيرات قرب بابل؟ كما يعتقد قسم من المؤرخين أن الفينيقيين قد ساروا عبر الفرات صعوداً ودخلوا سوريا من الناحية الشمالية؟ والمؤرخون العرب يقولون إنهم خرجوا من الديلمون، أي البحرين، ومنها الى الجزيرة العربية ففلسطين فالساحل اللبناني. والمصادر القديمة تعتقد أنهم جاؤوا من شمال شرق الجزيرة العربية من نواحي شواطىء الخليج العربي.

كل هذه النظريات تفتقر الى إثباتات علمية جازمة. إنما مبدئياً تاريخ مجيئهم يقع في الألف الثالث قبل الميلاد وتمركزهم يوازي تمركز الأكاديين في بلاد ما بين النهرين وتأليف الوحدة الفرعونية في مصر وهذا ما دلت عليه الآثار المكتشفة حتى الآن في بيبلوس.

وبما أن الفينيقيين ليسوا إلا سلالة كنعانية فأصلهم هو أصل الكنعانيين، ودمج الفينيقيين والكنعانيين والقول بأن أصلهم ومنشأهم واحد دلت عليه النصوص القديمة التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، والتي تذكر أن

مصدر الأرجوان كان الفينيقيين حسب النصوص الميسانية والكنعانيين حسب نصوص نوزي (العراق).

ويظهر أن اتجاه الفينيقيين نحو البحار في أواخر الألف الثاني وأوائل الألف الأول قبل الميلاد أتى نتيجة لزوال سيطرة الميسانيين والميناويين (اليونان) على البحار ولضغوطات الآراميين والفلسطينيين والعبريين. فأنشأوا محطات تجارية وأسسوا مدناً في قبرص ومالطة وسردينيا والباليار وفي جنوب اسبانيا وعلى الشاطىء الأفريقي، وفضلوا في اختيار مواقعهم الرؤوس والمناطق التي يوجد فيها جزر قريبة من الشواطىء لأسباب استراتيجية فتجارتهم تتطلب إنشاء مواقع حصينة، لذا نجدهم قد شيدوا على طول الساحل مدناً تبعد الواحدة عن الأخرى مسيرة يوم واحد سواءً كان ذلك براً أو بحراً. وتحكموا بالتجارة عبر البحر الأبيض المتوسط وعبر المحيط الأطلسي، واستغلوا المناطق التي سيطروا على مرافقها فمن اسبانيا مثلاً أتوا بالفضة والمعادن المختلفة كالنحاس والقصدير، وذلك بفضل أساطيلهم المشهورة والتي كانوا يسمونها ترشيش Tarsis، واستطاعوا تطوير صناعة السفن فكانت لديهم سفن تجارية وسفن حربية وسفن رحلات. ساعدتهم في الوصول إلى اميركا الشمالية والجنوبية واكتشافها قبل الاسبان بألفي سنة وأكثر، وأوضح دليل على ذلك الكتابات الفينيقية التي عثر عليها في: دكتون وبنسلفانيا ونيو مكسيكو وأهمها في براهيبا (البرازيل) والمكونة من ١٨ سطراً و ٢٤٣ حرفاً.

عندما سقطت فينيقيا، في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، تحت سيطرة الآشوريين ثم البابليين فالفارسيين نهضت قرطاجة (تونس) وسيطرت على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي.

والفينيقيون، هذا الشعب العملي والتاجر، كانوا دون أي شك مخترعي الأبجدية، فنهم مبتكر ومميز، تظهر فيه بوضوح تأثيرات الشعوب المصرية وشعوب بلاد ما بين النهرين والشعوب الإيجية، فقد كانوا حرفيين مبدعين خاصة في صناعة الخزف والبرونز والمعادن الثمينة والزجاج والعاج ـ وإليهم تعزى صناعة عاجيات نمرود وارسلان طاش التي تظهر فيها التأثيرات

المصرية جلية ـ والأقمشة الصوفية والقطنية والحريرية، وما غلب اسمه عليهم، الأرجوان.

لقد دلت الاكتشافات الأثرية على أن الفينيقيين أحاطوا مدنهم صغيرة كانت أم كبيرة بأسوار. ففي بلوات (Balwat بالقرب من نمرود في العراق) عثر على بوابات برونزية تعود إلى عهد الملك الأشوري شلمنصر الثالث تحمل نقوشاً تمثل الوفود التي أتت تقدم الجزية للملك ومن بينها وفد مدينة صور، وقد ظهر وهو يعبر البحر إلى الساحل، وقد احيطت جزيرة صور بسور وبدت كقلعة منيعة. وفي نينوى عثر على نقش يمثل «لولي» ملك صور وصيدا هارباً من وجه الملك الأشوري سنحريب إلى قبرص عبر باب في سور المدينة. وعلى المسكوكات التي تعود إلى القرن الرابع قبل الميلاد نرى أسوار مدينة صيدا ممثلة بقلاعها وتحصيناتها. ومساحة المدن الفينيقية كانت محدودة وطرقاتها ضيقة مما حملهم على إقامة منازل من عدة طبقات وهذا ما يؤكده الجغرافي سترابون (من القرن الأول قبل الميلاد) في قوله إن منازل صور وأرواد كانت مؤلفة من عدة طوابق بعضها أكثر ارتفاعاً من المنازل في روما. كذلك ذكر المؤرخون القدماء أن في قرطاجة منازل تجاوزت في ارتفاعها الستة طوابق. وقد بنيت بيوتهم من الطوب فوق أساس من الحجارة أو من الطوب والحجارة معاً. وكانت تغذى المدن بالمياه بواسطة خزانات مبنية تحفظ فيها مياه الأمطار أو تجر إليها مياه الينابيع القريبة.

احتلت المعابد مركزاً مرموقاً في تاريخ الشعوب القديمة ومن خلال النصوص القديمة والآثار المكتشفة أمكن تحديد الاوصاف العامة للمعبد الفينيقي، واتضح أنه كان يتألف من رواق أمامي، يتقدمه عامودان، نصل منه الى قاعة تتصل بأخرى تقع خلفها وتدعى «قدس الاقداس»، مقر الإله. وحيثما حل الفينيقيون اعتمدوا هذا التصميم الثلاثي الاجزاء في معابدهم. ويذكر هيرودوت أن معبد الإله ملقارت في صور كان أحد أعمدته من الذهب والآخر من الزمرد.

أما الآلهة المعبودة عند الكنعانيين ـ الفينيقيين فأهمها الإله إيل، ويصور كقرص الشمس أو الثور أو العجل. وزوجته عشيرات البحر وابنهما بعل. كما كانت لبعض المدن الفينيقية آلهتها الخاصة: ملقارت صور، اشمون صيدا، بعلة جبيل، بعل هامون قرطاجة ...

سياسياً كانت المدن الفينيقية مستقلة عن بعضها البعض تشكل إمارات أو ممالك لم تتحد ولم تكون دولة موحدة، حتى قرطاجة فمع أنها أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية في الغرب لم تكون دولة أو امبراطورية. وكل مدينة كان لها نظامها واسطولها، كاسطول أرواد وأسطول صيدا واسطول صور فسكان المدن باعتبارهم كنعانيين أصلاً، هم من العنصر السامي، والبداوة من صفاته وكان يخضع لنظام القبيلة الذي يتلخص بوجود شيخ أو رئيس للقبيلة يختار من بين الأسر العريقة والقوية ويأخذ الطابع الوراثي. وإلى جانب الرئيس هناك مجلس شيوخ أو رؤساء عشائر، وهناك مجلس عام لرجال القبيلة. تحول هذا النظام نتيجة الاستقرار فاصبح رئيس القبيلة أو شيخها هو الملك وذلك ابتداءً من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ومن هؤلاء الملوك نذكر «حيرام» ملك صور، و«لولي» ملك صيدا وصور، وأليسا أو ديدون ملكة قرطاجة، وهاميلكار ... يساعد هذا الملك في الحكم مجلس شيوخ القبيلة الذي اصبح مؤلفاً من التجار الأغنياء. وفي نصوص رأس شمرا نجد رؤساء الحرف أو أربابها وفي تدمر رؤساء القوافل الذين جعلهم غناهم المادي اعضاء في مجلس الشيوخ، وقد يهددون سلطة الملك نتيجة لتحكمهم باقتصاد المدينة أو المنطقة. ففي صيدا بلغ عدد اعضاء مجلس الشيوخ مئة عضو وفي أوغاريت (رأس شمرا) ٧٠ عضو وفي صور مئة عضو. وقد استطاع هؤلاء الشيوخ الذين اصبحوا يمثلون الطبقة البورجوازية الاستيلاء على الحكم وتحويل النظام إلى نظام أوليغاركي فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. واصبح النظام يقوم على حاكم أو أكثر ينتخب لمدة سنة والى جانبه مجلس للشيوخ ومجلس للعامة، في قرطاجة مثلاً كان هناك حاكمين، ومجلس الشيوخ كان ينتخب لمدى الحياة، ولم يكن المجلس يجتمع إلا عند وفاة أحد الأعضاء لانتخاب خلف له.

من المدينة إلى العبادات إلى نظام الحكم إلى فن العمارة والنحت ... حتى الفنون الصغيرة نجد أن الفينيقيين تأثروا بالبابليين والأشوريين والحثيين والمصريين واليونان. وآثارهم ما هي إلا خليط من مظاهر هذه الحضارات التي مثلت أروع تمثيل. وساهمت في التعبير عنها مهارات الشعوب القديمة فينيقية كانت أم غير فينيقية، ذلك أن التبادل التجاري ولو أنه حمل الصفة المادية ولكنه وسع نطاق التبادل الحضاري والثقافي وأبلغ دليل عليه انتشار الكتابة الفينيقية من خلال اختراع الأبجدية التي تعتبر أساساً للحروف الأبجدية في العالم القديم. ورقم مكتبة رأس شمرا التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وما احتوته لهي أبلغ دليل على أن الفينيقي لم يكن تاجراً فحسب كما يصفه البعض إنما أيضاً فناناً مفكراً ومنتجاً.

١٨ ـ العبريون:

قبائل رحل، من أصل سامي، دخلوا التاريخ مع عشيرة التيراشيت (Térachites) التي كانت تقطن نواحي أور حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد. أبرام (Abram) ابن تيراش (Terach) هاجر مع صحبه إلى الشمال من بلاد ما بين النهرين وبعد إقامته فترة في حرّان غادرها إلى كنعان وهناك عقد اتفاقاً مع إلوهيم (Elohim) ـ آلهة سامية ـ وحمل اسم ابراهام الذي يعني «أب الأمم». خلفاؤه، إثر مجاعة، سكنوا مصر التي أتى بهم إليها يوسف الذي اصبح وزيراً عند الفرعون ـ هكذا يروي لنا العهد القديم تاريخ هذا الشعب ـ وهذه الهجرة الى مصر تمت في عهد الهيكسوس في القرن السابع عشر قبل الميلاد.

بعد أن طرد المصريون الهيكسوس اعتبروا أن الآسيويين الذين وفدوا إلى الدلتا اعداءً فاستعبدوهم، وضمن هذا الواقع التاريخي كان أسر العبريين، في مصر، الذين عملوا في بناء المدن التي أنشأها الرعمسيون. وإلى أيام رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد يرجح تاريخ هروب العبريين من مصر بقيادة موسى، الذي يدل إسمه على أنه كان مصرياً، وكما تؤكد رواية يونانية نقلها أبيون (Appien) المؤرخ اليوناني (القرن الثاني ميلادي).

قاد موسى العبريين الذين ظلوا يرتحلون عدة سنوات في سيناء قبل أن يدخلوا أرض كنعان بقيادة يشوع بن نون عابرين الأردن عند مرتفعات أريحا.

اتحد اسم العبريين باسم خبيرو (Khabirou) الذي ورد لأول مرة في رسائل تل العمارنة، في رسالة من عبدي ـ هبا (Abdi-Hepa) إلى أمينوفيس الرابع (١٣٧٩ ـ ١٣٦٢ ق.م.) يشكو فيها من الخبيرو الذين يجتاحون كل بلاد الملك. وفي نصوص أخرى من بلاد ما بين النهرين ورد ذكرهم وأخذوا تسميات منها سا.غاز (Sa.Gaz) أو خبيرو وأقدمها تعود إلى سنة ٢٢٠٠ ق.م.، ويظهر أن جميع الشعوب القديمة لهذه الفترة كانت تصفهم بالعدائيين والمخربين وأهل الصحراء. وأول مرة كتب فيها اسمهم ولفظ خبيرو ظهر في لوحات أشورية تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ويدل إلى رجال أحرار في خدمة أمير: إنهم خبيرو القصر. وذكرهم يظهر بكثرة في الفترات اللاحقة: في بابل وعيلام ونوزي وألالاخ ورأس شمرا وفي النصوص الحثية والمصرية وفي رسائل تل العمارنة، ويدل على أن الخبيرو كانوا منتشرين في عيلام وفلسطين وآسيا الصغرى ومصر، ويظهرون على المسرح طوال الألف الثاني قبل الميلاد.

ولو عدنا إلى أصل هذه الكلمات (Khabirou، SA.GAZ عبريين) لوجدناها تجتمع بالتالي على مفهوم واحد وهو أنهم لم يعرفوا الاستقرار فكانوا عابرين أو لاجئين أو مستخدمين، رحلاً أتوا من كل الاتجاهات.

بعد أن دخلوا أرض كنعان، ولأكثر من قرن، ظل العبريون، المدعوين «بني إسرائيل» يقاتلون الكنعانيين والفلسطينيين لامتلاك أرض كنعان. وكانت العلاقات بين الكنعانيين والعبريين ملتبسة، فتارة يهدمون قراهم وينبذون آلهتهم وأخرى يتبنون آلهتهم ولغتهم وتقاليدهم. أما علاقتهم مع الفلسطينيين فكانت عداء دائم. وفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد اتحدت قبائل العبريين الإثني عشر ضد الفلسطينيين ونصبت ملكاً لها، شاوول، لتقوية اللحمة فيما بينها خلال الحملات الحربية.

وبعد استقرارهم في أرض كنعان عرفوا بالاسرائيليين ووصلت المملكية الاسرائيلية إلى أوجها أيام خلفاء شاوول: داوود وابنه سليمان. وامتدت المملكة الاسرائيلية على أكبر قسم من فلسطين. ولكن بوفاة سليمان انقسمت الى دولتين متنافستين: يهودا وعاصمتها أورشليم واسرائيل وعاصمتها سمارية. هذه الأخيرة دامت قرنين من الزمن وسقطت سنة ٧٢٢ ق.م. تحت ضربات الآشوريين. أما يهودا فقد هدمها نبوخذ نصر البابلي وأخضع عاصمتها أورشليم سنة ٥٨٧ ق.م. ونفى قسماً من سكانها إلى ضفاف الفرات، وعندما احتل الفرس بابل أمر ملكهم سيروس اليهود بالعودة الى أورشليم سنة ٥٣٨ ق.م. وبقيت خاضعة للفرس ومن ثم لليونانيين حتى سنة ١٦٧ ق.م. عندما انتفض اليهود بقيادة الكاهن ماثاثياس وابنه يهوذا الملقب «مكابي» أي المطرقة ضد السلوقيين واصبحوا أحراراً، وظلت مملكة يهوذا مستقلة حتى سنة ٦٣ ق.م. وهو التاريخ الذي اصبحت فيه فلسطين جزءاً من الامبراطورية الرومانية أيام بومبي (Pompée).

ومنذ استقرار العبريين في بلاد كنعان نجدهم يشاركون الكنعانيين في الكثير من وجوهم الحضارية ولكنهم يتميزون عنهم في بعض المعالم التي تظهر في معتقداتهم الدينية. والآثار المتبقية من معبد أورشليم والأوصاف الواردة عنه في «العهد القديم» تعبر عن مزج واندماج الفن المصري بالفينيقي. والبناء الوحيد الخاص بهم هو السيناغوغ (Synagogue) ففي دورا أوروبس نجد رسوماً في السيناغوغ طابعها يوناني ـ لاتيني، فهم شعب له آلهته الخاصة ولو اعتمد لغة وعادات الشعوب القديمة التي عاش بينها. ومن أهم المدن التي تمثلت فيها آثارهم: أورشليم (القدس)، سمارية التي تقع على بعد ٦٠ كلم من أورشليم، على جبل علوه ٩٠٠ متر، ومجدّو (تل المتسلم) على بعد ٣٥ كلم جنوب شرق مرفأ حيفا، وجزر (Gezer ـ تل أبو شوشة) بين القدس وتل أبيب، وحازور (Hazor) أو تل وقّاص وتقع على بعد ١٤ كلم شمالي بحيرة طبريا. وتعتبر هذه المدن بشكل عام ذات حضارة يهودية ـ كنعانية.

١٩ ـ شعوب البحر ـ الفلسطينيون:

«شعوب البحر» اسم اطلقه المصريون القدماء على مختلف الشعوب الآتية «من البحر والشمال»، وأول إشارات لهم ظهرت في رسائل تل العمارنة التي حفظت لنا بعض اسمائهم، إنهم الدانيان واللوكو والشردن، الذين ظهروا في سوريا في أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد واعتبر منشأهم قيليقية. وخلال معركة قادش في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١٢٩٤ ق.م.) بين الحثيين والمصريين نجد أن رعمسيس الثاني ادخل الشردن بين صفوف الجيش المصري بينما أدخل ملك الحثيين جماعات يشير المصريون إليهم على أنهم شعوب البحر، وليس مستغرباً أو مستبعداً أن يستعين الحثيون بشعوب منشؤها آسيا الصغرى.

وللمرة الثالثة تُذكر شعوب البحر في النصوص المصرية ولا تظهر مؤلفة من بحارة أو محاربين، مزعجين إنما غير عدوانيين، أو من جنود أناضوليين في خدمة الحثيين: إنهم فرقة منظمة تسير ضد مصر آتية من ليبيا ومن غربي الدلتا، إنهم الغزاة الذين انتصر عليهم مينبتاح في معركة بير إرت (Per Irt) سنة ١٢٢٧ أو ١٢٣٣ ق.م. وإلى جانب اللوكو والشردن ظهرت شعوب جديدة دلت اسماؤها على أنها وفدت من آسيا الصغرى. فرعمسيس الثالث، في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، اصطدم عدة مرات بغزوات شعوب البحر الآتية من ليبيا أو من فلسطين إنهم النشاردن والدنيان ... والثيكيل (Thekkel) والبيلسيت (Peleset) أو (Pilistou). وفي كل مرة كان ينتصر رعمسيس على الغزاة ويفرقهم. وتسكت النصوص المصرية فيما بعد عن ذكر هذه الشعوب التي اختفت، دون شك، من المناطق المجاورة ما عدا إثنين منها وهما الثيكيل والبيليسيت، الثيكيل بعد خسارتهم الأخيرة أمام رعمسيس الثالث سنة ١١٨٦ ق.م. مكثوا على الشاطىء الفلسطيني وظلوا يعيشون من أعمال القرصنة، حسب رواية مصرية تحكي قصة موظف اسمه «أونامون» أرسل إلى بيبلوس ليأتي بالخشب حوالي سنة ألف قبل الميلاد. أما البيليسيت (Peleset) فقد اجمع المؤرخون واتفقوا لمرة على أنهم

الفلسطينيون المعروفين في نصوص «العهد القديم»، بعد خسارتهم اسكنهم رعمسيس الثالث على الشاطىء الفلسطيني حيث أسسوا خماسيتهم المدنية: غزة، عسقلان، أشدود، أكرون، وغات. والمدينتين الأخيرتين لم تحدد مواقعهما أو تعرف بعد.

ومما يجدر ذكره أن «العهد القديم» يعود بالفلسطينيين إلى كفتور المعروفة في النصوص الأكدية بكبترا (Kaptara) أي كريت، وقد عثر في جنوبي كريت على أسطوانة تعرف باسطوانة فايستوس تحمل بين رموزها المصورة رأساً متوجاً بالريش يذكرنا بهندام رؤوس البيليسيت وغيرهم من شعوب البحر الممثلة في معبد مدينة ـ حبو (Medinet-Hébou) في مصر، ويذكر صراعهم وعداوتهم مع العبريين كما في قصة شمشون ودليلة وفي صراع داوود وجوليات.

إن معالم حضارة شعوب البحر والفلسطينيين اندمجت في حضارات الشعوب المحلية، خاصة أن الفلسطينيين اصبحوا ساميين في عاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم فقد تبنوا الآلهة والاسماء الكنعانية ولكن لغتهم الأصلية لم تعرف حتى الآن. وإلى الفلسطينيين تنسب الخزفيات المعروفة بالخزفيات الفلسطينية التي اقتبست العناصر الزخرفية والأشكال الميسانية وأضافت إليها تمثيل العصفور مستعملة الصباغ الأحمر والأسود في تلوينها.

٢٠ ـ النبطيون:

نسمع بالنبطيين (أو الأنباط) وتدهشنا آثارهم ونتطلع الى معرفة أصلهم ومنشئهم. ولو عدنا الى المراجع القديمة لوجدنا أن نصوص الامبراطورية الأشورية الحديثة التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد تدعو نابایاتي (Nabaiati) مجموعة من الرحّل الذين سكنوا بلاد ما بين النهرين (عيلام) والمناطق الصحراوية من شمالي الجزيرة العربية. كما نجد «العهد القديم» يدعوهم نبايوت (Nabaioth)، والمؤرخون اليونان، في كتاباتهم عن الحملة التي شنّها أنتيغون، أحد قواد الأسكندر الكبير سنة ٣١٢ ق.م.، وابنه

ديمتريوس بوليوكريت على أراضي النبطيين، يطلقون عليهم اسم نبطيين (Nabatéens). وبعض الأثريين يعتقدون أنهم وفدوا من جنوب الجزيرة العربية حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ولكنهم يهملون ذكر نبيط (Nbyt) هذا الاسم السامي الوارد في نص منقوش عند جبل غنيم قرب تيما (Teïma) شمالي الجزيرة العربية، والذي يعود إلى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

رغم كل التقديرات حول أصل النبطيين ومنشئهم. نجدهم مستقرين في القرن الرابع قبل الميلاد في الشمال الغربي من الجزيرة العربية وشرقي البحر الميت، أي على أرض الأردن حالياً. ومدينة البتراء كانت تشكل شبه مستودع للبضائع العابرة بين اليمن والهند من جهة والعالم اليوناني والروماني من جهة أخرى. ونقطة التقاء للطرق التجارية التي تربط مصر بفلسطين وسوريا.

ومنذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد نجد النبطيين منظمين في دولة ملكية وهذا ما تدل عليه النصوص التي تعود إلى الفترة الواقعة بين سنة ٢٠٠ ق.م. و ١٥٠ ق.م. والمؤرخون اليونان أتوا على ذكر عدة ملوك للنبطيين، أهمهم: أوبوداس الأول (٩٦ ــ ٨٧ ق.م.)، أرتياس الثالث الذي دفع ضرائب للرومان وفتح بلاده للتأثيرات اليونانية ــ الرومانية (توفي سنة ٦٢ ق.م.). وأرتياس الرابع (من سنة ٩ ــ ٤٠ ميلادية) الذي عرفت البتراء في أيامه عصرها الذهبي. وانحطاط البتراء بدأ مع مليخوس الثاني (Malichos II)، بعد أن اكتشف البحارة اليونان ــ الرومان وجود الرياح الموسمية الهندية (رياح تهب لمدة ستة أشهر في اتجاه وستة أشهر في اتجاه معاكس للأول) فحولوا أساطيلهم عن بلاد الأنباط إلى المحيط الهندي عبر مصر دون اللجوء إلى الشواطىء العربية.

في عهد تراجان (Trajan) سنة ١٠٦ ميلادية ضمت بلاد الأنباط إلى باقي المناطق واصبحت مقاطعة رومانية. وفي أيام البيزنطيين اصبحت البتراء عبارة عن مدينة صغيرة وأخذت دورها مدينة البصرى (Bosra) وقد حاول الأنباط التوسع كغيرهم من الممالك الشرقية ففي عهد ارتياس الرابع امتدت سيطرتهم إلى أراضي دمشق وحتى الحجاز في الجزيرة العربية.

تأثر الأنباط كثيراً بالهللينستيين كما تأثروا بحضارات الشعوب التي احتكوا بها فأتى فنهم خليطاً جمع تأثيرات مختلفة. فالهندسة النبطية نجدها متأثرة بالفن الروماني وممثلة في آثار البتراء، أودات (Avdat) ـ اسمها اليوم نجف ـ وخاصة في مدائن صالح في شمال الجزيرة العربية. كما نجد على الطريق إلى اليمن العديد من المعابد والمدافن الصخرية المزودة بواجهات تشبه إلى حدٍ بعيد آثار البتراء. وقد اكتشف في جنوب البحر الميت، في خربة تنور (جنوب شرق الأردن)، معبد نبطي احتوى على منحوتات ذات طابع خاص ومميز عن منحوتات البتراء.

البتراء: تقع على بعد ٣٠٠ كلم جنوبي عمان في الأردن، وسط ميدان صخري في الصحراء، ولا يمكن الوصول إلى عاصمة القوافل العربية هذه التي كانت تتاجر بالطيوب بين الجزيرة العربية وشواطىء البحر الأبيض المتوسط إلا بالمرور عبر الزيق (Siq) وهو ممر ضيق شرقي مجرى «وادي موسى» الذي حوّلت مياهه بواسطة سد، وكانت قديماً تمر عبر أقنية من الفخار المشوي. عند مدخل هذا المعبر الضيق والعسير، الذي تسهل حمايته، توجد مدينة مدفنية حفرت في الصخور ومسلات وبيت إيل. معظم أبنية هذه المدينة الحجرية حفرت في الصخور الرملية الملونة: الزهرية، الحمراء، الصفراء أو البنية، وتعود بتاريخها إلى أوائل القرن الثاني قبل الميلاد. وأول بناء في الزيق والمدعو «الخزنة» (أي الكنز)، يعود بتاريخه إلى سنة ١٠٠ ميلادية، هو عبارة عن واجهة ضخمة في طابقين، ارتفاعها أربعون متراً وعرضها ٢٨ متراً، حفرت في الصخر الرملي الزهري اللون وكانت قبراً فخماً للملك أرتياس الرابع. وقبل أن نصل إلى المدينة نجد إلى اليسار مسرحاً حفر في الصخر، يعود بتاريخه الى القرن الثاني ميلادي.

أما المدينة فيقطعها طريق، رُصف بالحجارة، من الشرق إلى الغرب، تحده ثلاث ساحات تجارية ترتفع أبنيتها على عدة طبقات، ونجد معبداً تتقدمه الأعمدة. في طرف الشارع الرئيسي يرتفع مدخل المدينة المقدسة وفي وسطه «قصر البنت» الذي بني في القرن الأول قبل الميلاد على مصطبة اصطناعية. من الجهة الشمالية التي تحدها الأعمدة نجد سبيل ماء (Nymphée)

ومسرحاً صغيراً وقصراً ملكياً وملعبين رياضيين، والى جانبي الشرخ الصخري الطبيعي نجد العديد من واجهات المدافن ـ المعابد، وإلى الجنوب مدافن محصنة. وحول المدينة، في الأودية المجاورة، نحتت واجهات معابد صخرية كبيرة منها المدعوة مقبرة «إيرن» (L'Urne) الدورية الطراز والتي تعود الى القرن الأول ميلادي والتي حوّلت الى كنيسة سنة ٤٤٦ م.، ومقبرة «الدير» الكورنثية، وعلى مسافة قليلة إلى الشمال نجد مقبرة رومانية للحاكم الروماني سيكستوس فلورنتينوس (Sextus Florentinus).

أودات أو أبـودا: اليوم «نجـف» تقع على مفترق طرق بين البتراء وإيلات (على البحر الأحمر) وفلسطين، أصبحت هذه المدينة في القرن الثالث قبل الميلاد مركـزاً تجارياً للانبـاط ثـم اهملت في القـرن الأول قبـل الميلاد، وبعد نصف قرن تقـريباً عـاد الأنبـاط إليهـا وجـددوا الأكروبـول وحصنـوه وأقاموا السدود لـري الأراضي المجـاورة، وقـد عـرفت هـذه الفترة ازدهـار صناعة الأواني الخزفية النبطية التي تشبه البورسلين العصري، وقـد عثـر على مصنع لها. والانباط قاوموا الرومان الغزاة ونجحوا في المحافظة على استقلالهم حتى سنة ١٠٦ ميلادية عندما ادخلهم الرومان ضمن امبراطوريتهم واعتبروهم جزءاً من المقاطعة العربية. وفي أوائل القـرن الثـاني ميـلادي شهـدت المنطقـة وصول القبائل العربية تمود وصفـايت مـن الجزيـرة العربيـة، ويُعـزى إليهـم تهديم المدينة التي عادت ونهضت حـوالي سنـة ٢٤٢ ميلاديـة. وأقيـم فيهـا معبد زوس ـ أوبوداس نسبـة الى المدينـة ومؤسسهـا الملك النبطي أوبـوداس الذي ألّهه النبطيـون.

في أواخر القرن الثالث ميلادي هجرت المدينة من جديد ثـم أهلت مـن جديد في أوائل القرن السادس ميلادي أيـام البيـزنطيين وبنيت كنيستـان على الاكروبول من الطراز البازيليكي ودير. أما المدينة فكانت عبارة عـن بيـوت صغيرة أقيمت فوق أقبية حفرت في صخور الهضبة. وقد حفظت هذه المدينة البيزنطيـة مما جعلها محط أنظار السيـاح. إلى جـانب هـذا فقـد عثـر في وادٍ غربي المدينة على بنـاء صغيـر مخصص للاستحمـام جُهّز بخزانـات حصرت مياهها بواسطة سدود اصطناعيـة.

٢١ ـ «الخليج العربي» ؟

رغم أن دائرة نشاط الحضارة النبطية امتدت حتى شمالي الحجاز والنجف (Négueb) فإننا لا نعرف الكثير عن آثار المملكة العربية السعودية ولكن أولى المواقع المكتشفة هي مدائن صالح حائل وتيماء. ففي واحة تيماء بني نابونيد، آخر ملوك بابل، قصراً، في النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وقد عثر فيها على نصب هام قدمه أحد أبناء المصريين إلى الإله «سالم هجم» (Tsalm de Hajam)، يظهر فيه الإله بلباس آشوري، ويحمل كتابة آرامية. وفي حائل عثر على تل كبير وعلى خمس وعشرين موقعاً في المناطق المجاورة لها وقد جمعت بعض الكتابات الآرامية وكسر الفخار النبطي مما يدل على أن الأنباط كانوا يرتحلون في تلك المنطقة؛ كما عثر على حوالي مئتي نص ثمودي وعلى نقوش حجرية عديدة تمثل الإبل والماعز والغزلان والأسود والنعام والخيول والرجال المحمولة. وقد ورد ذكر الثموديين في القرآن الكريم وكان هؤلاء رحلاً ربطوا بين ديدانيي شمال شبه الجزيرة العربية وبين سبئيي جنوبها، إضافة إلى ذلك فقد عثر على حوالي ثلاثمئة كتابة ديدانية، لحيانية، مينية ونبطية. أما الرسوم الصخرية المكتشفة، فتمثل مرحلة طويلة، أقدمها وعددها ١١ تعود إلى عهد الانسان الصياد أي الى حوالي ١٠٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد، و ٧٦ ترجع الى فترة الانسان الصياد ـ الراعي وتعبر عن أولى مراحل تدجين الحيوان وتعود الى حوالي الألف السادس قبل الميلاد، و ٤٤ تعود الى فترة ما قبل الاسلام ـ ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن السادس بعد الميلاد ـ

وقد جرت في الخليج العربي أعمال تنقيب لكنها لا تزال مقتصرة على مناطق محددة وبحاجة الى الكثير من الدراسات التي ستلقي نتائجها الأضواء على ما تكتنزه من معالم حضارية لا شك في فوائدها العلمية خاصة الأثرية ـ التاريخية. ومن أهم هذه المناطق: جزيرة فيلكا في الكويت، البحرين، جزيرة أم النار في إمارة أبو ظبي والمليحة في إمارة الشارقة.

جزيرة فيلكا: جزيرة صغيرة في الشمال الغربي من الخليج العربي، في

الكويت. اكتشف فيها سنة ١٩٥٨ موقعان من العصر البرونزي وموقعان من العصر الهللينستي.

كشف في هضبة سعد، في موقع ف ـ ٣ (F-3)، عدد من المساكن ومعبد صغير بنيت بالحجارة وتبين أنها كانت آهلة في العصر البرونزي القديم والأوسط والحديث، وعلى بعد ٢٠٠ متر شرقاً موقع ف ـ ٦ (F-6) عثر على بيت واسع من العصر البرونزي القديم في وسطه فسحة فيها أربع أعمدة من الفخار الغير المشوي يبدو أنها كانت تدعم رواقاً، وأهم ما عثر عليه من الشواهد هي الأختام التي بلغ عددها حوالي المئتي ختم في موقع ف ـ ٦ و ١٧٠ في ف ـ ٣ من العصر البرونزي القديم. أخذت هذه الأختام شكل الأزرار ونجد بعضاً من رسومها ممثلة في نماذج بلاد ما بين النهرين وعيلام. إن دراسة مجموعة الأختام المدعوة «أختام الخليج الفارسي» والمشابهة للأختام التي عثر عليها في البحرين ودراسة أختام هارابا في الباكستان وأختام لوثال في الهند وضحت أوجه التشابه فيما بينها وبين أختام بلاد ما بين النهرين ودلت على وجود علاقات تجارية بين بلاد ما بين النهرين ووادي الهندوس في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، وفيلكا بحكم موقعها وبعد دراسة ما اكتشف فيها من أختام وغيرها من الشواهد الأثرية تعتبر إحدى المحطات التجارية الهامة لتلك الفترة.

وفي جنوبي الموقع ف ـ ٦ كشف عن قسم من مدينة صغيرة يونانية محصنة وعن معبد من الطراز اليوناني يعود بتاريخه إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وفي موقع آخر غير بعيد اقيمت حفرية كشفت عن قسم من حي الخزافين، حيث أفرانهم ونفاياتها وسفالة المعادن المستعملة فيها.

حسب رواية الجغرافي اليوناني سترابون (Strabon)، اكتشف هذه الجزيرة أندروستين من تاسوس (Androsthène de Thasos) أحد ضباط الاسكندر الكبير، فأبحر بأمر من الاسكندر نحو الخليج العربي، وأشار إلى وجود معبد للإله أبولون في الجزيرة وأوراكل (مكان تنبؤ ومخاطبة للآلهة Oracle) لأرتميس توروبول (Artemis Tauropole) إنما لم تؤكد بعد أعمال التنقيب

فيما إذا كان المعبد المكتشف في جنوبي موقع ف ـ ٦ هو معبد الالهة أرتميس.

البحرين: ماذا عن البحرين، أكبر جزيرة في الخليج العربي؟

أكثر من مئة ألف تليل مدفني حيرت علماء الآثار قبل أن يبدأ التنقيب فيها سنة ١٩٥٣. هل هي ديلمون التي ورد اسمها تيلمون أو تلمون في النصوص السومر ـ أكدية والآشور ـ بابلية والذي نجده في أكثر الأحيان مرافقاً لماغان (Magan) وملوكخا (Melukkha)، هاتان المدينتان اللتان لم تكتشفا بعد و لم يحدد موقعهما؟ أول مرة اجتمعت فيها أسماء ديلمون وماغان وملوكخا كان في وثيقة تاريخية أيام أور ـ نانش (Ur-nansha) ملك لاغاش (٢٥٥٠ ـ ٢٥٠٠ قبل الميلاد)، في نص هذه الوثيقة يعلن الملك أنه أتى بخشب البناء من ديلمون؛ والنصوص التي تذكر ديلمون منها: الدينية والتاريخية.

ديلمون في النصوص الدينية أرض مقدسة طاهرة، «جنة أرضية الأسد فيها لا يقتل والذئب لا يخطف الخروف، إنكي (Enki) إله المياه نائم مع زوجته»، هذا ما ورد في قصيدة سومرية تدعى إنكي ونينورساغ (Enki et Ninhursag). ومعبد إنّانا كبيرة الآلهة السومرية في أور كان يدعى «بيت ديلمون». وفي قصيدة الطوفان السومرية أقام الآلهة بيوتهم على هذه الأرض الجبلية من ديلمون، «المكان الذي ترتفع فيه الشمس». أما في النصوص التاريخية فنصب سرجون الأكدي يذكر انتصار الملك في ديلمون وفي نصوص أخرى تقع هذه المنطقة المنتجة للتمر في البحر المنخفض أي في الخليج العربي. وفي كتابة آشورية حديثة يقارن آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٣٣ قبل الميلاد) ديلمون في البحر المنخفض بصور (Tyr) جزيرة البحر العالي (البحر الأبيض المتوسط).

هذا عن ديلمون فماذا عن البحرين؟

إن أهم المواقع الأثرية التي تم التنقيب فيها في البحرين هي: تلة قلعة البحرين، معابد بربر (Barbar)، تلول مدافن أعلي (Aali) وأم الجدر. وقد

تبين من خلال الشواهد الأثرية أن هذه الجزيرة تأثرت بالحضارات القديمة التي عاصرتها منذ أوائل الألف السادس قبل الميلاد وبالشعوب المختلفة التي مرت عليها بدءاً بشعوب بلاد ما بين النهرين إلى المصريين فالهلليينيين ... حتى البرتغاليين.

في موقع تلة قلعة البحرين المتوجة بحصن برتغالي ترجع المرحلة السكنية الأولى إلى العصر البرونزي القديم (حوالي ٢٨٠٠ قبل الميلاد)، وتشكل بيوتها الحجرية قرية غير مسورة. في المرحلة السكنية الثانية وتعود إلى أواخر العصر البرونزي القديم والى العصر البرونزي الوسيط (٢٢٠٠ ـ ١٧٠٠ قبل الميلاد) أحيطت القرية بسور وأختام هذه المرحلة المكتشفة شبيهة بأختام فيلكا، أما الأوزان التي عثر عليها فمأخوذة عن الهندوس، مما يؤكد على الدور التجاري الذي لعبته هذه المنطقة. في المرحلة الثالثة، أي مرحلة العصر البرونزي الحديث (١٦٠٠ ـ ١٢٠٠ قبل الميلاد) استخدمت الحجارة الكبيرة في بناء البيوت واحيطت المدينة بسور، ويلحظ في هذه المرحلة استعمال فخاريات شبيهة بفخاريات بلاد ما بين النهرين التي كانت خاضعة لسلطة الكاشيين آنذاك. في المرحلة الرابعة المعاصرة للعهد الآشوري الحديث (١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م.) تجاوز ارتفاع سور المدينة الحجري الأربعة أمتار. تلتها المرحلة الهللينستية التي تشهد عليها الخزفيات الأتيكية (اليونانية) والمسكوكات المقلدة لمسكوكات الاسكندر المقدوني الكبير. أما المرحلة السادسة فتعود الى العصر الاسلامي وآخر مرحلة سكنية في هذا الموقع ترجع إلى القرن السادس عشر ومن آثارها الحصن البرتغالي.

من خلال دراسة معابد بربر، الواقعة غربي قلعة البحرين، اتضح أن لها خصائص المعبد السومري وأنها تعود بتاريخها الى العصر البرونزي القديم (٢٨٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م.) وأن تطور هندستها أتى خلال ثلاث مراحل:

ـ في المرحلة الأولى الممتدة من حوالي سنة ٢٨٠٠ حتى ٢٧٠٠ قبل الميلاد كان المعبد عبارة عن فسحة منبسطة مستطيلة الشكل (٢٥م × ١٦م.) يحدها جدار يبلغ ارتفاعه متران مؤلفة من باحة تحيط بها غرف صغيرة.

ـ في المرحلة الثانية الممتدة من حوالي سنة ٢٦٠٠ حتى ٢٣٠٠ قبل الميلاد أحاط بالفسحة جدار بيضاوي الشكل بلغ طوله ٧٠ متراً يحمل على ارتفاع مترين سطحاً بيضاوياً.

ـ في المرحلة الثالثة أصبح طول السطح المحمول مئة متر وتضاعف ارتفاعه (٤ م) وأحيط بجدار. وقد عثر في مخزن في الأساسات على إناء من الألباتر مصري المصدر كما عثر على منحوتات نحاسية أبرزها رأس ثور وطاووس وتبين أنها تعود إلى حوالي سنة ٢٠٨٠ قبل الميلاد.

التلول المدفنية في أعلي معظمها نهبت والمدافن (القبور) فيها مؤلفة من غرفة جدرانها حجرية ومغطاة بألواح حجرية، بعضها مكون من غرفتين مختلفتي المستوى توزعت في جدرانهما الكوى وكل غرفة ضمت رفات شخص واحد فقط، من بين اللقى أوان فخارية وأوان توم (بيض نعام) ورؤوس حراب وحلى ذهبية.

كذلك الأمر بالنسبة لمدافن أم الجدر المكونة من غرفة أو غرفتين يغطيها تليل فقد دلت موجوداتها من خزف وأختام وخرز ... على أنها تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

أخيراً وليس آخراً، عثر في موقع أثري لمستوطنة ديلمونية في قرية سار على لؤلؤة نادرة يرجع تاريخها إلى حوالي أربعة آلاف سنة، وحسب قول رئيس البعثة البحرينية ـ البريطانية، الدكتور روبرت كليك، «إن اكتشاف اللؤلؤة يشير إلى أن المستوطنة الديلمونية كانت تتمتع بدرجة من الثراء.

نتيجة لما تقدم، وعود على بدء، هل البحرين هي ديلمون؟ سؤال لا يمكننا البت فيه مرحلياً ولا يزال علماء الآثار على خلاف حوله، وكل ما بإمكاننا قوله الآن إن هذا ما ستؤكده أو تدحضه الاكتشافات الأثرية في المستقبل القريب أو البعيد؟!

أم النار: أم النار جزيرة صغيرة من إمارة أبو ظبي على الخليج الفارسي وقد عثر فيها على عدد من الأبنية والمدافن ذات القبور المكونة من غرفة مدفنية جماعية. ومن بين المدافن نجد المغطاة بتلول مدفنية القبور فيها

مستديرة الشكل ومؤلفة من سراديب تكدست فيها جثث الموتى، إحدى هذه المدافن بلغت مساحتها ١٢م^{2} واحتوت على رفات ٣٦ شخصاً، وتعود بتاريخها إلى ما بين ٢٨٠٠ و ٢٤٠٠ سنة قبل الميلاد، ومحتوياتها تختلف تماماً عن محتويات مدافن فيلكا والبحرين وأهمها الشواهد النحاسية والفخارية التي تشير إلى العلاقات التي كانت قائمة بين شواطىء عمان وإيران وبلوخستان، وربما كانت أم النار محطة تجارية لماغان التي تذكرها النصوص السومر ـ أكدية.

٢٢ ـ اليمنيون:

نشأت الحضارة اليمنية القديمة في الأودية الداخلية. في نواحي صيهد (رملة السبعتين) خصوصاً في وادي الجوف ووادي بيحان. وانتشرت في سلسلة الجبال اليمنية وفي أثيوبيا والواحات الصحراوية الغربية في الجزيرة العربية، ووصل تأثيرها حتى شواطىء الخليج العربي وشمالي الحجاز.

يصعب تحديد بداية هذه الحضارة لانعدام اعمال التنقيب المتكاملة والمتواصلة ولكن البعثات الغربية والعربية المتتالية إلى مناطق اليمن خاصة إلى مأرب وبيحان وتمنع واستناداً إلى الإشارات الواردة في كتاب العهد القديم وعند المؤرخين القدماء وبعد دراسة النقوش والكتابات أصبح من الممكن اعطاء فكرة عن الحضارة اليمنية اعتباراً من أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ـ رغم أن الكتابة المعينية ترجع إلى حوالي ألفي عام قبل الميلاد.

كانت اليمن قديماً الأغنى والأكثر ازدهاراً بين مناطق الجزيرة العربية، إنها «العربية السعيدة» عند اليونان والرومان، وقد ساهم موقعها الجغرافي في تطورها الحضاري، فهي بعيدة عن مراكز التحضر في العالم القديم خاصة عن تلك المحيطة بحوض البحر الأبيض المتوسط وفي الوقت نفسه قريبة من أفريقيا وتشكل همزة وصل على الطريق بين تلك المناطق والهند، إنها «طريق البخور». هذا البعد عن مراكز التمدن في الشمال ووعورة الطرق المؤدية إلى الجنوب العربي ساهما في جعل اليمن آمنة من الغزو من جهة وفي

تحكمها بالطرق التجارية بين الشمال والجنوب وبين الشرق الآسيوي والغرب الأفريقي من جهة أخرى، وفي نشوء مدنية ذات طابع خاص تظهر فيه بعض المؤثرات الخارجية التي وصلتها من خلال الاحتكاك التجاري.

كان البخور والمر من أهم منتجات جبال اليمن ولايصال هذه الصموغ الثمينة من المناطق المنتجة لها، من المنحدرات المتجهة نحو داخل الجزيرة العربية، هناك حلان: سلوك طريق البحر انطلاقاً من أحد مرافىء اليمن والصعود عبر البحر الأحمر أو نقل البضائع على طريق برية بواسطة القوافل.

شق المصريون عباب البحر الأحمر منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد قاصدين بلاد البونت (Pount). سعياً للحصول على التوابل وغيرها من المواد المستخدمة في الطقوس الدينية وفي صناعة العطور والأدوية وفي التحنيط ... كذلك أرسل الملك سليمان النبي في القرن العاشر قبل الميلاد بعثات بحرية نحو أوفير (Ophir) للحصول على الذهب. وفي كتاب العهد القديم وصف لزيارة قامت بها ملكة سبأ للملك سليمان والتي أشار إليها القرآن الكريم. ولكن سكان الجنوب العربي كانوا يفضلون الطريق البرية لأنهم كانوا يريدون ابعاد الغرباء عن هذه التجارة مستفيدين من الصعوبات التي تعترض الرحالة في الصحارى الواسعة. سياستهم التجارية هذه حملت بلين (Pline) على القول بإنه لا يوجد لاتيني وصف شجرة البخور لأنه لم يكن من السهل الوصول إليها ووصفها ... ويضيف: «العرب بشكل عام شعوب غنية جداً لأنهم يمسكون ثروة الرومان والبارتيين الواسعة ببيعهم ما يستخرجون من البحر والغابات دون شراء شيء بالمقابل». فسكان الجنوب العربي وحدهم تحكموا بهذه التجارة وغنموا منها أرباحاً وصفها كتاب العصور الكلاسيكية القديمة بأنها أسطورية، وقالوا بأنه «لا يوجد شعب أكثر غنى من السبئيين والجرهئيين لأنهم خزّنوا كل ما حظيوا به من أرباح من آسيا وأوروبا ... ومظاهر الترف تبدو في أعمالهم الفنية من نحت ونقش ... وفي مقتنياتهم من كؤوس وأسرة وطاولات مثلثة الأرجل ... والعديد منهم أصحاب ثروة ملكية». وقديماً توزعت أراضي الجنوب العربي خمسة

شعوب: المينيون وحاضرتهم معين (كارناو)، القتبانيون وحاضرتهم تمنع، السبئيون وحاضرتهم مأرب، الحميريون والأترامييتيون أسياد حضرموت وحاضرتهم شبوة. هذه الشعوب أو الممالك بدأت تتكون في أواسط الألف الأول قبل الميلاد وبها ترتبط بعض المواقع من عمان الغربية في ظفار.

الطريق البرية: اعتمدت الطريق البرية في الألف الأول قبل الميلاد، ونستطيع من خلال المعطيات الأثرية والمصادر الأدبية اظهار بعض الدلائل عن الطريق التي سلكتها القوافل. والمدعوة «طريق البخور».

كانت المناطق الرئيسية لانتاج البخور والمر هي المناطق الشرقية من اليمن قديماً، حضرموت وظفار، ولهما طريقان خطتهما الجغرافية الطبيعية: من الغرب باتباع السهل الساحلي أو من الشرق وبمحاذاة الجبال في الصحراء. ويبدو أن طريق السهل الساحلية لم تكن مستخدمة كثيراً في العصور القديمة لأنها تفرض الالتفاف حول قوس من الجبال والتلال العالية المشرفة من الغرب والجنوب على السهل الساحلي الضيق، والدليل على ذلك قلة الآثار عليها. أما الطريق الصحراوية فهي أقصر مسافة وأقل وعورة، ولكنها عرضة لغزوات الرحل؛ فقد كانت القوافل تنطلق من شبوة عابرة تمنع لتصل إلى مملكة سبأ، حيث تبدأ مرحلتان: الأولى إلى مأرب العاصمة والثانية إلى إحدى مدن وادي رجوان (خربة سعود أو الساحل) أو إلى جدفير ابن منيخير. الحدود بين مملكتي سبأ ومعين كانت المنطقة الواقعة بين جدفير وبراكيش، ومن المحتمل أن يكون جدار الحجارة الأسود الذي يقطع الصحراء غرب جدفير هو الدليل على ذلك. ففي المملكة المينية كانت القوافل تعبر براكيش ثم تلتف شرقي جبل اللوذ لتصل نجران متابعة طريق بوكا التي تعتمدها اليوم السيارات. طوال هذه الطريق في الجنوب العربي كانت المحطات والمسالك محددة ومراقبة، وهذا ما تدل عليه المواقع الأثرية المنتظمة وما يشير إليه بلين بقوله: «طريق واحدة ضيقة».

من نجران كان بإمكان القوافل الإتجاه إما نحو الخليج العربي والوصول إلى جنوبي فلسطين ووادي الفرات وسوريا أو نحو الشمال والشمال الغربي

بمحاذاة البحر الأحمر والوصول إلى خليج العقبة ومنه إلى مصر أو إلى مرافىء الشرق. من تمنع إلى غزة، حسب رواية بلين، كانت المسافة مقسمة إلى ٦٥ محطة لسفائن البر من الجمال، مدتها شهران وأسرع من المراكب لكنها أكثر كلفة «(في شبوة)، الكهنة يفرضون ضريبة لصالح الاله سابين (Sabin) ... لا يمكن تصدير (هذا البخور) إلا بواسطة بلد الجبّانيت أو قتبانيت، وتدفع ضريبة أيضاً للملك ... كهنة وكتاب الملك ينالون أيضاً حصصاً محددة، كذلك هناك الحرس الأعوان الخدم الحمالون ولهم حصة في النهب. على طول الطريق يجب الدفع، هنا للماء، هناك للأعلاف، للمحطات، للجمارك، حتى أن التكاليف إلى شاطئنا ترتفع إلى ٦٨٨ دنير (Deniers) للجمل. وهنا أيضاً يجب الدفع لزعماء المزارعين في امبراطوريتنا».

الطريق البحرية: إلى جانب الطريق البرية الأساسية لنقل السلع من الممالك اليمنية القديمة نحو غزة والاسكندرية فإن الفراعنة حاولوا ربط البحر الأحمر بالنيل عبر قناة حفروها ولكن الملاحة في البحر الأحمر لها مخاطرها نتيجة لكثرة الشعاب المرجانية والجزر الصغيرة التي كان قراصنة البحر يتربصون فيها بالسفن ولبعد مراكز التجمع البشري في مصر عن البحر. ومنذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد ازداد الاقبال على السلع النفيسة الواردة من اليمن والهند وافريقيا وازداد عدد السفن التي كانت تعبر البحر الأحمر والمحيط الهندي وأخذت السفن الرومانية، بعد أن اكتشفت الرياح الموسمية، تحذو حذو السفن اليمنية والهندية في رحلاتها بين مصر والهند، مما أدى إلى تنافس الأساطيل التجارية المختلفة وازدهار الموانىء على طول الطريق البحرية.

فالرخاء الذي عم ممالك الجزيرة العربية قديماً وانتعاش المناطق الجنوبية الغربية حمل الدول التي تعاقبت على حكم مصر وسوريا على محاولة اخضاعها. فالاسكندر المقدوني حدثته نفسه في ذلك والبطالسة بعده أقاموا المستعمرات على الشاطىء الأفريقي تحقيقاً لذلك. وفي القرن الأول قبل الميلاد عندما وضعت روما نهاية لسلالة البطالسة في مصر (سنة ٣٠ قبل الميلاد) وبعد

أن سيطر الرومان على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وعلى معظم المنافذ الى الجزيرة العربية إضافة إلى مدخل البحر الأحمر حاولوا التحكم بتجارة البخور واستطاعوا الهيمنة على الطرف الشمالي لطريق البخور. ففي عهد الامبراطور أوغسطس سنة ٢٤ قبل الميلاد شنّ القائد الروماني اليوس جالوس من مصر حملة بحرية وبرية على الجزيرة ووصل إلى مأرب وحاصرها، وقد كان هدفه اخضاع الدول المنتجة للبخور، ولكنه تراجع عنها يجرجر أذيال الفشل بعد أن غلبه العطش والمرض.

شكل تحويل طرق التجارة مع الهند بالإبحار مباشرة من المستعمرات اليونانية والرومانية في جنوبي البحر الأحمر ضربة اقتصادية لممالك الجنوب العربي التي كانت تمزقها الحروب الداخلية ومحاولات الهيمنة، ولكن اليمنيين ظلوا يتحكمون بطريق البخور البرية بين الجنوب والشمال إلى أن برز النشاط التجاري على شواطىء الخليج العربي وفي جزره والذي ارتبط ببلاد ما بين النهرين من جهة وباليمن من جهة أخرى.

لقد كشفت التنقيبات والدراسات رغم ضآلتها عن خرائب أجمل المواقع الأثرية ـ التي تحف «بطريق البخور» ـ العائدة إلى مدن ومعابد ومحطات عسكرية وإلى منشآت مائية استطاع بفضلها أهل الجنوب العربي التحكم بمياه الأمطار وري الأودية ومنحدرات الجبال وبالتالي الاستقرار في هذه الأحواض النصف صحراوية. ومن أهمها: خربة سعود، براكيش، مأرب، قرناو، حوقّا، حريضة، تمنع، حجر بن حميد، شبوة ...

خربة سعود: مدينة سبئية صغيرة في وادي رجوان بقي منها سورها ويعود بتاريخه الى القرن الرابع قبل الميلاد ويضم خرائب المعبد. ونظراً لموقعها البعيد عن مواقع الري لم تكن زراعية إنما شكلت محطة تجارية.

براكيش: مدينة مينية تقع في الشمال الغربي من خربة سعود وقد احيطت قديماً بسور يعود بتاريخه الى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد عثر على العديد من الكتابات في جدار السور إضافة الى برج قديم لا يزال واقفاً بكل ارتفاعه. ونتيجة للسكن المتواصل لهذه المدينة جرت تعديلات على السور في العصور التالية. تكمن أهمية براكيش في اتساع المنطقة المزروعة والمروية

بمياه الأودية الخمسة والواقعة جنوبي المدينة التي تنتشر فيها آثار الأبنية عند تشعبات الأقنية والتي كانت تشكل نقاط اتصال للقنوات الفرعية بالقنوات الرئيسة.

في منطقة براكيش أيضاً معبد وموقع أثري لا يزال موضع تساؤل وهو المعروف باسم «درب الصبي». آثار هذا الموقع تقع على بعد بضع كيلومترات جنوب غرب براكيش وتضم باحة مربعة يحدها من الجانبين صفان من الركائز التي تحمل ألواحاً أفقية، وتتوزع عند جوانب هذه الباحة أبنية صغيرة مؤلفة من غرفة مبنية بحجارة صغيرة مسطحة ومرصوفة إما أفقياً وإما عامودياً وطريقة رصفها تختلف تماماً عن الطريقة المعروفة في تلك المنطقة والمعتمدة على الحجارة الكلسية الكبيرة المنحوتة. ويبدو أن هذه الآثار ليست لمدينة حقيقية فالمساكن ضيقة جداً ولا أثر لسور يحيط بها، ويعتقد البعض أنها قد تكون سوقاً تجارية قديمة على علاقة مع تجارة القوافل، على نمط أسواق القبائل في اليمن حالياً، والتي تقام خارج المدن والمعروفة بحوانيتها المفردة.

مأرب: إنها ماريابا (Mariaba) الكتاب القدماء، عاصمة السبئيين «الواقعة على جبل تغطيه الأشجار الجميلة والتي يسكنها الملك الحاكم المطلق وسيد كل شيء في دولـه ... «الملك وحاشيته يعيشون حياة رخاء وترف أشبه بحياة النساء. بينما الشعب يقف اهتمامه على الزراعة والتجارة، والتجارة لا تقتصر على تصريف التوابل والبخور المنتج محلياً إنما تتعداه إلى أثيوبيا، فنراه على متن قواربه الجلدية عابراً البحر الأحمر ... وبفضل التجارة أصبح السبئيون والجرهئيون (سكان الشواطىء الشرقية للجزيرة العربية) من أغنى أمم الجزيرة العربية ... لديهم مفروشات فاخرة وأواني فضية وذهبية، أسرتهم فاخرة ... كل ما لديهم يلائم فخامة مساكنهم التي غلفت أبوابها وجدرانها وسقوفها بالعاج والذهب والفضة المنزلة بالحجارة الكريمة ...» هذا جزء مما حفظه سترابون في القرن الأول قبل الميلاد من أقوال أرتيميدور أفسوس.

أسفاً، لم يبق من مظاهر الثراء هذه سوى بعض الركائز وبعض بقايا

الجدران وأهم سد بني في العالم القديم، سد مأرب، الذي سنتطرق إليه فيما بعد، في حديثنا عن السدود قديماً.

عمل الأثريون على دراسة السد والمعبد المعروف بـ «حرم بلقيس» ملكة سبأ الشهيرة. وفي أواسط القرن الحالي عادت البعثات الى الموقع نفسه وعملت على دراسة «حرم بلقيس»، هذا المعبد الذي كان مخصصاً لعبادة إله القمر إيلومكوح (Ilumquh) وقد عثر على بنائين آخرين أحدهما مدفن صرحي والثاني لم تحدد هويته بعد ويعرف بـ «برعان» (Bar'an)

قرناو: أو معين هذه المدينة القديمة والبعيدة قليلاً عن طريق القوافل كانت عاصمة مملكة المينيين (قديماً قرناو، حالياً قطناو) ما زالت تحتفظ باجزاء من سورها القديم الذي نجد داخله بناءً صغيراً محفوظاً نسبياً، سقفه المؤلف من جسور حجرية ما زال على حاله تقريباً.

حوقّا: مدينة سبئية تقع شمالي صنعاء وقد اقيمت بيوت المدينة الحديثة على انقاض وأساسات المدينة القديمة، اكتشف فيها معبد لآلهة الشمس «ذات باعدن» (Dhât Ba'adan) يشبه معبد مأرب، وقد كانت مركزاً تجارياً مزدهراً منذ القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الثالث ميلادي.

حُريضة: تقع إلى الشمال الغربي من حضرموت وقد كشف فيها عند سفوح «وادي عمد» عن معبد للإله القمر «سين» وعن عدد من المدافن. يبدو أن المدينة تأسست في أواخر القرن السادس قبل الميلاد. وقد دلت محتويات المدافن الجماعية والفردية التي تم تنقيبها على غنى سكانها ويلحظ فيها التأثير الشرقي وتأثير بلاد ما بين النهرين بشكل خاص في العصور القديمة ومن الشواهد الأثرية الجعلان والاختام المصنعة من الفضة والعقيق ومختلف الأدوات الفضية والعاجية والزجاجية والخزفية.

تمنع: تحتل آثار هذه المدينة التي كانت عاصمة قتبان أكثر من ٢٠ هكتاراً درست بشكل سطحي. وقد حفظت لنا السنون منها البوابة الجنوبية للمدينة والتي ترتفع على ثلاثة أمتار تقريباً والتي كان يحميها برجان. وتؤدي البوابة الى ساحة صغيرة يتفرع عنها شارعان رئيسان. أرض البوابة كانت

مبلطة بالحجارة أما جدرانها فقد حفرت عليها قوانين المدينة. أحاطت بالساحة أبنية لا شك في أنها رسمية تبدو أحدث عهداً من البوابة التي يرجع تاريخ بنائها الى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. تعرضت المدينة في القرن الأول قبل الميلاد لحريق دمرها ولا تزال آثاره بادية للعيان. كما أن آثار المعبد الرئيسي للآلهة عشتار تظهر واضحة في وسط المدينة.

في الجهةِ الشمالية نصل بواسطةِ درج الى مدخل صرحي يؤدي إلى باحة مبلطة بالمرمر الوردي تحف بثلاث من جهاتها الأروقة ويحتل المعبد الجهةَ الرابعة منها وهي الجهةُ الشرقية. وقد تم كشف بناءين كبيرين قرب البوابة الجنوبية وعثر في أحدهما على أسدين جميلين من البرونز هللينستيي الطابع، وفي الآخر عثر على كتابات هامة تذكر فيها اسماء ملوك قتبان. إضافة الى ذلك كشف عن مسلة للملك «شهر هلال» تحمل كتابات تتعلق بالأعمال التجارية من بيع وشراء وضرائب.

وفي «حيد بن عقيل» وعلى مسافة كيلومترين شمالي تمنع عثر على مدينةٍ مدفنيةٍ حفرت قبورها في الصخر ومن اللقى نذكر عقداً ذهبياً جميلاً وأدوات برونزية وخرز ومباخر وتماثيل من الألباتر ومنحوتات وكتابات وفخاريات عديدة.

هذه هي تمنع حاضرة قتبان التي يدعوها بلين توماّ (Thomma) ويدعو المنطقة باسم جيبانيت والتي منها كانت تنطلق القوافل حاملة البخور والمر...

حجر بن حميد: تقع عند وادي بيهان (بيحان) على مسافة ١٠ كيلومترات تقريباً جنوبي تمنع. لم يصل العلماء بعد الى تحديد تاريخ أول سكن فيها واختلفت الآراء حولها فمنهم من قال بأنه يعود إلى أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد، ومنهم من قال بأنه يعود إلى عهد قتبان في أوائل القرن الأول ميلادي. أما المعبد الذي تمّ كشفه فيتميز بالأعمدةِ المضلعةِ والباب الحجري الذي يحمل رموزاً دينيةً وبالشواهد الأثريةِ ومنها تاج عامودٍ وآنية من الألباتر ومذابح للبخور وطاولة تقادم ذات حافة مزدانة برؤوس طيور إيبيس، أبو منجل (Ibex أو Ibis)، وهي عصافير بيضاء اللون رأسها ورقبتها

وذيلها سود، كانت مقدّسة عند المصريين لأنها كانت تبيد الزواحف التي تلوث مياه نهر النيل.

شبوة: عاصمة حضرموت القديمة، وحسب بلين كانت تدعى سابّاتا أو سابوتا وكانت تضم داخل أسوارها ستين معبداً وكانت نقطة انطلاق قوافل البخور من حضرموت باتجاه الشمال والامبراطورية الرومانية وامتدت على ثلاث تلال بشكل نصف دائري.

في وسط قرية فقيرة حاليا تنتصب قواعد وأساسات حجرية ارتفعت فوقها أبنية لم يبق من أقسامها العليا المؤلفة من هيكل خشبي وطوب غير مشوي سوى آثار الجسور الخشبيةِ المتفحمةِ والطوب المحترق. هذه الأساسات المرتفعةُ من الحجارة المنحوتة تؤلف المشهد العام وأكبر بناء منها يقع عند المدخل الغربي، ومن الممكن أن يكون هو القصر الملكي، فمن المساكن الملكيةِ من صالحين إلى مأرب أو من غمدان إلى صنعاء هو الوحيد المحفوظ نسبياً. وحسب وصف الحمداني في القرن العاشر ميلادي كان القصر على هيئة بيت ـ برجي مع بعض الملحقات ... وبلغ ارتفاعه عشرون طبقة (طابقاً).

تتقدم بناء القصر باحة مستطيلة تحدها الأروقة المضاعفة من الجهة الشماليةِ والمفردة من الجهتين الشرقية والغربيةِ وقد غطت جدران هذا البناء الرسوم الجدرانيةُ. وقد كشفت التنقيبات عن جزء من الطريق الشمالية ـ الجنوبية للمدينة والتي كان يقوم عند طرفها معبد يصعد إليه بواسطة سلم صرحي. وتدل الآثار على وجود شارع كبير يصل بين المدخل الغربي والمعبد الرئيسي ويظهر عدد من المسطحات على امتداد هذا الشارع وعدد من التجمعات السكنيةِ، كما يحيط سور بالمنطقة السكنية من المدينة وينتهي بالقصر ويمتد شمالاً حتى الحصن المعروف «بحصن هاجر»؟ وهناك جدار آخر تختلف طبيعته عن السور يتسلق حدود الهضاب التي تحمي الموقع من الشمال محدداً منطقة واسعة توجد فيها مناجم الملح حالياً.

هناك سؤال مطروح ينتظر دراسةً تفسره وهو يتناول الرسم الجدرانية الفريدة والوحيدة في الجزيرة العربية التي تمثل أشخاصاً؟ فبعد أن تمكن

الأخصائيون من دراسةِ بقايا الرسوم، رممت ثلاثةً منها، إحداها تمثل شخصاً يمسك حصاناً، والثانيةَ تمثل امرأةِ ترتدي ثوباً طويلاً وتسريحة شعرها معقدةٌ، والثالثةٌ تمثل رأس امرأةٍ سمراء البشرةِ. أما الصفة العامة لهذه الرسوم فهي الخطوط الكبيرةٌ والألوان القليلةٌ ومنها أحمر المغرةّ والبني الغامق، وقد ظهرت البراعةٌ في رسمها، ومبادىء الرسم المتبعة هي مبادىء الرسم في الشرق القديم ومنها المواجهة ويبدو التأثير الهلليني عليها، علماً أن لباس النساء وتسريحة شعرهن ولون بشرتهن محليّ. وهذا ما أربك الأخصائيين وجعلهم يرون تاريخ شبوة تارة مرتبطاً بقلب وادي حضرموت وآخر بعيداً عنه. فهل كانت شبوة عاصمة مملكة حضرموت أم أهم مدينة فيها؟

بعد أن تناولنا بعضاً من أهم المواقع الأثريةِ في الجنوب العربي لا بد لنا من توضيح بعض الاشكالات القديمة ـ الحديثة التي تتناول علاقة الممالك العربية القديمة مع بعضها والتي تشكل حالياً اليمن الشمالية واليمن الجنوبية وذلك من خلال المعطيات الأثريةِ.

لقد كشفت التنقيبات في مواقع مختلفة آثار أبنيةٍ قاعدتها أو أساساتها حجرية أما أقسامها العليا فهي عبارة عن هيكل خشبي مليء بالطوب، وتبين أنها مؤلفة من طبقات ارتفعت فوق هيكل كامل للبناء مكون من جذوع الأشجار، وهذا شيء مستغرب في منطقة تخلو حالياً من الأشجار. ولكن الغرابة تزول عندما نعلم أن هناك غابات، اكتشفت مؤخراً، امتدت على مئات الكيلومترات وتغمرها الرمال والأتربة حالياً، والأغرب من ذلك هو أن الهياكل الخشبية لم تشكل رباطاً يشد الجدران إنما كانت تحمل البناء. وقد كانت الجدران تغلف من الخارج بطبقة من الطين الناعم تارة وأخرى بالحجارةِ. فالحجر كان دليل الغنى. في معين وبراكيش وفي مواقع عديدة من اليمن كتابات تشير الى استخدام الحجر والخشب في الأبنية الدينية والمدنيةِ. اعتمدت هذه التقنيات إضافة الى اعتماد الاتجاه العامودي الذي نجده في بيوت اليمن الجنوبية القديمة وفي بيوت اليمن الشمالية القديمة وهي تشير الى المكانة الاجتماعية المرموقة أو إلى السلطة من خلال نوعيتها وتكاليف بنائها ودورها الذي يحصنه ارتفاعها. والأساسات الحجرية لهذه

البيوت نجد منها في ممالك حضرموت وفي عدد من مواقع ممالك قتبان سبأ ومعين.

أما معابد حضرموت فلها تصميم لا نجده في سبأ أو معين كما أن الإله «سين» لا نجده خارج حضرموت وهل هو نفسه «سابين» المذكور في كتابات بلين والممثل على المسكوكات متوجاً بإكليل مشعع والذي يمكن أن يكون الشمس أو القمر.

أما المعطيات الأثريةِ الأخرى ومنها الخزف فأشكاله متنوعة: جرار، طاسات، كؤوس صغيرة وأسرجة شكلت معظمها بواسطةِ الأيدي أو بواسطة دولاب بطيء الحركةِ، طينتها خشنة استخدم فيها قصار نباتي أو رملي (حجري المصدر) ونادراً ما طليت بلون وردي أو أحمر، لا تحمل رسوماً واقتصرت الزخارف عليها بخطوط مستقيمة أو حزوز متماوجة أو شرائط ملصقة أو نافرة. وبعض الكسرات حملت حروفاً من لغة الجنوب العربي.

لكن أهم الشواهد التاريخيةِ الأثرية هي النصوص، فمن الصعب تأريخ حضرموت القديمة ذلك أن النصوص الحجرية التي جمعت حتى الآن لا تحمل معلومات تاريخية هامة وكلها، عدا نصوص العقلةِ، من مناطق غير بعيدةٍ عن شبوةٍ وتتضمن اهداءات للآلهِ وتعود بتاريخها إلى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. أما النصوص التي عثر عليها في سبأ والتي تعود بتاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد فتؤكد على التغييرات التي طرأت على أراضي اليمن حتى نواحي حضرموت. فقد جمع «مكرب» أو «قريب الوتر»، زعيم من سبأ، إثر حملات عسكرية أراضي مختلفة في اتحاد سبئي، سلماً أو عنوة دخلت حضرموت هذا الاتحاد إثر «تحالف أخوي»، وطبيعي أن يتبع هذا الاتحاد وجود سبئيين تجاراً وموظفين وربما هجرات أو غزوات، ادخل هؤلاء معهم عاداتهم وتقاليدهم سواء كان في الهندسةِ أم في الفنون، ومن الأدلة على ذلك النصوص المحفورة بلهجةِ سبأ واسماء الآلهة السبئية. وقد ظل السبئيون لفترةٍ طويلةٍ يعيشون في حضرموت ويهيمنون عليها. والسبئيون وجدوا في حضرموت شعباً مزارعاً عرف أهمية المجاري المائية

الموسمية واستغلها، وتناقلت قرى الجنوب العربية هذا الاسلوب الزراعي وادخلت عليه بعض الاصلاحات لأن الزراعة أصبحت أول مصدر للثروةِ والارستقراطية كانت تعتبر الزراعة موردها. لكن النصوص لا تشير الى النظام الاجتماعي الذي كان سائداً أو إلى تطور الملكيةِ الفرديةِ للأرض. إنما من خلال النصوص السبئيةِ تمكن بعض العلماء من وصف النظام المجتمعي آنذاك بنظام الأقيال الذين يدينون بالولاء للملوك، و «القيل» لقب حملته أسر تتولى الحكم المحلي على مقاطعة تساندها قبيلة من حملةِ السلاح وملاك الأرض لبسط نفوذها، وقد كان هذا النظام معروفاً في حمير وملحقات قتبان ومن المرجح أن حضرموت عرفته أيضاً.

نقش شعب الجنوب العربي كتابات تجاوز عددها العشرة آلاف نص على الحجر أو البرونز تعالج مواضيع خاصة وتقسم الى أربع مجموعات:

ـ نصوص مدنية تنظم الحياة العامة يصدرها الملك أو القبيلة أو المعبد منها: أنظمة السوق، توزيع الأراضي واستثمارها، تنظيم الري، استعمال برك جماعية، تنظيم حياة القبيلة.

ـ نصوص مدنية تنظم الممتلكات وتتعلق بمناسبة إقامة منشآت أو توسيعها وتحدد في الوقت نفسه حقوق القبيلةِ أو الأشخاص فيها، وقد تكون هذه المنشآت مساكن، استحكامات دفاعية، آبار، سدود مدافن ... وعندما يقوم الحاكم نفسه بتلك الأعمال أو يأمر بها فهذا يعني أنها أملاك عامة.

ـ نصوص دينية تعبر عن الهبات والقرابين والاحتفالات التذكارية كتنصيب ملك جديد، وتكثر في سبأ النقوش المتعلقة بتقديم القرابين وطبيعي وجودها في المعابد وكانت تحفر على القطعِ المقدمة أو على قاعدتها، والجدير ذكره أن بعض النصوص تذكر القرابين البشرية. وهناك نصب مدفنية وشواهد قبور تعبر في مضمونها عن الاعتقاد باستمرار الحياة بعد الموت وكلها كانت على حجر أو برونز.

ـ نصوص تذكارية تمجّد الملك أو الشخصيات الهامة وتعود بتاريخها الى الفترةِ الحميرية أي إلى القرنين الرابع والخامس للميلاد.

ظل الجنوب العربي ينعم بالغنى وظل الأكثر ازدهاراً في الجزيرةِ العربية حتى القرن الأول ميلادي ولكنه تراجع بعد ذلك بسبب الخلافات والحروب بين الحلفاء والممالك المتجاورةِ وظهرت بوادر تدهور الحضارةِ اليمنيةِ خلال القرن الخامس ميلادي وضعفت الدول الحميرية التي زعزعتها الانقسامات الدينية، بعد أن كانت تسيطر في القرن الأول على باقي الممالك.

نعلم شيئاً ونجهل أشياء كثيرة عن الجنوب العربي بشكل عام، خاصة بما يتعلق بالألف الثاني وما قبله (قبل الميلاد) وبالحضارات التي سبقت الممالك التي سبق وذكرناها ونأمل أن تتهيأ الظروف المناسبة لأعمال البحث والتنقيب لتأتي الدراسات المستقبلية بمعلومات أوفر عن تلك البقاع التي حلم بها الأقدمون قواداً وكتاباً.

٢٣ ـ المصريون:

لا نعرف عن حضارات الشعوب القديمةِ بقدر ما نعرف عن الحضارةِ المصريةِ القديمةِ، ويعود الفضل في ذلك الى اللغة والأدب والديانة والفنون على أنواعها التي كانت أيضاً عند باقي الشعوب. ولكن أياً منها لم تحفظ من الآثار ما حفظته لنا مصر بموقعها المميز جغرافياً ومناخها وأرضها التي صانت طوال آلاف السنوات أدق الأعمال البشريةِ وأكثرها عرضة للتلف كالثياب ولفائف البردى ... فما لم تغمره مياه النيل وما لم تدمره يد الانسان صانه رمل الصحراء وجفاف الهواء. أضف إلى ذلك المعتقدات الدينية وحرص المصريين على إقامة المدافن والمعابد القوية البناء والغنية بالزخارف في حين اكتفت الشعوب الأخرى بمدافن ومعابد متواضعة لم تقو موادها في معظم الأحيان على مقاومة العوامل الطبيعية والزمنية المدمرة.

منذ عصر الملك مينيس (Ménès) ـ أواسط الألف الرابع ـ حتى عهد الاسكندر الكبير ومنذ عصر اليونان حتى وصول العرب فيومنا هذا تتوفر المعلومات دون انقطاع عن مصر فنتتبع خلال خمسة آلاف سنة ونيف تغيير اللغة مرة واحدة وتغيير الدين مرتين وتغيير الطبقات الحاكمة إثنتي عشرة مرة.

فكيف حافظ الشعب المصري القديم على معتقداته وتقاليده، رغم كل الظروف التي مرت عليه، وكيف أثرت مصر أو تأثرت بحضارات الشعوب الأخرى؟

كي نفهم الحضارة المصرية والمراحل التي مرت بها لا بد لنا من الاضطلاع على مصادرها التي تمثلت: ١ ـ في العمارة المصرية في المعابد والمدافن وما احتوته من كتابات وزخارف ورسوم ولفائف بردى المكتبات القديمة وأرشيفها والأواني والأدوات ذات الاستعمال اليومي التي كانت توضع مع الميت. هذه كلها إذا ما درست تعطي معلومات مؤكدة ـ شرط مراعاة تاريخها.

٢ ـ في كتب الاسرائيليين التي تحدث عن سيرة وتاريخ الانبياء خاصة موسى ويوسف. ولكنها مصادر لا يوثق كثيراً فيها لأنها محوّرة ومغرضة وكتبت في وقت متأخر.

٣ ـ في علاقات اليونان مع مصر وفي ما كتبه المؤرخون، كهيرودوت مثلاً، علماً أن ما هو مؤكد هو ما شاهده بنفسه وما هو من عهده.

ولكن أهم المصادر هي الأبنية والكتابات التي لا يمكن لأجيال عديدة قادمة حصرها وترجمتها خاصة وأن المكتشفات كثيرة والأكثر منها ما زالت تكتنزها أرض مصر. فقد ظل العالم المصري القديم حتى القرن التاسع عشر ميلادي سراً نقف عنده. واعتبرت أرض مصر أرض الغرائب والعلوم المغلقة والرموز الهيروغليفية الغامضة وفسرت بعد جهود كثيرة بمعانٍ وتعابير لا تمت بصلة لفكر أو لموضوع النص، حتى اعتبر البعض أن عملية فك رموز اللغة الهيروغليفية مضيعة للوقت، إلى أن جاء نابليون مصر سنة ١٧٩٨م. وكلّف مجموعة من العلماء دراسة الآثار المصرية. وفي آب سنة ١٧٩٩ م. عثر على حجر بازلتي ، «حجر الرشيد» أو «حجر الروزيت» (La Rosette)، وجهه الأمامي حمل ثلاث كتابات نقشت بثلاث لغات في القسم الأعلى منه هيروغليفية، وفي الأوسط ديموتيكية (مصرية شعبية)، وفي الأسفل يونانية. وتبين من خلال النص اليوناني أنه مرسوم صادر عن الكهنة، تكريماً لبطليموس إبيفانوس، وان هذا النص يجب أن ينشر بالكتابة المقدسة

الهيروغليفية وبالكتابة الشعبية الديموتيكية وبالكتابة اليونانية. وكان اسم بطليموس الذي أحيط بإطار محدد مفتاح اللغة الهيروغليفية. فقد تمكن توماس يونغ سنة ١٨١٩ تحديد بعض الأصوات لبعض الرموز (الصور) التي تؤلف اسم بطليموس، وبعيداً عن يونغ عمل فرنسوا شامبليون وتوصل في نفس الوقت إلى ما توصل إليه يونغ. وهكذا تدريجياً توصل العلماء إلى حلّ رموز اللغة الهيروغليفية التي لم تكن كلها تعبر عن الافكار إنما كانت تعبر أيضاً عن الأصوات مثلها مثل باقي الكتابات.

إن أرض مصر المؤلفة من وادي النيل وواحات الصحراء الليبية كانت آهلة بالسكان منذ العصور الحجرية، وتقسم طبيعياً إلى قسمين مختلفين عن بعضهما من حيث المناخ وطبيعة الأرض. القسم الشمالي من وادي النيل أو الدلتا، أمطاره وفيرة ومناخه رطب وأرضه فسيحة وسهلة، ويطلق عليه اسم مصر السفلى؛ أما القسم الجنوبي، فيقتصر على مجرى وادي النيل والأراضي الموازية له ومساحاتها ضيقة، مناخه جاف ويعتمد على مياه النيل في ري الأراضي التي بذل المصريون القدامى أقصى جهودهم لتوفيرها فحفروا لها القنوات وأنشأوا الخزانات، ويطلق عليه اسم مصر العليا.

ودراسة المراحل التاريخية التي مرت بها مصر قديماً تعتمد طريقتين:
١ ــ تعتمد نهج مانيتون (Manéthon)، الكاهن المصري، الذي كتب تاريخ شعبه باللغة اليونانية (أيام بطليموس الثاني حوالي سنة ٢٨٠ ق.م.) وفيه قسم تاريخ مصر حسب السلالات التي بلغ عددها ثلاثون سلالة، ابتداء من «نارمير» الذي يدعوه مانيتون «مينيس» حتى عهد الاسكندر الكبير.

٢ ــ تعتمد الطريقة الحديثة في تقسيم تاريخ مصر الى ثلاث مراحل رئيسة: مرحلة الامبراطورية القديمة، مرحلة الامبراطورية الوسطى، مرحلة الامبراطورية الحديثة. وتفصل كل مرحلة عن الأخرى فترة انحطاط سياسي وثقافي، وإضافة الى هذه المرحلة هناك المرحلة الآرخية التي تعود إلى أوائل عصر ما قبل التاريخ، والمرحلة المدعوة مرحلة سييت (Saïte). نسبة الى

مدينة «Saïs» في الدلتا التي كانت مقر حكم ملوكها وفيها نهضت مصر نهضة أخيرة بعد فترة من الهيمنة الغربية التي تلت عهد الامبراطورية الحديثة.

ويمكن جمع الطريقتين تأريخياً كما في الجدول التالي:

المرحلة الأرخية	حتى عصر السلالة الثانية	حوالي ٢٩٠٠ ق.م.
الامبراطورية القديمة	من السلالة الثالثة حتى السادسة	حوالي ٢٩٠٠ ــ ٢٥٥٠ق.م.
الامبراطورية الوسطى	من السلالة التاسعة حتى الثانية عشرة	حوالي ٢١٦٠ ــ ١٧٨٠ق.م.
الامبراطورية الحديثة	من السلالة الثامنة عشرة حتى السلالة عشرين	حوالي ١٥٨٠ ــ ١١٠٠ق.م
مرحلة السيبت	السلالة السادسة والعشرين	حوالي ٣٦٦ ــ ٥٢٥ق.م.

إن المدافن المصرية القديمة والتي تعود الى العصور الآرخية تشهد على أن المصريين كانوا على مستوى ثقافي راقٍ، فمن الناحية التقنية تمكنوا من تطويع العناصر الطبيعية المحيطة بهم. فقد كانوا يصيغون بمهارة الصخور الصوانية الصلبة، وفن نحت الخشب والعظام والعاج وطلاء الآنية الفخارية بالميناء كان أليفاً لديهم. ونصل الى المراحل التاريخية من خلال المدافن الملكية التي اكتشفت في أبيدوس والتي سمحت كتاباتها تحديد تاريخها الأكيد. وبدأت سلسلة المعلومات تزداد مع اكتشاف مدفن مينيس الذي تشير إليه النصوص فيما بعد على أنه «موحد الأرضين» أي مصر العليا ومصر السفلى. وقبل مينيس كان هناك ملوك «حوروس» (Horus)، هؤلاء لم يبسطوا سلطتهم على كل البلاد وتزامن حكم بعضهم على مصر العليا مع حكم البعض الآخر على مصر السفلى. وهذا التقسيم القديم لبلاد مصر ظل قائماً طوال تاريخها القديم. وقد عرفت مصر قبل الملوك الحوروس ١٩ ملكاً لمصر السفلى، ويظهر أن الحضارة المصرية انطلقت من مصر السفلى نحو مصر العليا، لذا نجد أن أقدم المراكز الدينية تقع في هيليوبوليس وبوزيريس في مصر السفلى. والدلائل تشير على وجود مدن كانت تشكل إمارات منفردة اتحادها شكل الممالك اللاحقة.

مينيس وخلفاؤه من السلالة الأولى والسلالة الثانية أقاموا في مصر العليا في مدينة تيس (This)، أو تينيس (Thinis) على الضفة اليمنى لنهر النيل

مقابل أبيدوس التي كانت مدينتها المدفنية، وحسب الكاهن المؤرخ مانيتون إلى هذه المدينة يرجع أصل مينيس الذي وحّد مصر في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، ولهذا يطلق اسم تينيت (Thinites) على أول سلالتين حكمتا مصر بين سنة ٣٢٠٠ ق.م. و ٢٨٠٠ ق.م. تقريباً. ويظهر أن ملوك هاتين السلالتين أصلهم من هيراكو نبوليس، ففي مدافن أبيدوس (Abydos) عثر على قبور أول ملوكهم وحاشياتهم. ويبدو أن منطقة ممفيس إعتبرت منذ عهد أول سلالة المقر الملكي. و «الجدار الأبيض» الذي منه خُلقت ممفيس يعود دون شك إلى مينيس. وأول ثلاثة ملوك من السلالة الثانية دفنوا في صقارة (Saqqarah) قريباً من مكان إقامتهم، حيث عثر أيضاً على قبر قد يكون لـ «آحا» (Aha) أول ملك لهذه السلالة.

ونكتشف منذ هذا العصر الملامح الأولى للتركيبة الاجتماعية في الامبراطورية القديمة، الملك الممثل لحوروس له صفات إلوهية يحكم بمساعدة عدد من الموظفين. والحكم المزدوج للدلتا ولمصر العليا في عهد الامبراطورية القديمة يظهر بوضوح، وبامكان الملك إدارة شؤو ن المملكة دون مساعدة الوزير، هذه الوظيفة التي لا تظهر إلا في عهد السلالة الثالثة، أما المرشحون لحكم المقاطعات فهم الذين كانوا يحفرون القنوات.

من الناحية المعمارية نجدهم يستعملون الفخار ومدافنهم كانت عبارة عن مصاطب بدائية. وفن النحت الغير النافر انتج تحفاً نجدها ممثلة على بعض النصب وإلى عهد السلالة الثانية يعود تاريخ أقدم التماثيل الملكية. أما الفنون الصغرى فدلّت على مهارة الحرفي. والأواني المنزلية كانت تصاغ من الحجارة المتنوعة وتأخذ أشكالاً مختلفة. وبالتالي فإن الكتابة الهيروغليفية التي ظهرت في أوائل هذه المرحلة وصلت إلى شكلها النهائي وهي غنية بالمستحدث وبالوعود التي تبنتها الامبراطورية القديمة والتي شهدت اكتمال بذور المرحلة التينية.

إن الاندفاع في اعمال البناء الذي ميّز الشعب المصري في كل العصور أخذ في عهد الامبراطورية القديمة أهمية كبرى فنجد الامراء يحملون بفخر صفة «رئيس أشغال الملك». كما نجد جذوره منذ عهد الملك جوسر (Zoser)

الذي إليه يعود هرم صقارة المدرج، وفي أيامه انتقل مركز الحكم بشكل دائم الى شمالي البلاد، إلى منطقة القاهرة حالياً. واستقر هناك طوال عهد الامبراطورية القديمة. ملوك هذه الفترة كانوا أقوياء وأبنيتهم المدفنية الضخمة «الأهرام» أصبحت شعار مصر، في حين لم يبق إلا الآثار النادرة لباقي أبنيتهم. وهذا ما جعل اسم «مرحلة الأهرام» يطلق على هذه الفترة. وقد اشتهر ثلاثة ملوك من السلالة الرابعة بأبنيتهم المدفنية والمعروفة بأهرام الجيزة، وهم: خوفو، خفرن، ومنقورع.

ويعود الفضل للمهندسين المصريين القدماء، في ما نعرفه عن الامبراطورية القديمة، لأنهم أغنوا المدافن الخاصة التي أحاطت الأهرام بمنحوتات تصور الحياة المليئة بالطرافة والحيوية.

وصلت الامبراطورية القديمة إلى أوج تطورها في عهد السلالة الخامسة، ملوكها كرّموا بشكل خاص «رع» الإله الشمسي، واعتبروا أنفسهم ابناءه وأقاموا له المعابد العظيمة. وبقايا المنحوتات المطلية بألوان متعددة والتي زينت جدران المعابد تروي قصة انتصار الملك على جيرانه في ليبيا وتصور لنا المراكب الرائعة التي كانت تستخدم في التجارة مع منطقة لبنان وتعطينا تفسيرات قيمة لمشاهد القبور الخاصة التي تعود الى نفس الفترة الزمنية.

ومن المستغرب أن الصورة التي يعطيها مصريو الامبراطورية الحديثة عن الامبراطورية القديمة هي أنهم كانوا ينسبون كل أعمالها إلى أحد ملوكهم، بينما نجد ملوك مرحلة السييت يعتبرون الامبراطورية القديمة أرقى وألمع مرحلة لمصر. وفي المرحلة المتأخرة عامة الشعب والرحّالة اليونان صوّروا مرحلة بناء الأهرام مرحلة كانت فيها الطبقات الدنيا من الشعب منهكة بأعمال السُخرة. أما بالنسبة لنا اليوم فنرى عهد الامبراطورية القديمة مليئاً بالحيوية والشباب والانفتاح غير المحدود الذي يمثله الفن الواقعي في لوحات المدافن والفنون التشكيلية الأخرى والتماثيل. فتمثال الكاتب، وتمثال مختار القرية، وتمثال خفرن كلها تشهد على الحيوية والحركة المباشرة والعفوية التي يعجز عن التعبير عنها الفنانون المعاصرون.

في أواسط عهد السلالة الخامسة بدأت طبقة النبلاء بالوراثة بالاستقلال والتخلص تدريجياً من سلطة الملك، وحتى هذه الفترة كان الأشخاص المميزون طبقياً يدفنون قرب الأهرام. فاصبحوا يفضلون بناء مدافنهم في مكان منشئهم الأصلي متخلين عن فكرة الاقتراب من الملك، حتى في حال الموت، وهذا مؤشر الى بدء انحطاط عهد الامبراطورية القديمة.

وفي عهد السلالة السادسة شُنّت حملات ضد الآسيويين الغزاة وطوردوا حتى داخل فلسطين. كما بدأت الحركات الانفصالية داخل الدولة في عهد آخر ملك لهذه السلالة فيوبس الثاني (Phiops II)، الذي حكم ٩٠ سنة. ونتيجة فقدان الملك لسلطته شهدت القرون التالية تفتت الدولة إلى إمارات. ولم يبق الكثير من الأبنية الأثرية لهذه المرحلة الفوضوية التي تشكل تواصلاً للسلالة السادسة.

في آخر هذه المرحلة نشأت في طيبة (Thèbes)، في مصر العليا سلالة جديدة هي السلالة الحادية عشر، ومعها يبدأ عصر الامبراطورية الوسطى وهو عهد ازدهار جديد لمصر.

ظلت طيبة طوال ألف عام تقريباً (٢٠٨٠ ـ ١٠٨٠ ق.م.) عاصمة مصر التي أشعت على كل أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية. لا نعرف الكثير عن طيبة البدائية ولكن طيبة المدينة الكبيرة تكونت بتوحيد عدة مدن صغيرة وهي: الكرنك (Opet-Souet)، الأقصر (Opet-Sud) أواسيت (Ouaset)، ميدامود (Médamoud)، ارمنت (Ermant)، تود (Tôd)، قصر آمون (Het-Amon)، مدينة آمون (Nout-Amon)، توزعت هذه المدن عند ضفتي النيل وبعضها يعتبر من ضواحي طيبة. أما المدينة المدفنية الطيبية فكانت على الضفة الغربية لنهر النيل وفيها: دير البحري، دير المدينة، مدينة حبو، رعمسيوم، وادي الملوك والملكات وكانت تدعى أواسيت (Ouaset) الغربية. وفيها نجد أقدم الشواهد على أهمية طيبة.

إلى ملوك طيبة يعود الفضل في إعادة توحيد مصر، خاصة إلى آخر أفراد السلالة الحادية عشر منحوتب (حوالي ٢٠٨٠ ق.م.) الذي حكم مصر بكاملها، وبفضل ملوك السلالة الثانية عشر أصبح «آمون» إله طيبة ومن ثم الدولة، وعندما استلم الحكم أول ملك من هذه السلالة امنمحات الأول عبر البلاد محارباً وفارضاً العدل وواضعاً حدود المدن مشعاً كالإله آتون نفسه. نجحت أعمال ملوك السلالة الثانية عشر في إعادة تنظيم البلاد وحمل معظمهم اسم امنمحات أو سيزوستريس (Sésostris) ونشطوا أعمال البناء فأقاموا ليس فقط المدافن إنما أيضاً المعابد المخصصة للآلهة، وقد عثر في طيبة ودندرة وتانيس وبوباست وفي مناطق أخرى كثيرة على العديد من المواقع المقدسة التي تعود إلى عهد الامبراطورية الوسطى. وقد أقام الملوك تارة في ضواحي دهشور جنوب ممفيس وأخرى في الفيوم، وفي هذه الأخيرة بنى امنمحات الثالث هرمه ومعبداً مدفنياً ضخماً بالقرب منه ومع الأسف لم يبق منه اليوم أي أثر يذكر.

إن النهضة الداخلية التي شهدتها البلاد خلال هذه الفترة أدت إلى زيادة في السلطة وفي بسط الهيمنة الخارجية فتوجه المصريون نحو النوبة، جنوباً، طمعاً في ذهب صحرائها من جهة ولفتح الطريق الى السودان من جهة أخرى. وقد تمكن سيزوستريس الثالث من إقامة مراكز دفاعية حدودية قرب سمنه (Semné) في قلب البلاد النوبية بالذات. وتحوتمس الثالث وبعد مرور خمسة قرون رأى أن من واجبه إقامة معبد تخليداً لذكرى سلفه الكبير والذي إليه يعود الفضل في فتح بلاد النوبة.

لم يحكم ملوك الامبراطورية الوسطى بسلطة مطلقة كمن سبقهم، إذ أن الاقطاع لعب دوره وفرض سلطته إلى جانب سلطة الملك. وقد تلى ملوك هذه الامبراطورية ملوك لم يتركوا آثاراً معمارية وعمت عهدهم الفوضى السياسية والنزاع على العرش مما أدى إلى تقسيم الامبراطورية وضعفها واصبحت، بالتالي، مصر فريسة القوى الغريبة التي هاجمتها، آتية من آسيا الصغرى ومتجهة نحو الجنوب والغرب، والمدعوة هيكسوس (Hyksos).

يحدثنا مانيتون، الكاهن والمؤرخ المصري، أنه أيام تيماوس (Timaos، المجهول الهوية) استولى شعب مجهول، أتى من الشرق، على مصر فقتل امراءها واحرق مدنها وهدم معابدها وذبح قسماً من ذكور شعبها وجعل النساء والأطفال عبيداً له. ملكهم سالاتيس (Salatis) أقام في ممفيس وفرض الضرائب على امراء مصر العليا وحصن الحدود مخافة أن يهاجمه الأشوريون. وفي المنطقة الشرقية من الدلتا أعاد بناء وتحصين مدينة أفاريس (Avaris) وأنشأ مركزاً عسكرياً مسلحاً بقوة مؤلفة من ٢٤,٠٠٠ أو ٢٤٠,٠٠٠ مقاتل؟ هذا الشعب الغازي كان يدعى هيكسوس ومعناها «الملوك الرعاة»، هيك (Hyk) في اللغة المقدسة تعني ملك وسوس (Sos) تعني راعي.

ويبدو أن هذا الشعب كان عبارة عن قبائل استطاع أحد شيوخها فرض سلطته على باقي القبائل واحتلال مصر السفلى بعد أن خلعَ آخر ملوك أو فراعنة السلالة الرابعة عشر وذلك حوالي سنة ١٧٣٠ ق.م.. وقد أمكن تحديد هذا التاريخ من خلال نصب يقال له نصب «سنة الاربعمئة» عثر عليه في أفاريس ومقدم للملك في ذكرى عصر من عصور معبد ربما كان للملك ـ الإله «ست» (Seth) رمز الصحراء عند المصريين، وقد عبد هذا الإله أساساً في مناطق الجنوب المصري واصبح إله سلالات الهيكسوس. وبشكل عام كان الهيكسوس ساميين أتوا من فلسطين وتدل على ذلك الجعلان التي تحمل اسماء سامية، وهجرتهم الى مصر ترتبط تاريخياً بالهجرات التي سببتها في آسيا غزوات الشعوب الهندو ـ أوروبية وتمركز الحوريين في انحاء آشورية والكاشيين في بابل.

تمصّر الهيكسوس بسرعة ولكنهم لم يكتفوا باعتماد اللغة والكتابة المصرية فقد أعادوا صياغة العديد من الأعمال النحتية التي تعود الى عهد الامبراطورية الوسطى ونقلوا أعمال العصور السابقة خاصة الفنون الصغرى واستخدموا بكثرة الجعلان ـ الاختام المحض مصرية، وأعادوا نسخ الأعمال الأدبية التي تعود إلى عصر الامبراطورية الوسطى. ولكن بعض المظاهر الحضارية تنسب إليهم، مثل خزف «تل اليهودية» وهو خزف مزخرف بالحزوز والنقاط والعناصر الهندسية أو الصورية على أساس بني أو أحمر أو

رمادي مصقول، كذلك التحصينات في فلسطين وسوريا والمعروفة باسم «قلاع الهيكسوس».

ومن أهم ملوك الهيكسوس خيان (Khyan) الذي حكم في القرن ١٧ ق.م. والذي عثر على شعاره، على أسد في بلاد ما بين النهرين (على جدار في بغداد)، وعلى إناء من الألباتر في كنوسوس، وعلى جُعل وطبعة ختم في فلسطين وعلى عنصر بنائي في مصر العليا. وقد بنى البعض على هذه الشواهد فكرة أن يكون الهيكسوس قد حكموا المناطق الممتدة من الفرات الى النيل ومن كريت إلى النوبة. والحقيقة أن الهيكسوس لم يحكموا إلا على شمال وادي النيل وجزء من فلسطين ولكنهم فرضوا الضرائب على بعض امراء مصر العليا.

ومن طيبة، مرة أخرى، بدأ احياء الامبراطورية، ففي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد نهض امراؤها، الذين ظلوا يحكمون هذه المنطقة من مصر العليا والذين شكلوا السلالة السابعة عشر، يحاربون الهيكسوس ويعملون على استرجاع الأراضي الوطنية، وتابع أموزيس (Ahmosis) مؤسس السلالة الثامنة عشر حروب أسلافه وطرد الهيكسوس من حصنهم في أفاريس وتوغل شرقاً حتى جنوبي فلسطين، هذا التوغل كانت نتائجه عظيمة: إنه أول خطوة ستعتمدها فيما بعد ولعدة قرون السياسة المصرية، فمع أموزيس يبدأ عهد الامبراطورية الحديثة، عهد الفتوحات. فقد حمل الملوك المصريون سلاحهم حتى الفرات ووصلوا إلى أقاصي السودان، وأثبتوا أن مصر قوة عالمية. وكانت لهذه الحالة الجديدة نتائجها، فقد اضطلع المصريون على حضارات الشعوب الأخرى وقدروها، حتى أنهم اعترفوا بعبادات الشرق كعبادة بعل وعشترت، كما أدخلوا الكثير من الألفاظ الكنعانية إلى لغتهم. أما النوبة (Nubie) فقد اصبحت مقاطعة مصرية على رأسها حاكم يحمل لقب «الابن الملكي لنوبة» (أو الابن الملكي لكوش) وكان يعتبر من أهم الشخصيات في عهد الامبراطورية الحديثة.

وتحوتمس الأول ابن أمينوفيس الأول عدا عن حملته على النوبة شن حملة

أخرى على جيرانه في الشمال فاخضع فلسطين بكاملها ووصل الى بلاد ما بين النهرين وأقام نصباً تخليداً لانتصاره شرقي الفرات، ولكن خلفاءه تحوتمس الثاني واخته حتشبسوت لم يكملوا أعمال والدهم فضاع الانتصار من جديد. وحتشبسوت كانت الملكة الوحيدة التي استمرت فترة طويلة على عرش مصر كانت تفضل الحكم الهادىء على النصر العسكري، واقتصر عملها خارج الحدود على ارسال حملة إلى بلاد البخور، على البحر الأحمر. ولكنها انطلقت تشجع البناء وأقامت لنفسها معبداً مدفنياً في دير البحري، من الجهة الغربية لطيبة، وقد كان الشخص المفضل لديها «سنموت»، الذي نجد على تمثاله، الموجود في متحف برلين، كتابة مفادها أنها جعلته كبيراً أمام الأرضين ودعته رئيس الرؤساء ومدير المدراء لأعمال مصر كلها.

أخيراً تحوتمس الثالث ـ زوج حتشبسوت ونصف أخ لها ـ أصبح ملكاً بعد موت حتشبسوت وكان أول ملك شن ١٧ حملة خلال ١٩ سنة على سوريا وأخضعها وأعاد لمصر هيبتها وسيطرتها فاعترفت به بلاد بابل وآشور وقيليقية وقبرص وارسلت له الهدايا. ونجد في كتاباته ذكر ملك الحثيين الذي احتل تحوتمس عاصمته قادش خلال حملته السادسة. وفي نهاية حكمه كانت مصر تبسط سيطرتها من سوريا الشمالية والفرات الأعلى حتى النوبة عند الشلالات الرابعة للنيل.

وقد تميز تحوتمس الثالث كبناء فقد استخدم الأسرى كأيدي عاملة، واعترف خلفاؤه بفضله على مصر حتى أن بعضهم اعتمد اسمه باعتزاز واصبح رمز الحظ السعيد. ومومياؤه تدل على أنه كان قصير القامة أما أعماله فقد خلدته وكبّرته.

أهم خلفاء تحوتمس الثالث كان أمينوفيس الثالث وقد عرف حكمه الذي دام ٣٦ سنة الهدوء والاستقرار وبلغت البلاد في عهده من الغنى والازدهار ما لم تشهده سابقاً. فالعمارة والنحت والرسم والحرف الفنية أعطت أعمالاً بالغة الاتقان والجمال.

ولكن أمينوفيس الثالث لم يكن رجل حرب وسياسة كجدوده وأهمل مراقبة المقاطعات السورية ولم يزرها خلال فترة حكمه سوى مرة واحدة، أضف إلى ذلك فقد وجد السوريون في الحثيين أنصاراً لهم، مما ساهم في انهيار السلطة المصرية تدريجياً، وتوفي قبل أن يشهد هذا الانهيار. وابنه أمينوفيس الرابع، عوض أن يقمع الثورات السورية العلنية على مصر، خلق أزمة داخلية في بلاده في إعلانه ثورة دينية ضد الآلهة القديمة وعلى الأخص ضد إله طيبة آمون ولصالح آتون، أي الشمس، التي رأى فيها الآلهة الوحيدة وترك طيبة، التي تغنى بها شعراء أيونية، وأسس بعيداً عنها في الشمال مدينة جديدة، «العمارنة»، وعاش بقية حياته حاملاً اسماً جديداً هو «أخناتون» أي «مُحَبب آتون».

لم يخلف أمينوفيس الرابع أو أخناتون وريثاً ذكراً فخلفه صهراه، ثانيهما «توت عنخ آمون» تصالح مع كهنة آمون وعاد إلى طيبة، وبه تنتهي السلالة الثامنة عشر. أما السلالات التاسعة عشر والعشرون فقد أعادت لمصر جزئياً هيبتها وحاولت العمل على عدم انهيارها الكلي. «حار محب» أول ملوك السلالة التاسعة عشر لم يترك حجراً على حجر من الأبنية التي شيّدها أخناتون. ووجد خلفاؤه صعوبة في إعادة فرض سيطرتهم على سورية التي اصبحت خاضعة للحثيين. وقد تابع رعمسيس الثاني الصراع ضد الحثيين وانتهى أخيراً الى عقد معاهدة سلام مع ملكهم خاتوسيل (Khattousil) الذي زار رعمسيس الثاني وقدم له ابنته التي اصبحت من أهم زوجات الملك المصري.

دام حكم رعمسيس الثاني ٤٦ سنة أقام خلالها العديد من المعابد التي توزعت من تانيس حتى داخل النوبة، وأهمها في الجنوب معبد «أبو سمبل». وقد نقل مقره من طيبة الى شرقي الدلتا، إلى مدينة جديدة تدعى «بيت رعمسيس». وقد مات معظم أولاده في أيام حياته وعند مماته خلفه ابنه الرابع عشر «منفتاح»، وبعد وفاة هذا الأخير عمت الفوضى مصر حتى مجيء رعمسيس الثالث أول ملك من السلالة عشرين وقد أعاد مصر إلى ما كانت عليه أيام رعمسيس الثاني وانتصر على الليبيين وواجه شعوب

البحر، التي وفدت من البر على عربات تحمل الأطفال والنساء والحاجيات... ومن البحر على متن سفن كبيرة، وغلبها.

خلفاء رعمسيس الثالث كانوا أدوات في أيدي رؤساء الكهنة والمرتزقة الغرباء وانقسم الحكم في مصر من جديد ففي الجنوب حكمت السلالة الحادية والعشرين وفي الشمال سلالة من امراء تانيس.

حوالي سنة ٩٤٥ ق.م. وصل الليبيون إلى السلطة بملك كبير هو «شوشنك» واعتباراً من هذه الفترة اصبحت مصر ليبية، فالحكام في المدن ليبيون وكذلك كبار كهنة طيبة وممفيس. وتدخل شوشنك في فلسطين ولكنه لم يتمكن من فرض سيطرة مصر عليها كما في السابق. والملوك الليبيون يشكلون السلالة الثانية والعشرين التي استمرت حاكمة طيلة قرنين تقريباً. وخلال هذه الفترة لجأ مؤيدو السلالة القديمة المقدسة الى النوبة وكونوا مملكة مستقلة.

سنة ٧٢٨ انطلق الملك شاباكا من عاصمة النوبيين ناباتا (Napata) ليحرر أرض الفراعنة من الغرباء واستطاع استعادة مصر بكاملها ويعتبر مؤسس السلالة الخامسة والعشرين، المسماة النوبية أو الأثيوبية، وحاول التوجه إلى سوريا غير أنه اصطدم بالجيش الأشوري الذي تصدى له.

وهكذا بدأ الصراع بين الامبراطورية الآشورية والمصرية ــ النوبية وكانت ساحة المعارك في سوريا. ولكن أيام اسرحدون دخل الأشوريون مصر واحتلوا البلاد حتى طيبة، واصبح امراء المدن المصرية إقطاعاً عند الملك الآشوري. وفي سنة ٦٦٣ ق.م. أضحت مصر بكاملها مقاطعة آشورية و لم تستمر كذلك سوى فترة وجيزة ففي السنة نفسها تمكن بسمّاتيك (Psammétique) الليبي الأول من حكام سايس (Saïs) بمساعدة المرتزقة اليونان والكاريين من طرد الأشوريين من مصر، وهو مؤسس السلالة السادسة والعشرين. وقد شجع ملوك هذه السلالة اليونان على الهجرة إلى مصر وعملوا على إعادة فرض الانظمة المصرية القديمة وحاولوا العودة وتقليد الامبراطورية القديمة في كل شيء والنهوض بمصر مجدداً، لكن اعمالهم، خاصة فنهم، أتت مصطنعة لا حياة فيها.

لم يدم استقرار مصر قرناً من الزمن حتى هاجمها قمبيز الفارسي سنة ٥٢٥ ق.م. فهوت من الصدمة الأولى واصبحت مقاطعة فارسية. وقد جرت محاولات عدة للنهوض باءت كلها بالفشل، وأخيراً سقطت أمام الاسكندر المقدوني، وعندما توفي وتجزأت امبراطوريته استلمها بطليموس، أحد قادة الاسكندر، سنة ٣٢٣ ق.م. واصبح حاكماً عليها.

بطليموس، المدعو سوتير (Sôter) أي المخلص، ابن لاغوس (Lagos) المقدوني، اعلن نفسه فيما بعد ملكاً على مصر، مؤسساً بذلك سلالة البطالسة أو اللاجيد (Lagides)، نسبة إلى والده، واتخذ من الاسكندرية عاصمة لملكه فازدهرت في أيامه، وأهم عمل قام به هو جعلها مركزاً ثقافياً مؤسساً فيها المكتبة الشهيرة «مكتبة الاسكندرية».

توارث البطالسة (أو اللاجيد) عرش مصر (من أب إلى ابن) وحملوا كلهم اسم «بطليموس» وجعلوا من مصر بلداً مزدهراً ومتطوراً وأحد أقوى القوى في العالم القديم. وقد تنازعوا مع السلوقيين فلسطين وتدخلوا كثيراً في شؤون اليونان وآسيا الصغرى. وتنتهي سلالتهم مع الملكة كليوباترة التي استطاعت بوحدتها مع ماركوس أنطونيوس أن تضفي على المملكة بريقاً لم تشهده الممالك الأخرى المعاصرة لها. ولكن معركة أكتيوم (Actium) التي خسرتها كليوباترة وحليفها أمام أوغسطس جعلت مصر جزءاً من الامبراطورية الرومانية وذلك سنة ٣٠ ق.م.

رغم أن البطالسة أعطوا الحكم صفة هللينية وأن اللغة اليونانية اصبحت اللغة الرسمية فإن العادات والتقاليد المحلية ظلت معتمدة ولم يطرأ عليها تغيير يذكر. ورغم أن بعض المدن أخذت مظهراً يونانياً وبنيت فيها مبانٍ من الطراز اليوناني، كالمعابد، فقد استمر البناء على النمط المصري، وإلى عهد البطالسة يعود تاريخ العديد من المعابد الفرعونية الكلاسيكية، ومن بين هذه الأبنية الأكثر محافظة: دندرة، أدفو، كوم أمبو. وقد أنشأ البطالسة عدداً من المرافىء: هيروبوليس وبيرنيسي، ومراكز صيد على شواطىء البحر الأحمر، حتى عند مرتفعات باب المندب. كما أقاموا مراكز ربط تجارية بين مرافىء القرن الأفريقي والهند.

ظل التأثير اليوناني واضح المعالم في مصر حتى العهد الروماني، و لم يتخلَ الشعب المحلي عن الكتابة الهيروغليفية المرتبطة بالعادات والتقاليد الدينية الفرعونية إلا في العهد المسيحي.

لو عدنا إلى العصور الآرخية المصرية وحاولنا متابعة تطور الفنون حتى العصر الروماني لوجدنا أن الفن المصري في جميع مراحله يشكل وحدة متكاملة وذاتية تعبر عن عالم ظل مجهولاً لفترة طويلة ـ قياساً مع فنون العالم القديم الأخرى ـ ذلك أن الفن المصري في غرابته وجماله يبقى بعيداً عن التقليد. ولا نزال حتى يومنا هذا نحاول سبر أعماقه وكشف أسراره، وأوضح دليل على ذلك سر التحنيط الذي لم يتمكن العلماء رغم جهودهم الحثيثة والمتواصلة ورغم التقنيات العلمية الحديثة من التوصل إليه كلياً.

والمصريون مثلهم مثل الشعوب القديمة آثارهم تحكي قصة واقعهم الحضاري المتمثل في عمارتهم الدينية والمدفنية والمدنية وما احتفظت به من شواهد فنية تمثل التطور الحضاري عند شعب كانت له خصوصيته الكامنة في الوحدة التجريدية الواقعية. ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نلقي نظرة ولو سريعة على ملامح بعض من كل، لو أردنا الغوص في تفاصيله لتطلب منا مجلدات نظراً للغنى الحضاري ولوفرة الشواهد الأثرية.

إن الرسوم والمنحوتات المنوعة الأساليب والمواضيع والتي تغطي جدران المدافن والمعابد تعبر أفضل تعبير عن حياة المصريين القدماء سواءً كان من الناحية الاجتماعية أم السياسية أم الاقتصادية أم الدينية ... والميزة الرئيسة التي رافقت الفنون المصرية القديمة تكمن في تمثيل الأشخاص إما مواجهة وإما جانبياً وفيما بعد تميز الملك وموظفوه بتصوير الجسم مواجهة أما الرأس فجانبياً و لم يحاول المصريون العمل على تطبيق البعد النظري في رسومهم ولكنهم تجنبوا التقاء الخطوط محافظة على الوضوح في الرسم. فإذا كان أحد الأطراف متقدماً على الآخر يظهر أبعد بالنسبة للناظر، وإذا كان الوجه يتجه نحو اليمين فتتقدم الأطراف اليسرى على باقي الجسم وتظهر الأكتاف مواجهة، ومع أن الوجه كان يصور جانبياً فالعين تظهر مواجهة (بكاملها).

وحفاظاً على هذا المبدأ لم يهتم الفنان المصري فيما قد ينجم عن ذلك من أخطاء. كأن يظهر إبهام اليد في غير موضعه، أو في تصوير الجسم كصورة معكوسة نسبة الى اتجاه الرأس، وأن يصور الأقرب من البصر في أسفل اللوحة والأبعد في أعلاها. وأن يصور الملك أكبر حجماً وقياساً من الأشخاص الآخرين الممثلين في اللوحة، وكلما تدنت قيمة الانسان الاجتماعية كلما صغر حجمه نسبة الى الآخرين. أضف إلى ذلك فقد توزع موضوع المشهد الى حقول تفصل بينها خطوط أفقية أو عامودية.

في عهد الامبراطورية الحديثة تطور الرسم والنحت فاختفت بعض الخطوط التي تحجبها أقسام الرسم الأخرى وبدأ البعد النظري يُراعى، وتزامنت هذه المرحلة من التطور الفني مع ثورة أخناتون الدينية وحاولت اعتماد التصوير الواقعي ـ الطبيعي، وبرز هذا التطور خاصة في تصوير الفرعون وعائلته لكن الموظفين والخدم ظلوا يصورون بقياسات أصغر، وفي الوقت نفسه ظل البعض المعارضين لثورة أخناتون الدينية والاجتماعية محافظين على الأساليب القديمة دون أي تغيير. وتدريجياً اتجه الفن نحو الواقعية واصبح الموضوع يشكل وحدة متكاملة لا تفصل بين أجزائه الخطوط الأفقية أو العامودية التي كانت توزعه الى حقول كما في العصور السابقة.

وفن النحت، في مبادئه العامة اتبع نفس مبادىء الرسم، وقد اعتمده المصريون منذ العصور البدائية في تصنيع أدواتهم وأغراضهم، فنحتوا الخزف والخشب والعاج والحجر فنجد حتى أرجل الأسرة والمقاعد قد نحتت بشكل قوائم الحيوانات (أسد، بقرة ...). أما التماثيل قد كانت تطلى بالألوان مثلها مثل باقي المنحوتات ما عدا التماثيل التي صنعت من حجارة صلبة جداً وذات بريق جميل، ووحدها تماثيل الأطفال كانت تظهر العري. كما صاغوا تماثيل خشبية غلّف بعضها بالأوراق النحاسية المثبتة بمسامير، عيونها منزلة، وصبوا تماثيل نحاسية عثر على بعض من قوالبها. أما المواد التي لم تكن تسمح طبيعتها بإخراج عمل متقن فقد كانت تغلف بطبقة من الاسمنت ثم تطلى بالألوان.

ومن أهم التماثيل: تمثال الكاتب المتربع، تمثال رعحوتب وزوجته نفرت وقد حفظت ألوانهما ونتبين من خلالهما أن المصريين اعتمدوا في تلوين بشرة الرجال اللون الأحمر أو البني الغامق، واللون الأصفر لبشرة النساء، تمثال الملك حور (Hôr) من السلالة الثانية عشر، وهو تمثال خشبي نسخة عن جسم الملك، تمثال تحوتمس الثالث من الرخام الأبيض يظهر فيه راكعاً على ركبتيه ويحمل بيديه إناءين للخمر أو للماء.

وكما برع المصريون في الرسم والنحت كذلك برعوا في الفنون والحرف الأخرى وانتجوا روائع نذكر منها على سبيل المثال قناعاً من الذهب الخالص لرأس مومياء الفرعون توت عنخ آمون، إنه صورة للملك يمثل الغنى المادي والتقنية العالية في صياغة الوجه والتسريحة الفرعونية المنزلة بعجينة زجاجية زرقاء وقد علتها شعارات الملك، وفي العيون والحواجب اللازوردية، وقد تدلى على الصدر عقد عريض مُنزل بالعجينة الزجاجية والحجارة الكريمة.

فن العمارة المصرية القديمة تطور من الكوخ، في العصور الآرخية، الذي اعتمد أوراق النخيل والأغصان المتشابكة والطين كعناصر بنائية، إلى المدينة في عهد الامبراطورية الوسطى، التي نجد أفضل نموذج عنها في مدينة كاهون (Kahoun) حيث فصلت منازل العمال (طبقة الفقراء)، المؤلفة من غرفة صغيرة ومتواضعة، عن منازل الموظفين (طبقة الأغنياء)، المؤلفة من عدة غرف، فشكلت كل منها حياً خاصاً، بينما ارتفع قصر الملك وبرز واضحاً في حي الموظفين؛ وقد اعتمد اللبن المجفف والخشب كعناصر أساسية في البناء وطليت الجدران باللون الأبيض ودلكت الأرض بالطين. ومن خلال الشواهد المدفنية التي تمثل المنزل فإن بعض البيوت كانت مؤلفة من طابقين.

ومدينة العمارنة، من عهد الامبراطورية الحديثة، لا تختلف في تخطيطها كثيراً عن مدينة كاهون ولكنها، في بعض تفاصيلها، تظهر التطور الحضاري الذي وصل إليه المصريون في تصميم منازلهم. ففي منزل أحد كبار الموظفين، الذي أحيط بسور (جدار)، فصلت مساكن العمال عن أرباب العمل أو رب البيت وخصصت زرائب للحيوانات وأقيمت الحمامات المبلطة بالحجارة،

والأهراءات ودرس موقع أفران الخبز باتجاه يحمل فيه الهواء الشمالي دخان النار بعيداً عن المنزل. إضافة إلى حديقة كبيرة فاخر بأصناف أشجارها وأزهارها صاحب الدار فاستقدمها من جميع البلدان. وقد اعتمد المصريون الأعمدة الخشبية كعنصر بنائي حامل للسقف واستبدلوها تدريجياً بالركائز ثم بالاعمدة الحجرية التي أخذت تيجانها أشكال الأشجار والأزهار (النخيل، البردى، اللوتس ...) ورأس الالهة حاتور.

طبيعي أن تكون للآلهة بيوتها، أي معابدها، وأن تتطور هذه مع تطور الانسان، فيحل المعبد الصرحي محل المعبد القديم المتواضع. ومن خلال الرموز الهيروغليفية نتبين أن المعبد الأول كان عبارة عن كوخ تزينه الصواري، أما المعابد التي تعود الى عصر الامبراطورية القديمة فتعطي فكرة عما كانت عليه المعابد اللاحقة، خاصة تلك التي أقامها ملوك السلالة الخامسة للإله الشمسي في مدينة هيليوبوليس. فالمعبد الشمسي مؤلف من باحة يحيط بها ممر حجري تقوم في وسطها، فوق مصطبة عالية، مسلة حجرية رأسها الذهبي يلتمع عند بزوغ أول الأشعة الشمسية، وهي رمز الاله الشمسي، وأمام المسلة مذبح التضحية، وإلى جانب المعبد يمثل المركب الشمسي الكبير الذي يبحر به الإله كل يوم في السماء. أما جدران المصطبة فزخرفت بمنحوتات ملونة تحمل مشاهد تمثل الفصول المختلفة لنمو المزروعات وتكاثر الحيوانات وأعمال الانسان.

ولا يتسع المجال هنا لذكر معظم مراحل تطور المعابد المصرية ولكننا سنكتفي بنموذج عنها من عهد الامبراطورية الحديثة. نصل الى المعبد عبر ممر مرصوف بالحجارة يحده من الجانبين صفوف أبي الهول، وقبل الوصول إلى المدخل الرئيسي نجتاز عدة أبواب صرحية تحدها الركائز الضخمة المائلة الجوانب والتي تعلوها الأبراج الحجرية والمطلية بالألوان المختلفة والتي كانت الغاية منها دفاعية ثم اصبحت رمزاً لقداسة الموقع. وراء هذه الأبواب الصرحية تقع باحة تحيط بها الممرات المحفوفة بالأعمدة. وفي الجدار المقابل لمدخل الباحة يقع مدخل قاعة الأعمدة التي يدخلها النور من خلال نوافذ صغيرة تحت سقف القاعة، وفي الباحة وقاعة الأعمدة يتم الاحتفال بالمناسبات

الدينية وتقدم الأضاحي. خلف قاعة الأعمدة تقوم ثلاث غرف صغيرة مظلمة، في الوسطى منها، قدس الأقداس، مسكن الإله وفي الغرفتين الجانبيتين تسكن عادة زوجة الإله وابنه. أما زخارف المعبد فكانت تعكس وجهة استعماله. فقد زينت الجدران والأعمدة بمشاهد تمثل الآلهة والملك وطليت بألوان تبعث الحيوية في البناء إضافة إلى الكتابات المتكررة التي تؤكد للفرعون الحياة الأبدية والملك الدائم على مصر العليا ومصر السفلى. والمشاهد والكتابات في معظمها تظهر وكأن المعبد أقيم تكريماً وتخليداً للفرعون وليس للإله.

وكانت للمعابد ملحقات أقيمت داخل حرم المعبد الفسيح، المحاط بسور من الجدران السميكة المبنية باللبن المجفف، منها أبنية الحكم ومساكن الكهنة والمستودعات والحدائق والساحات ...

آمن المصريون كغيرهم من شعوب العالم القديم باستمرارية الحياة بعد الموت، خاصة للملوك، وبأن الانسان مكون من ثلاثة أجزاء: الجسم والروح و«كا» (Ka)، و«كا» كائن غير مادي يسكن الانسان ويمنحه الحماية والحياة والديمومة والسعادة والصحة والفرح ويمثل بذراعين واعتبروه أهم جزء ممثل لشخص الانسان، فله يحفظ جسد الميت وتصنع التماثيل كبديل عنه في حال فقدانه وله يوضع الطعام والشراب مع الميت. وانطلاقاً من فكرة الحياة المستمرة حنّط المصريون موتاهم وأقاموا المدافن التي لا تهدم ولا تقهر وجهزوها بكل متطلبات الانسان فكانت مصدر معظم معلوماتنا عن هذا الشعب، عن حياته وتقاليده وأخلاقياته ومعتقداته ... وبما أن الشمس تختفي من الجهة الغربية فقد أقيمت المدافن في معظمها عند ضفة النيل الغربية وبعيداً عن الحقول والبساتين وعن الأراضي التي تغمرها مياه النيل أثناء فيضانه.

ظلت مدافن الفقراء طوال تاريخ مصر القديم عبارة عن حفرة قليلة العمق يدفن فيها الميت الذي يعطى وضعاً جنينياً جانبياً ويغطى بجلد حيوان أو حصير تحتوي على مختلف الأغراض التي كان يستخدمها في حياته، أما

مدافن الأغنياء فقد تطورت من الحفرة القليلة العمق، والتي تحدها الحجارة أو اللبن الذي يرتفع فوق سطح الأرض قليلاً، واصبحت أكثر عمقاً وأخذت شكلاً هندسياً مربع الأضلاع أعطاها مظهر الغرفة وحفظ فيها الميت داخل نعش خشبي وأقيمت الى جانب هذه الغرفة غرف أخرى حفظت فيها متطلبات الحياة للميت. أما عند سطح الأرض فقد ارتفعت الجدران الجانبية المائلة لتأخذ شكل المصطبة التي اعتمدت أساساً للملوك ثم اصبحت خاصة بطبقة الأغنياء. وقد تخلى الملوك تدريجياً عن المصطبة ليقيموا الهرم المدرج وصارت المصاطب تقام في وضع منتظم حول الهرم الملكي وتغلف جدرانها بالحجارة الكلسية.

طرأت فيما بعد تغييرات على المصطبة فأصبحت تحتوي على غرف للطقوس الدينية وسرداب يحفظ فيه تمثال الميت وأبواب مضللة للصوص المدافن. واعتباراً من عهد السلالة الخامسة بدأت عملية تحنيط الموتى ووضع جثثهم في نواويس خشبية أو حجرية. وفي عهد الامبراطورية الحديثة ونتيجة لثورة أخناتون أخذ قسم من الأغنياء ـ الأشراف يبتعدون في مدافنهم عن محيط الهرم فأقاموا المدافن الصخرية التي لم تبتعد كثيراً في تصميمها عن تصميم المصطبة الداخلي. أما الأهرام فقد اصبحت أضخم حجماً وكثرت فيها السراديب حرصاً على الميت ولم تعد غرف العبادة تقام في داخلها إنما أصبح يقام في الجهة الشرقية منها معبد كبير تمارس فيه طقوس عبادة الملك ـ الإله.

٢٤ ـ النوبيون:

اطلقت تسمية النوبيين على شعب شغل ضفاف النيل بين الشلال الثالث والسادس وذلك نسبة إلى أصله الأثيوبي أو نسبة الى نوب (Nub) التي تعني الذهب باللغة المصرية القديمة، ويعتبر الذهب من أهم ثروات الأراضي النوبية إضافة الى المواشي والعاج وخشب الأبنوس وجلود الحيوانات الصحراوية والصموغ والحبوب. والمصريون اعتبروا بلاد النوبة تبدأ من أسوان، حيث

عشيرة «تاساتيت» (Ta Satet) السودانية الأصل، والتي اصبحت تابعة لمصر منذ عهد السلالة الأولى. وقد تأثرت هذه المنطقة بالثقافة المصرية لفترة ما قبل السلالات المدعوة بدارية، وتمثلت بخزفيات حمراء حافتها سوداء.

وفي أيام مُلك جوسر من السلالة المصرية الثالثة ضُمّ القسم الشمالي من نوبة المنخفضة إلى مصر، أي المنطقة الواقعة بين أسوان وتاكومبسو. إنما في أواخر عهد الامبراطورية القديمة تراجع التأثير المصري. وبين سنة ٢٣٠٠ ق.م. وسنة ٢٠٠٠ ق.م. تقريباً، انتشرت ثقافة جديدة عند الشعوب المحلية تميزت ببيوت بيضاوية الشكل من الحجر وبمدافن اسطوانية أو بيضاوية من الحجارة الجافة، وإليها تنسب رسوم صخرية لحيوانات بقرية تدل على الحالة الرعوية وتشابه حضارة «قرما» (Kerma) العاصمة القديمة لمملكة كوش (Kush) التي هيمنت سياسياً على النوبة منذ أواسط القرن السابع عشر ق.م. وحتى أواخر القرن السادس عشر ق.م. وقاومت جارتها الشمالية القوية مصر.

ازدهرت مملكة كوش طوال عهد الهيكسوس، أسياد الدلتا آنذاك، وأقامت معهم علاقات تجارية، وأخذت حضارتها طابعاً أفريقياً محلياً وتأثرت بنوع خاص بالثقافة المصرية. ولكنها لم تصمد أمام حملات مصريي السلالة الثامنة عشر. فقد بسط فراعنة الامبراطورية الحديثة سيطرتهم من جديد على نوبة وأخضعوها حتى «نباطه» (Napata)، حيث يقيم نائب الملك المدعو «الابن الملكي لكوش»، وفرضوا على النوبيين عبادة آمون وخصص له معبد على جبل بركال وكانت النتيجة أن تمصّر النوبيون.

في أواخر عهد الامبراطورية الحديثة نمت ملكية محلية، نتيجة لرحيل المصريين عن نباطه ومنها ولدت السلالة الخامسة والعشرون، المدعوة النوبية أو الأثيوبية، التي حكمت مصر بكاملها في القرن الثامن قبل الميلاد. وعند احتلال الأشوريين لمصر طرد النوبيون منها ولكنهم استمروا في حكم النوبة وفي القرن السادس قبل الميلاد نقلوا عاصمتهم الى «ميرويه» (Méroé) جنوباً، واصبحت هذه الأخيرة مركز مملكة قوية ولم تسقط حتى القرن الرابع ميلادي تحت ضربات ملوك الخرطوم.

ومن أهم الآثار في بلاد النوبة قلاع النيل العالي وحصونه التي تعود الى عهد الامبراطورية الوسطى والتي نجدها في مواقع بوهين، ميجريسا، سمنه، عسقوت، سرّاز، شلفاك وأورونوتاري. أمّا في قرما التي تقع على مسافة ٢٥٠ كلم جنوبي وادي حلفا عند الحدود المصرية ـ السودانية فنجد آثار حصنين ـ قصرين، اعتمد في بنائهما اللبن ثم الآجر في عصور لاحقة، وقد ضمّ كل منهما عدداً من المساكن تتصل ببعضها بواسطة أدراج داخلية، كما عثر على العديد من الكسر الفخارية الحمراء والسوداء وعلى خزفيات مصرية واجزاء من منحوتات مصرية الطابع. أما المدافن في قرما فقد انتشرت شرقي المدينة وهي عبارة عن تلال مدفنية تجاوز قطر بعضها المئة متر وارتفع فوق هيكل من اللبن مكون من غرفة مدفنية ودهليز وسطي إضافة الى العديد من قبور الأضاحي البشرية. وقد تبين أن آثنين من المدافن هما معابد مدفنية غطتها الحجارة المتهدمة.

وعندما اصبحت «ميرويه» عاصمة المملكة لم تتغير المعالم الأثرية عنها في السابق وحتى بعد عهد ميرويه نجد أن التلال المدفنية، التي تشكل أهم مظاهرها الثقافية والحضارية في بلانّه (Bellana)، قد احتوت على مدافن الامراء الذين دفنت معهم مجموعة من النساء والخدم والحيوانات والأشياء الثمينة ويظهر فيها التأثير المصري ـ اليوناني ـ البيزنطي.

٢٦ ـ البيربير: Les Berbères ـ النوميد: Les Numides

البيربير من أقدم الشعوب، ذات البشرة البيضاء، المعروفة أثرياً في أفريقيا الشمالية، إنهم أحفاد إنسان ما قبل التاريخ حامل الحضارة الكابسية (Capsienne)، إنهم سكان ليبيا الذين تشير إليهم النصوص المصرية القديمة فتسميهم ليبو (Lébu) وتميحو (Téméhou) والذين يطلق اليونان اسمهم على ليبيا اليوم. وقد عمل العلماء على دراسة اللغة البيربيرية واعتبروها من اللغات الحامو ـ سامية، أي أنها وليدة تناضح اللغات السامية والمصرية القديمة.

وآثار البيربير تظهر في الرسوم والنقوش الصخرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، ومن أهم مواقعها في ليبيا جبال الأكاكوس ووادي البرجوج وجبل العوينات. وتوضح لنا الرسوم والنقوش الأساليب الفنية وطرق تحضير الألوان المتبعة آنذاك كما تساهم في تحديد أطوارها التاريخية وكهف «هوا فطيح» قرب مدينة سوسة يعتبر من أهم وأكبر كهوف شمالي أفريقيا.

والقبائل الليبية القديمة تميزت بطراز فريد في العمارة والنحت كان له أثره الجلي على الآثار اليونانية والرومانية والاسلامية. فالضريح البونيقي بصبراته وأضرحة فرزة وأضرحة الجزائر القديمة وضريح الملك صفاقس وبقية الآثار المعمارية في شمالي أفريقيا لها طابعها المحلي المميز عن العمارة الرومانية المعاصرة. وآثار مدينة جرمة عاصمة الجرامنت (Garamantes)، تبين أنها كانت محطة تجارية هامة. ويدل عدد المقابر الجرامنتية المكتشفة في وادي الأجال على أن نسبة السكان فيها كانت عالية. هذا وقد اكتشفت مواقع جرامنتية امتدت في مناطق وداي الشاطىء ووادي الأجال وفي المناطق المحيطة بزويلة ومرزق وعذوة ووادي برجوج كما ظهرت نقوش الجرامنتيين في المقابر والمعابد الفرعونية القديمة. وأقدم قرية جرامنتية تقع على قمة جبل زنككرا وهي عبارة عن قرية محصنة ظلت آهلة منذ حوالي سنة ٩٠٠ ق.م. وحتى القرن الأول ميلادي.

ومنذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد أمّ الفينيقيون شمالي أفريقيا وأنشأوا محطات تجارية لهم وربطوا بين شواطىء البحر الأبيض المتوسط كافة، فأتوا بالمعادن من أسبانيا وبالعاج وريش النعام والذهب والحجارة الكريمة وخشب الأبنوس من شمالي أفريقيا ومن هذه المحطات التجارية صبراتة ولبدة وكراكيس (سلطان) وماكومداس (قرب سرت حاليا) وماكوماكا وأويا (طرابلس) وزوكيس (عند الحد الفاصل بين ليبيا وتونس) وسرسينا (جزيرة قرقنة بتونس) وتاكابس (قابس بتونس) وحضرموت (سوسة بتونس) وقرطاجة وهيبورجيس (عنابة بالجزائر) ...

وقبل أن نبدأ حديثنا عن قرطاجة، ودورها التاريخي الذي لعبته خاصة في الشمال الأفريقي، لا بد لنا من العودة إلى بيربير تونس والجزائر ومراكش الذين أطلق عليهم اليونان تسمية نوماد،خاصة على شعب قسم من تونس والجزائر، ومور على شعب مراكش. والنوماد أو النوميد والمور من أهم شعوب البيربير التاريخية.

خلّفت لنا شعوب ليبيا، تونس، الجزائر ومراكش الكثير من النقوش والرسوم الحجرية التي يدعوها السكان المحليون «حجارة مكتوبة» ونميز منها ثلاث فئات:

ـ الفئة الأولى حفرت بواسطة الحجارة الصوانية، تظهر رسومها على شكل خطوط عريضة عميقة ومنتظمة لا انقطاع بينها وقد اعتمد صقلها على أدوات حجرية.

ـ الفئة الثانية عبارة عن رسوم نقشها غير متقن خطوطها متقطعة وغير دقيقة، وقد ارفقت بكتابات ليبية بيربيرية، وتمثل حيوانات محلية أو أدخلت حينها إلى المنطقة مثل الجمل.

ـ الفئة الأخيرة ما هي إلا رسوم سطحية جداً نقشها غير عميق أرفقت بكتابات عربية تعود إلى ما بعد القرن السابع ميلادي.

أقدم هذه الرسوم المنقوشة من الفئة الأولى تمثل حيوانات بعضها انقرض وبعضها ما زالت سلالاته حية كالفيل والأسد والزرافة والنعام وأنواع البقريات والكبش. وأهمها الكبش الذي يعتمر شعار الشمس (القرص الشمسي) والذي يذكرنا بكبش آمون وباتصال الثقافة المصرية بثقافة المغرب الأقصى. ومواضيع هذه الرسوم تمثل صراع الحيوانات البرية كما في «الريحا»، جنوبي أفلو، والأسد يلتهم خنزيراً برياً والثعالب في «كهف مسيور». أما الانسان الممثل في بعض الرسوم فيرتدي جلود الحيوانات ويظهر في أحد المشاهد البيربير يتوجون زعيمهم باكليل من الريش وقد تزين بعضهم بالعقود والأساور وقد طليت أجسادهم بالمغرة (Ocre)، أما سلاحهم فهو القوس

والنبال. ومن أهم المواضيع الانسانية رسم رجل يشهر فأساً من الحجر المصقول وقد عثر عليه في «كسار الأحمر».

البيربير رجالاً ونساءً تزينوا بالحلى في عصور ما قبل التاريخ، وقد تميز الرجال بالاقراط والنساء بالخلاخيل. والمرأة هي الفنانة التي تزخرف الفخاريات وتحيك الحصر والسجاد. وقد تميز فن البيربير بالخطوط الهندسية المنكسرة ونادراً ما اعتمد الخطوط المنحنية، وهذا لا يعني عدم قدرته على صياغة الأشكال الطبيعية، إذ أنه صنع تماثيل صلصالية صغيرة تمثل صوراً واقعية للأشخاص ولكنه تمكن من الحفاظ على خصوصيته الفنية.

وعبادات البيربير تدخل في طقوسها الروحانيات كما تتمثل بحيوانات تظهر التقارب بينها وبين العبادات المصرية القديمة. ومثل البيربير مثل الشعوب القديمة عامة فقد قدموا الأضاحي البشرية للآلهة ومارسوا السحر والعرافة وآمنوا بتجدد الحياة وبتنبؤات النساء.

ومع مرور الزمن انتقلت مدافنهم من المغاور واصبحت تنحت في الصخور على شكل حفرة مستطيلة فتحتها عامودية، شبيهة بالمساكن القديمة التي تدعى «حوانيت»، أما القبور الترابية التي كانت عبارة عن حفرة كدست فوقها رجمة من الحجارة أو من الحجارة والأتربة معاً فقد تطورت وأخذ بعضها حجم المدافن التليلية التي شهدناها في مصر واعتمدت نفس التصميم والمواد في بنائها. وغالباً ما كان يتم دفن عدة أشخاص في نفس القبر وبوضع جنيني. وقد يكون احتكاكهم مع الحضارات الأخرى المعاصرة لهم دفعهم، في حالات نادرة، الى دفن الميت بوضع مستقيم. أما حرق جثث الموتى فيعتبر شاذاً عن القاعدة العامة عند البيربير ويبدو أنه أتى نتيجة لتأثير اليونان والقرطاجيين وذلك اعتباراً من القرن الثالث قبل الميلاد. ولكن طلي الميت بالمغرة ظل معتمداً حتى القرن الثاني ميلادي. وقد دفنت مع الميت حاجياته اليومية من مفروشات وحلى ... خاصة من الأواني الفخارية، كما اتخذت المدافن وجهة الشرق.

ومجتمع البيربير، العائلة نواته الأساسية، والعشيرة إطاره، وشيخ العشيرة هو الحاكم المطلق تنتقل سلطته أو ملكه إلى أكبر الزعماء سناً وليس إلى ابنه البكر. وقد عرف هذا المجتمع الحياة الديمقراطية الممثلة باجتماعات شيوخ العشائر والقبائل.

شهدت العصور القديمة صراع القبائل والعشائر فيما بينها وسيطرة بعضها على البعض الآخر ونشوء الممالك المحلية قبل نشوء الدول التي اختلط تاريخها بتاريخ قرطاجة وروما. وعرف الملوك آنذاك باسم «أغليد» (Aguellid)، وسكان المدن أو الحضر، بسكان «بلد المخزن» (bled-el-makhzen)، حيث السهول الزراعية، فيخضعون لهم، أما سكان الجبال والمعروفون باسم «بلد السيبا» (bled-es-siba) فكانوا تارة يخضعون للأغليد وأخرى يتمردون عليه. وكان أقارب الملك يساعدونه في الحكم الذي يقوم على الشورى، ولكنهم كثيراً ما كانوا ينقلبون عليه ويحاربونه.

عموماً نجد أن التقاليد السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب لم تختلف كثيراً في مفهومها عن التقاليد التي كانت سائدة في بلاد المشرق. وقد ظل المغرب محافظاً على خصائصه حتى فرضت قرطاجة هيمنتها فادخلت إلى البيربير أفكاراً وتقاليد استمرت حية إلى ما بعد سقوطها.

وقد لعبت قرطاجة دوراً هاماً في تاريخ بلاد المغرب، ولكنها قبل أن تتفوق على باقي المدن الفينيقية وقبل انهيار صور، سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، لم تكن سوى محطة فينيقية متواضعة كغيرها.

واعمال التنقيب في منطقة سالامبو حيث قرطاجة القديمة أظهرت وجود مواقع مقدسة ترجع الى ما قبل العهد القرطاجي ولا تترك أي شك في وصول بحارة المشرق إلى بلاد المغرب في أواخر الألف الثاني أو أوائل الألف الأول قبل الميلاد.

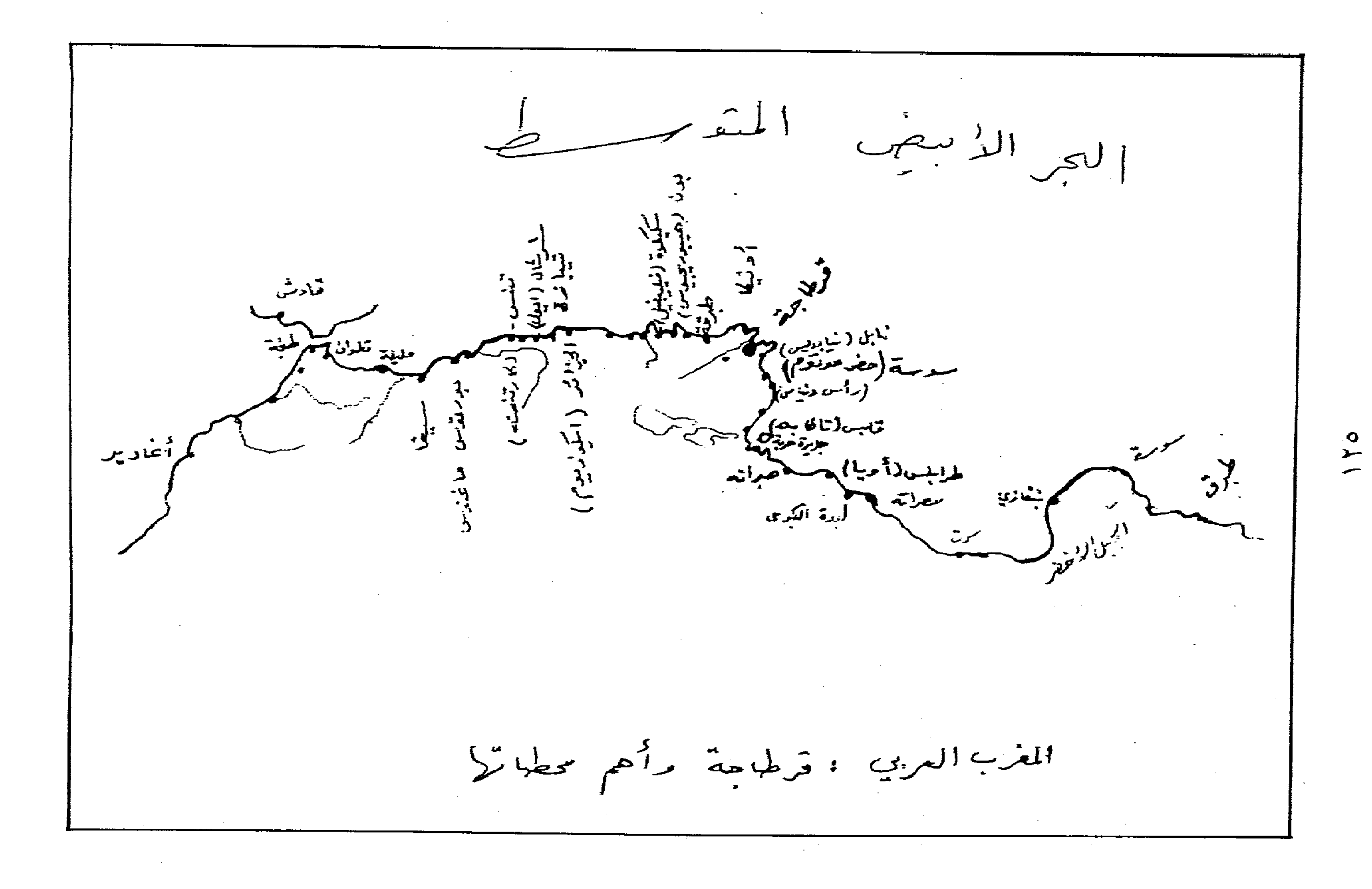
حوالي سنة ٤١٨ ق.م. أيام بغماليون الملك التاريخي أسس الصوريون والقبارصة مدينة جديدة «قرت حدشت» (القرية الحديثة) أي قرطاجة في عمق الخليج التونسي عند مصب مجردة وواد مليان وعلى الذراع البحري

الذي يصل بين حوضي المتوسط، وتقول الأساطير أن أليسا (ديدون) ملكة صور وأخت بيغماليـون كانت على رأس الفينيقيين آنـذاك.

ومعلوم أن هذا الموقع الجغرافي والاستراتيجي ساهم في تنشيط عمليات التبـادل بين العـالم الشرقي والعـالم الغربي القديـم مـن جهـة وفي التصدي للحصار العسكري والغزو من جهة أخـرى.

ظلت قرطاجة لفترة طويلـة تدفـع العشر (dîmes) وترسل التقادم لمعبـد الإله «ملقارت» الصوري، وقد رأى البعض في ذلك دليلاً على تبعية قرطاجة لصور، بينما رأى البعض الآخر فيه مظهراً من مظاهـر التقـوى والعبـادة. كما ظلت حـوالي ثلاثـة قـرون ونصف القـرن تدفـع الضرائب لليبيين، ولكنهـا وبفضل مهارة وحنكة ارستقراطيتها استطاعت استغلال انهيار صور وفرض حمايتها وهيمنتها على المدن الفينيقية، خاصة على مستوطنـات شمـالي أفريقيـا الغربي. وقد دلت محتويات المدافن التي تعـود الى القـرن السابـع قبـل الميـلاد على توسع نطاق نشاطها التجاري وازدهـاره.

وتـدل نـدرة الـذهب والأشيـاء الفنيـة في المدافـن التي تعـود إلى القـرن السادس قبل الميلاد على مرحلة من التأخر، ذلك أن اليونان بـدأوا انتشارهـم في حـوض المتـوسط الغـربي والفــرس فـرضوا سيطرتهــم على صور ومصر وسيرين (Cyrène). لكن قرطاجة تصدت بعنف لهم وشهدت ولادة زعماء مشهورين مثـل مالكـوس (Malchus)، الذي حـارب في صقليـة وسردينيـا. وقد نجحت بمساعدة الليبيين في أواخر القرن السادس قبل الميلاد من وضع نهاية لحملات دوريوس ابن ملك اسبارطة الذي انشأ إمارة في «وادي كعام» في ليبيا بين السرتين (سرت تـونس وسرت ليبيـا) وجعلتـه يلجأ إلى صقليـة، حيث سقط تحت ضربات القرطاجيين، واعلنت قرطاجـة حمايتهـا على مـدن صبراته وأويا ولبدة والمحطات الأخرى التي أنشئت على طول الساحل الشمالي الغربي من ليبيـا.



المغرب العربي : قرطاجة وأهم محطاتها

استمر الصراع بين القرطاجيين واليونان في صقلية طوال النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد وكانت نتيجته خسارة القرطاجيين لمواقع عديدة، فتوجهوا في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد نحو الأراضي الليبية يقتطعون اجزاء منها، وتوغلهم هذا أحدث ردات فعل عنيفة، فقد ازدادت ثورات البيربير ضد البونيقيين وخاصة ضد الارستقراطية القرطاجية التي كان همها الربح التجاري لا النصر العسكري.

في أواخر القرن الخامس وخلال النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد خسرت قرطاجة حروبها ضد دنيز سيراكوز في صقلية. وعندما سقطت صور أمام الاسكندر سنة ٣٣٢ ق.م. ارسلت وفودها إليه سنة ٣٢٣ ق.م. مخافة أن يتوجه إليها وعملت على استتباب الأمن والسلام في صقلية، ولكن ظهور «أغاتوكل» سنة ٣١٧ ق.م. ووصوله الى السلطة في سيراكوز ونقله للمعارك من صقلية إلى أراضي قرطاجة واحراقه للاسطول الذي وصل على متنه إلى رأس بون سنة ٣١٠ ق.م. وحنكته السياسية والاستراتيجية العسكرية مكنته من احتلال أوتيكا وهيبو ديارتيوس (Bizerte) وكل الأراضي التابعة لقرطاجة، ولكنه احجم عن قرطاجة ورجع إلى صقلية ليعود بعد سنة ويحاول من جديد دون جدوى، فلاذ بالفرار من وجه جنوده الذين قتلوا أولاده وباعوا الأراضي التي احتلوها للقرطاجيين.

كانت لخسارة «أغاتوكل» نتائجها الايجابية بالنسبة لأعداء قرطاجة إذ أنها فتحت الطريق أمامهم إليها ورفعت يد القرطاجيين عن صقلية.

بعد موت «أغاتوكل» استغل القرطاجيون نشوب الحروب الأهلية في صقلية فعادوا من جديد إليها وحرروا المدن التي كانوا يسيطرون عليها سابقاً، ولكن القرن الثالث قبل الميلاد شهد بروز روما، التي لم تكن تتدخل سابقاً في صقلية، وتدخلها الذي كانت له اسبابه الاقتصادية والعسكرية أدى إلى الحروب البونيقية الثلاث:

ـ الحرب البونيقية الأولى من سنة ٢٦٤ حتى سنة ٢٤١ قبل الميلاد خرجت منها قرطاجة وهي محتفظة بقواها رغم فقدانها جزيرة صقلية.

ـ الحرب البونيقية الثانية من سنة ٢١٨ حتى سنة ٢٠٢ قبل الميلاد ومن أهم أحداثها غزو ايطاليا من قبل القائد هنيبعل، ابن هميلقار برقة، والهجوم المقابل الذي قام به الرومان لأفريقيا بقيادة سكيبيون الأفريقي (Scipion L'Africain) وخلال هذه الحرب تفككت امبراطورية قرطاجة ونشأت مملكة أو إمارة نوميد الغرب وعلى رأسها الأغليد سيفاكس (Syphax) وإمارة نوميد الشرق وعلى رأسها الأغليد ماسينيسا (Masinissa) وقد انحاز سيفاكس للقرطاجيين بينما انحاز ماسينيسا للرومان، لذلك وعند انتصار سكيبيون في موقعة زاما (Zama) التي قادها هنيبعل الذي استدعي من ايطاليا وإثر هزيمة هذا الأخير وهربه إلى حضرموت، فرض سكيبيون سيطرته على قرطاجة ووضع حداً لهيمنتها وجعل ماسينيسا سيد بلاد النوميد.

استغل ماسينيسا تشجيع روما له فعمل على الاستيلاء على المدن التي ما زالت تابعة لقرطاجة محاولاً إقامة مملكة كبرى تمتد من مراكش غرباً إلى أقصى الممتلكات القرطاجية شرقاً عند خليج سرت ولكنه لم يستطع الاستيلاء على مدن صبراته وأويا ولبدة الكبرى لأن هذه المدن ظلت موالية لقرطاجة. فأجبر الرومان قرطاجة على تسليمها لماسينيسا، الأمر الذي أدى إلى نشوب الحرب بين قرطاجة وماسينيسا ملك نوميديا وكان النصر حليف قرطاجة. فاتخذت روما هذه الحرب ذريعة للتدخل والقضاء على قرطاجة من جهة وللحد من طموح ماسينيسا من جهة أخرى وقد رأت فيه هنيبعل آخر.

ـ وهكذا بدأت الحرب البونيقية الثالثة والتي امتدت من سنة ١٤٩ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد، وانتهت بتدمير قرطاجة عام ١٤٦ قبل الميلاد، وقد بلغ حقد الرومان درجة حملتهم ـ حسب ما يحدثنا المؤرخون ـ على حرث أرض قرطاجة وزرعها ملحاً تأكيداً على ازالتها من الوجود.

لم تعد الحياة إلى قرطاجة إلا بعد سنة ٤٤ قبل الميلاد حين أعاد الرومان بناء المدينة واصبحت في أوائل القرن الأول ميلادي عاصمة أفريقيا الرومانية. وفي القرن الثاني ميلادي غطتها الأبنية التي لا يزال قسم من آثار حماماتها ومسارحها وملاعبها ومنازلها يشير الى أهميتها التاريخية فقد اعتبرت ثاني مدينة، بعد روما، في الامبراطورية الرومانية. وفي القرن الرابع والخامس

ازدادت قرطاجة غنى بالبازيليكيات والكنائس المسيحية التي نقل بعض من فسيفسائها إلى متحف باردو في تونس.

أما ما تبقى من آثار بونيقية فهو لا يزال حتى اليوم موضع دراسة وبحث وتنقيب. وقد اعطت المكتشفات صورة عن الحضارة القرطاجية، فموقع المدافن والمعابد التي تعود الى ما قبل عهد قرطاجة والتي تم كشفها في سالامبو أظهرت أن أقدم قسم من المدينة يقع عند سفح هضبة بيرسا (Byrsa) وبموازاة البحر. وقد اتسعت المدينة تدريجياً وببطء ومع مرور الزمن اصبح عدد سكانها، حسب المؤرخ سترابون، سبعمئة ألف نسمة، وقد كشفت التنقيبات عن بعض منازلها وعن بقايا سورها خاصة من الناحية الغربية. فخلال الحرب البونيقية الثالثة بلغ طوال الأسوار التي تحمي قرطاجة ٣٤ كلم وارتفاعها ١٣ م. وسماكتها ٩ م. توزعت فيها أبراج المراقبة والدفاع التي لم تتجاوز المسافة بينها ٥٩ م. وامتدت ساحة المدينة من المرافىء حتى بيرسا وانطلقت من الساحة شوارع ثلاثة نحو معبد اشمون واكتظت بالمنازل المؤلفة من ست طبقات.

لم تضرب قرطاجة النقود حتى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، وأولى مسكوكاتها كانت من البرونز، ثم ضربت المسكوكات الفضية في القرن الثالث قبل الميلاد، وظهور المسكوكات أتى نتيجة لضرورات عسكرية أكثر منها تجارية، فالشعوب البدائية كانت تفضل مقايضة المواد الأولية بالمنتجات المصنعة من أقمشة وخزفيات وزجاجيات واسلحة وخشبيات وعطور ... إضافة إلى ذلك فقد برع البونيقيون في بناء السفن وصنعوا الحديد والبرونز والمعادن الثمينة كما صنعوا أدوات تزيينية من العاج والحجارة الثمينة كما تميزت الجعلان التي استخدمت كأختام. ومحتويات المدافن كثرت فيها الشواهد الأثرية وأهمها الأقنعة المعبرة عن حالات نفسية كالضحك أو التجهم ... إلى جانب كل ذلك فقد اشتهر البونيقيون بصباغ الأرجوان وأعمال الحياكة وتصنيع الجلود.

كان الفينيقيون من أمهر المزارعين القدماء، وقد دفعتهم الهضاب والوديان الضيقة بسواحل فينيقيا إلى اعتماد الزراعة المكثفة، وقد نقلوا مهارتهم إلى

المستوطنات التابعة لهم فأقاموا مشاريع للري كالسدود والصهاريج وادخلوا الآلات والمعدات المعدنية المستعملة في الزراعة إضافة الى الكثير من الأشجار الملائمة لمناخ وتربة المنطقة كالزيتون والتين والرمان والخوخ واللوز والكرمة. وربّوا الحيوانات كالأحصنة والبغال والابقار والماعز والخراف كما ربّوا الطيور والنحل الذي اشتهر شمعه.

حاول الفينيقيون الاندماج مع سكان المغرب الاقصى الأصليين وقد نقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وخاصة ديانتهم. وقد تأثرت المستوطنات الفينيقية بالمؤثرات الشرقية فعبدت الآلهة الفينيقية وفي مقدمتها تانيت بينبعل، آلهة القمر عند الفينيقيين بمدينة صور، واعتبرت ايضاً الهة الخصاب ويرمز اليها: بمثلث يمثل البدن، وخط أفقي ينتهي طرفاه بانحناءة يمثل اليدين، ودائرة تمثل الرأس. وقد عثر على هذا الرمز، منحوتاً أو مرسوماً بالألوان، على العديد من الحجارة النذرية. و لم تقتصر العبادة على تانيت فقد عُبد الإله بعل الذي تحول إلى بعل حمون إضافة إلى أشمون وملقارت ورشف.

خرجت قرطاجة منهارة من حروب تجاوزت مدتها الستين سنة، وقف خلالها البونيقيون في وجه الرومان وبرز فيها الصراع بين الشرق والغرب، بين حضارتين وامبراطوريتين متنافستين. لكن تأثير البونيقيين الحضاري على بلاد المغرب الأقصى لم يأت فقط من كون قرطاجة العاصمة إنما أتى نتيجة لاستمرارية تفاعلها مع بلاد البيربير.

صحيح أن قرطاجة لم تحتل بلاد المغرب كاملة واقتصرت هيمنتها على تونس وعلى المدن الساحلية للجزائر ومراكش، لكن تأثيرها لم يقف عند الأراضي التي خضعت لها سياسياً. فالليبيون المجندون في جيوشها وغيرهم من المرتزقة لم يعودوا إلى ديارهم دون أن يحملوا معهم شيئاً من الحضارة التي عايشوها. والتجار البونيقيون لم يحملوا معهم فقط البضائع إنما حملوا أيضاً عاداتهم وأفكارهم ومعتقداتهم وتقنياتهم التي اصبحت مألوفة لدى الشعوب المحلية والتي أغنوا بها حضاراتهم. وطبيعي أن تتأثر مناطق البيربير

الشرقية بالحضارة البونيقية أكثر من غيرها. فإن العديد من أمراء النوميد أقاموا في قرطاجة وتزوجوا بنات أشرافها واعطوا لأبنائهم اسماء قرطاجية ونقلوا قوانينها وانظمتها الى مدنهم وعبدوا الآلهة السامية وحملوا التقنيين القرطاجيين معهم، فأتت أعمالهم ذات طابع تميز باندماج العناصر الفنية التي تظهر واضحة على الآثار المعمارية من أضرحة صرحية وغيرها، ومنها ضريح دوغا (Dougga) الذي يعود بتاريخه إلى أواسط القرن الثاني قبل الميلاد. وقد بني بحجارة مقصبة وبلغ ارتفاعه ٢١ م. وحمل زخارف أنيقة وزين بالتماثيل وتألف من ثلاث طبقات ترتفع فوق مدرج، وقد عثر على حجرين يعودان لهذا الضريح حملا نصاً واحداً كتب باللغة الليبية على أحدهما وباللغة البونيقية على الآخر، مما يدل على أن الارستقراطية المحلية اعتمدت اللغة البونيقية إلى جانب الليبية.

أن لا يزول تأثير قرطاجة بعد تدميرها أمر بديهي، فالحضارة الرومانية لم تستطع التفوق عليها لا على الأراضي البونيقية ولا في الممالك المحلية، فالآلهة البونيقية التي اعتمدت الزيّ الروماني والاسم اللاتيني احتفظت بالروح البونيقية ـ المحلية، فبعل الذي اصبح اسمه ساتورن (Saturne) ظل الاله المطلق البونيقي ومسكوكات المدن حملت تعابير وكتابات بونيقية حتى أيام تيبير (Tibère).

وأهمية تأثير قرطاجة وبالتالي الحضارة البونيقية هو أنها جعلت بلاد البيربير تدخل تاريخ شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط وطبعتها بطابع شرقي وربطت تاريخها بتاريخ الشرق العربي.

الفصل الرابع

المعالم الأثرية والحضارية

تتميز كل حضارة بعمارتها الخاصة التي تعتبر من عناصر البحث الأثري الأساسية، وأول ما يؤخذ بعين الاعتبار هو المواد المستخدمة في البناء من حجارة ولبن وطوب ... إضافة الى المواد النباتية كالخيزران والقصب والبردى والخشب ... التي نصل أحياناً إلى اكتشاف آثارها والتي اعتمدت منذ أقدم العصور في بناء الأكواخ وبعض المساكن المتطورة وشكلت قرى ومدن لجأ إليها الانسان مكوناً مجتمعاً بشرياً. وتاريخ التقاليد المعمارية وسننها سمح لعلماء الآثار تكوين فكرة عن حالة هذه الأكواخ التي نجد نماذج حية عنها في المساكن المستطيلة الشكل والمقببة السقف التي انشئت من القصب في مناطق العراق الجنوبية الكثيرة المستنقعات أو في بعض المناطق النائية من آسيا وأفريقيا وأميريكا والتي تتناقل وتؤبد تقاليد معمارية تعود بتاريخها الى آلاف السنوات وتظهر نماذجها واضحة في المعالم الأثرية التي تعود الى العهد السومري. فالمعطيات الجيولوجية والجغرافية تقرر اختيار المواد ووجهة استعمالها، ففي بلاد ما بين النهرين لم يعتبر الحجر عنصراً أساسياً في البناء، ولقد اعتبرت الحضارات القديمة الحجر مادة لا تفنى فخصّت به مساكن الآلهة، وحدهم اليونان والرومان استخدموا بشكل واسع هذه المادة في بناء البيوت الخاصة، ولكن الرومان اعتمدوا إلى جانب الحجارة الطوب ونادراً ما شيدوا قصوراً حجرية على نمط قصور كريت المينوية وقصور الأخمينيين مع أنهم استعملوا الحجارة في إقامة الأسوار والحصون وجدران الحدود.

أما أرض البيوت فكانت تفرش بالتراب المرصوص ثم اصبحت تمد بالجص وتدلك ومن ثم بالطوب المشوي أو بالحصى الذي توصل معه الفن

إلى الفسيفساء التي كست أرضيات المعابد والقصور وبعض بيوت الأغنياء إضافة الى الأرضيات التي بلطت بألواح من الحجارة أو الرخام.

والسقوف أخذت أشكالاً تطورت مع تطور تقنيات البناء واعتمدت المواد المتوفرة بدءاً بأغصان الأشجار والنباتات الشوكية وصولاً الى الألواح الحجرية، وأخذت أشكالاً متنوعة منها المسطح والمائل والمقبب ... والجدران من الداخل والخارج كُسيت بالطين والجبص والاسمنت والفسيفساء والمرمر وكانت في كثير من الأحيان تعتمد الألوان وهذا ما تدل عليه المكتشفات الأثرية سواء كان في مصر أم في بلاد ما بين النهرين أم في العالم اليوناني والروماني ...

ولكن بعض الحضارات اعتمدت عناصر بنائية ميزتها عن غيرها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: العمود، التاج، الركيزة، القبة، القنطرة، المصطبة، الحنية، الإيوان، المسلة ... كما عرفت أبنية خاصة، منها: المسارح، الملاعب، أقواس النصر، الأبادانا، البيت هيلاني، البازيليك، الهرم، الحمامات، السدود، المدفن الصرحي، المعبد المستدير ...

لا تقتصر المعالم الحضارية للشعوب القديمة على العمارة وآثارها ولكنها تتناول كل ما طوّعه واستخدمه واكتشفه واخترعه وطوره الانسان من مواد ساهمت في تعزيز رفاهيته وفي تحقيق ذاته والتعبير عن تطلعاته الواقعية والماورائية.

انطلاقاً من هذا المفهوم لا بد لنا من القاء نظرة على أهم المواد التي اعتمدها الانسان قديماً في التعبير عن بعض حاجاته الحياتية، قبل أن نتناول الآثار المدنية والدينية والمدفنية في أهم معالمها.

ـ الباب الأول ـ

المواد :

عندما فكر الانسان بنمط حياة مستقرة كان من الطبيعي أن يستعمل ما توفر له من مواد طبيعية محيطة به وبمقدوره تطويعها وتكييفها وفقاً لحاجاته، وهذا النمط من الحياة مرّ بمراحل طويلة توصل في نهايتها الى بناء البيت الثابت والمتين والمريح. وقد لعب موقع الاستقرار أو السكن دوراً رئيساً في اختيار مادة البناء، وهكذا نرى أن سكان بلاد ما بين النهرين اعتمدوا الطين والقش كمادة أساسية في البناء بينما نجد شعوب الغول يعتمدون الخشب نظراً لتوفره بكثرة في غاباتهم.

فمواد البناء الأساسية، وهي: الخشب والطين والحجر على أنواعه والحديد والرصاص ... إضافة الى المواد الثانوية كأغصان الأشجار والنباتات الشوكية (البلاّن) وما شابه ... وهي الأكثر عرضة للتلف مع مرور الزمن تحتل الصدارة في دراسة الآثار. فأولى معابد المايا المبنية بالطين والقش كانت تعلوها سطوح من الأغصان الدقيقة والقش، كذلك أولى معابد المصريين والشرقيين نرى نماذج حية عنها في المناطق البعيدة عن المدن سواءً كان في أمريكا أم في أفريقيا أم في آسيا وأوروبا وأوقيانيا.

والانسان عندما صنع أدواته استعمل مواد أخرى إضافة الى تلك التي استعملها في بناء مسكنه ومنها: البرونز والحديد والذهب والفضة والإلكتروم والعاج والألباتر والطين المشوي والحجارة الثمينة ... وأصداف البحار وعظام الحيوانات، ونتيجة لممارسته التصنيع اكتشف مواد جديدة اعطاها الحياة ومنها: الزجاج، الميناء، التلوين، الصباغ ...

ولم يكتف الانسان بما قدمته له الطبيعة ولا بما اكتشف فقد عمد في كثير من الأحيان إلى استخدام المادة، أي مادة، لأكثر من غرض، والأمثلة التاريخية على ذلك لا حصر لها، فقد عمد المعماريون القدماء إلى إعادة استعمال مواد أبنية أسلافهم في رفع أبنيتهم، رعمسيس الثاني لم يكتف بالمعابد والقصور والتماثيل التي شيدها فقد نقش اسمه على أبنية أسلافه. والمصريون لم يترددوا أمام هدم بناء قديم ليقيموا بناءً حديثاً، وأهم مثل على ذلك معبد أمينوفيس الثالث فقد اتخذوا منه مقلعاً للحجارة، حتى أنه لم يبق قائماً منه إلا تمثالي ممنون (Memnon)، وإحدى ركائز معبد الكرنك الكبير كانت محشوة بأربعة آلاف منحوتة حجرية تعود إلى معبد أخناتون في طيبة (Thèbes)، ويقدر وجود مئة ألف قطعة مماثلة محشوة في جدران المعبد. وإعادة استعمال المواد ظهرت بكثرة في القرون الوسطى خاصة عند المسيحيين والعرب. فالعرب بدأوا تحويل الأبنية البيزنطية الى مساجد ثم أخذوا الأعمدة وادخلوها في بناء المساجد، كما في المسجد الأموي بدمشق، كذلك الأمر مع المسيحيين إنما بشكل أوسع، فقد أدخلوا إلى البازيليكيات التي حولوها الى مراكز عبادة أعمدة وحجارة المعابد الوثنية التي دكوها، كما أنهم في عصور لاحقة جعلوا من الحمامات والمسارح مقالع حجارة ومن المعابد القديمة كنائس أو خرائب.

الطوب:

إن المفهوم العامي للطوب والذي يعني الطين المصبوب في قوالب والمجفف طبيعياً (اللبن) هو غير المفهوم الأساسي للطوب والذي يعني اللبن المشوي أو الآجر المشوي.

منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، في مصر وفي سومر، أقام الانسان أبنية من الطوب المشوي، الذي كان قبل ذلك التاريخ يستخدمه مجففاً في الهواء الطلق، ولكن وفرة الحجارة في وادي النيل جعلت المصريين يتخلون عن هذه المادة نسبياً فقد ظلوا يبنون بالطوب المشوي مدافن ومعابد

وأسوار وقلاع وأهرام الامبراطورية الوسطى (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م.) لكنهم اعتمدوا الحجر في إقامة الابنية الكبيرة؛ كذلك الأمر بالنسبة لليونان، وخلافاً لبلاد ما بين النهرين حيث نجد الزقورات والأسوار والمعابد والقصور والبيوت كلها من الطوب الغير المشوي وحيث يندر استعمال الحجر. أما الرومان فقد كانوا من الشعوب الأكثر استمراراً واستخداماً للطوب المشوي في جميع ارجاء امبراطوريتهم وقد ظلوا يعتمدونه حتى القرن الثالث والرابع ميلادي إلى جانب الحجارة وأنواعها العديدة.

الحجارة:

تعتبر الحجارة من أشرف مواد البناء وأفضلها لأنها الأكثر مقاومة للعوامل الطبيعية والزمنية، وأهرام المصريين تشكل أوضح دليل، إنما اختيار صخر لا شوائب فيه وتشذيبه جيداً وخلق توازن بين الاجزاء لتأليف وحدة كاملة ومتماسكة، مسألة أبدع فيها الرومان ومن قبلهم اليونان. ومعظم الحضارات البعيدة اعتمدت الحجر المقصوب باستثناء المناطق التي لم تكن فيها هذه المادة وافرة، كما في بلاد ما بين النهرين. وبعض الشعوب تميزت عن غيرها في هذا المجال، فالمصريون ابدعوا في نحت الحجر وصاغوا أواني من أصلب أنواعه، من الغرانيتي والرملي والكلسي، فمنذ عهد الامبراطورية المصرية القديمة أقيمت الأهرام الحجرية كما نحتت المسلات وتماثيل أبي الهول وشيدت الركائز والأعمدة من الحجارة الغرانيتية. واليونان لم يبدأوا البناء بالحجر إلا في القرن السابع قبل الميلاد واستخدموا منه المثلم والطباشيري والغنسي والغرانيتي والكلسي وخاصة المرمر الذي احتل مركزاً مرموقاً عندهم وعند الرومان من بعدهم. والشعوب الأقدم من التي ذكرنا جعلت من الحجر أساساً ترتفع عليه الأقسام العليا من الجدران التي كانت من اللبن والخشب أو من الطين والخشب، وهي مواد تنهار بسرعة، لذا لا نجد في كثير من المواقع الأثرية سوى الأساسات الحجرية دليلاً ظاهراً لبناء قديم، هذا، إذا لم تك حجارة هذه الأساسات قد استخدمت في عصور لاحقة، وفي هذه الحال تصبح أعمال البحث والتنقيب عن المعالم الأثرية

عملية دقيقة وتتطلب جهوداً علمية لاعادة بعثها ودراستها.

واستعمال الحجر لم يكن مقتصراً على البناء فقط، ففي عصور ما قبل التاريخ كانت تصنع منه الأواني المنزلية وأثاثات البيوت كالمقاعد الحجرية والعروش إضافة الى الأدوات الزراعية والأسلحة التي ظلت بعض الشعوب تتخذ منه رؤوس سهامها، فالفرس عندما حاربوا اليونان في معركة ماراتون الشهيرة كانت رؤوس سهامهم من الحجر (سنة ٤٩٠ ق.م.). فمنذ العصر الحجري الحديث استعمل الحجر في البناء، ما عدا بلاد ما بين النهرين التي لم تعتمده في البناء، فقد صاغ البناء والنحات من أصلب أنواع الحجر أشكالاً تلبي حاجاته من المدماك الحجري إلى الباب إلى المقعد إلى العامود إلى الناووس إلى الجرار والأواني على اختلافها إلى التماثيل والنصب وحمّلها رسائله التاريخية ودوّن عليها أفكاره ومعتقداته وأعماله.

وإنسان العصور القديمة لم يطوّع الحجارة العادية فقط إنما أيضاً الحجارة النادرة والثمينة رغم صلابتها ومقاومتها كالمرمر واللازورد والدهنج واليشب والعقيق والبورفير والديوريت والألباتر والجاد والزمرد، ولكنه لم يعرف الماس والياقوت وتعتبر الهند الغنية بالحجارة الكريمة أول من استعمل الماس والياقوت والصفير.

لقد احتل المرمر مركزاً مرموقاً عند اليونان والرومان، ونظراً لوفرته في جزر بحر إيجيه، خاصة الأبيض منه، فقد أقام منه اليونان معابد كمعبد باروس (Paros)، وناكسوس (Naxos)، وأبنية أكروبول أثينا، وسوق أتّال (Attale) في أثينا أيضاً، وبعض الأبنية العامة وأسوار المدن، وكانت التماثيل أروع ما صاغوا منه. والرومان بدورهم لم يستخدموا كاليونان المرمر الأبيض والضارب الى اللون الأزرق أو الزهري فقط إنما أتوا به من مختلف البقاع، من البيرنييه حتى لبنان، فجاؤوا بالمرمر الأحمر من آسية الصغرى من ألاباندا... والأسود والرمادي من اليونان، والأسود المعرق بالأصفر من رودوس، والأصفر من تونس ... وكانو ا أكثر واقعية واقتصاداً من اليونان الذين نحتوا أعمدتهم وجدرانهم بكاملها من المرمر فقد كانوا يكتفون بتغليف الجدران بالمرمر واعتمدوه كعنصر زخرفي وتلاعبوا بالألوان، وكانوا يطلون

أو يغلفـون الجـدران بنـوع مـن الاسمنت (Stuc) يقلدون فيـه ألـوان المرمـر ولكنهم في الوقت نفسه أهتموا بفرش أرضيات بيوتهم الغنية منها خصوصاً بقطع من المرمر ومن الحجارة الملونة تشكل رسوماً هندسية ومشاهد رائعة وهي ما نسميها الفسيفساء.

ومن أهم أنواع المرمر الألباتر، وهو نوع من الحجارة التي تطلق عليها صفة المرمر الأبيض، شبه شفاف يميل لونه أحياناً إلى الأخضر أو الأصفر أو الزهري، ونجده بكثرة في وادي النيل خاصة في منطقة طيبة وفي العصور الرومانية أخذ من إيطاليا ومن الجزائر وسوريا ومن منطقة كرمانية جنوبي إيران ومن الهند. وكان المصريون القدماء أول من صاغ منه آنية الالهة «Bastet»، والممثلة بهرة وكانت تدعى «ألابست» ومنها أتت تسميته اليونانية ألابسترون ومن ثم الرومانية ألاباسترس وحسب قول بلين (Pline) كانت هذه الآنية تستخدم لحفظ العطور، ولكن المصريين كانوا أسياد هذه المادة التي صنعوا منها آنية، تدعى كانوب (Canopes)، احتفظوا فيها بأحشاء الميت الذي يحنط، سدادات هذه الآنية كانت تمثل رأس الآلهة أو رأس الميت وكانت العيون منزلة تتألق بنظرة حيوية، ويعود تاريخ هذه الآنية الى عصر السلالة الثامنة عشرة، ولكن استعمال الألباتر بدأ منذ عصر السلالة الأولى ولم تقتصر هذه الصناعة على الآنية المذكورة فقط إنما صيغت منها أشياء أخرى متعددة أهمها اللوحات التي كانت تستخدم في ممارسة الطقوس الدينية. وقد تأثر الفينيقيون بالمصريين وصاغوا من الألباتر أواني العطور، وبعد المصريين تعتبر اليمن القديمة من أكثر المناطق التي استخدمت الألباتر في منحوتاتها. أما باقي شعوب الحضارت القديمة فنادراً ما كانت تستخدمه مثلاً، عند شعوب بلاد ما بين النهرين نجد منه تمثال إبي إيل (Ebih-il) من ماري والموجود حالياً في متحف اللوفر وتمثال سرجون الثاني الموجود في متحف تيران (Turin) ومسلة شلمنصر الثالث وهي من الألباتر الأسود في المتحف البريطاني.

الخشب:

إن علم الآثار يدفعنا إلى معرفة أهمية الخشب كمادة رئيسة في البناء عند الشعوب القديمة. فمن الكوخ إلى الدعائم إلى الجسور إلى أثاث البيوت إلى التماثيل والأغراض التزينية والمدفنية ... نجد أن الخشب كانت له مكانته وقد سعت الشعوب التي افتقرت إليه في الحصول عليه خاصة على أنواعه النادرة كخشب الأبنوس وخشب الأرز، وهذا الأخير اعتبر من أهم عناصر البناء التي اعتمدها العبرانيون والفينيقيون والمصريون خاصة في بناء هياكلهم. وابنية اليونان التي تعود الى العصور الأرخية خاصة المعابد وأعمدتها كانت تؤخذ من شجر السنديان والصنوبر والسرو والجوز والزيتون. وفي العصور البرونزية نجد أن الخشب يعتمد كشبكة أساسية تدخل بين مداميك البناء وتربط أقسامه بعضها ببعض سواءً كانت حجرية أم طينية إضافة إلى أنها كانت تشكل الأساس الذي ترتفع فوقه أسطح الأبنية وسقوفها وبلاد ما بين النهرين وخاصة آثار ماري تعتبر من أوضح النماذج.

والتنقيبات الأثرية، رغم ندرة العثور على خشب لم يتلف، تشهد على مرونة وسهولة وتنوع أغراض استعماله التي لا تزال حية حتى يومنا هذا.

المعادن:

أحدث اكتشاف المعادن ثورة حقيقية في تاريخ البشرية. والتعدين ظهر في أواخر عصور ما قبل التاريخ وفي فجر التاريخ، في الوقت الذي اخترع فيه السومريون والمصريون، كل من جانبه، الكتابة.

ولكي نتعرف بشكل أفضل الى الفترات التي ظهرت فيها المعادن لا بد لنا من القاء نظرة ولو موجزة حول مناطق اكتشافه وتاريخ استعماله. كانت بلاد الأناضول أكبر منطقة معدنية في العصور القديمة فمنها انطلقت معظم الاكتشافات المعدنية. فالنحاس المطرق ظهر في العصر النيوليتي في شاتال هويوك (Çatal Hüyük)، ولكن العصر البرونزي أو الانيوليتي والمدعو كالكوليتي لم يبدأ إلا في أواخر الألف الخامس في هذه المنطقة، وقد انتشر

بعدها في سوريا ووصل مصر حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م. وتصنيع الذهب اكتشف في نفس الحقبة، مع هذا فإن عصر البرونز يبدأ حوالي الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد الأناضول، ولم يعرف البرونز في مصر إلا حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وفي الهند وفي الصين في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ولم يدخل أوروبا الغربية إلا حوالي سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد. أما الرصاص والفضة فنجد أنهما عرفا وصنّعا في الألف الثالث في الشرق. وكان الحديد آخر المعادن المكتشفة في بلاد الأناضول الشرقية وذلك حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد، واعتبر آنذاك معدناً ثميناً صنعت منه أسلحة تفاخر بها أصحابها وتباهوا، كالخنجر الذي عثر عليه في قبر «توت عنخ آمون» في مصر. ولم ينتشر الحديد في أوروبا وآسيا إلا في الألف الأول قبل الميلاد، وفي مصر ما بين القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ولم تعرفه أفريقيا إلا بعد ألف سنة تقريباً. وكان الرومان، واليونان قبلهم، يعمدون إلى سقايته مما يجعله أصلب وأشد انكساراً وأقل تأكسداً، وعملية السقاية عندهم كانت تقوم على غمس الحديد المسخن حتى الاحمرار في الزيت.

أما شعوب امريكا فنجد أنها تأخرت كثيراً عن الشرق في استخدام المعادن، فهنود اميركا الشمالية لم يعرفوا صناعة النحاس ولم يعرفوا تذويبه وقد كانوا يستخدمونه خاماً ويطرقونه بارداً، وتعتبر اميركا الجنوبية منشأً لصناعة التعدين في القارة الأمريكية، وقد ظهر الذهب والنحاس في أواسط الألف الأول قبل الميلاد على شواطىء فنزويلا وغوايانا وكولومبيا والأكوادور والبيرو حالياً؛ وتصنيع الفضة اقتصر على شواطىء البيرو والأكوادور، ويعود بتاريخه إلى أوائل عصرنا، أما البرونز فلم يكتشف إلا في اواسط الألف الأول ميلادي في منطقة البيرو، وشعوب الإنكا (Incas)، كانوا الوحيدين الذين ساهموا في انتشاره ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، والتعدين ظهر في أميركا الوسطى نتيجة لاتصالها باميركا الجنوبية وبتأثير منها. والرصاص كان المعدن الوحيد الذي اكتشفه المكسيكيون في أواخر الألف الأول ميلادي، وشعوب المايا (Mayas)، لم تعرف سوى الذهب والنحاس في مرحلة متأخرة وكانت تجهل تماماً البرونز. والبرونز لم يعرفه الأزتك (Aztèques) إلا في أواخر القرن الخامس عشر أي قبل وصول الاسبان

بفترة زمنية قصيرة وكان استعماله قليلاً. أما الحديد فقد ظل مجهولاً عند شعوب أميركا الأصلية ما عدا بعض قبائل أميركا الشمالية التي جمعت أحياناً حديداً جوياً (fer météorique).

تطرقنا في مجالات عديدة إلى البرونز كمعدن فما هو فعلياً؟ إن عملية تأكسد البرونز تكسبه لوناً أخضر يميل الى الزرقة يحتفظ به ويحفظه، لهذا نجد أن الشواهد الأثرية البرونزية كثيرة. والبرونز معدن يدخل في تركيبه النحاس بنسبة ٩٠٪ والقصدير بنسبة ١٠٪، ومعلوم أن النحاس معدن تعوزه الصلابة، وبقدر ما يسهل تشكيله يسهل فقدانه نتيجة لطواعيته، والقصدير يعطيه ميزة الصلابة والقوة إلى جانب الطواعية.

ومنذ خمسة آلاف سنة على الأقل بدأ عصر البرونز في آسيا الصغرى واستمر حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، كما استمر استعمال البرونز بشكل واسع وصنعت منه الأدوات الصغيرة المستخدمة في الحياة اليومية كالأواني المطبخية ... كما صنعت منه التماثيل واستخدم في تزيين الأبنية القديمة وخاصة في تصفيح الأبواب.

ما زال علماء الآثار حتى يومنا هذا يعتبرون مسألة اكتشاف المعادن وتصنيعها مسألة تستحق الجهد في البحث والدراسة، فمن أين كانت الشعوب القديمة تحصل عليها؟ وكيف كانت تستخرجها ؟...

بالنسبة للنحاس هناك اثباتات، فقد عثر على مناجم له خاصةً في منطقة القوقاز وفي قبرص وفي اسبانيا. ونعلم أن اليونان كانوا من أكثر الشعوب استخداماً للبرونز في الألف الأول قبل الميلاد وكانوا يقصدون منطقة بزيتانيا (Bretagne) في فرنسا ـ قديماً كورنواي ـ Cornouailles ـ الغنية بمناجمها للحصول على الخامات المعدنية سالكين طرق المجاري النهرية في أوروبا الغربية (الدانوب، الرين، الرون، السين). أما الفينيقيون فكانوا أول من قصد كورنواي مبحرين عبر مضيق جبل طارق، طريقهم السري للحصول على المعادن.

والسؤال المطروح من أين كانوا يحصلون على القصدير في العصر البرونزي؟ من انكلترا؟ من شرقي إيران؟ من أفغانستان؟ ... حيث توجد مناجمه؟ يبقى مشكلة في وجه علماء الآثار تنتظر تفسيراً لها وحلاً، مثلها مثل العديد من المواضيع التي لا تزال قيد البحث.

الخزف: Céramique

تسمية تطلق على الفخاريات، وهي مأخوذة في اللغة الفرنسية عن اليونانية كيراميكوس (Kéramikos) أي المصنوع من الصلصال، وكانت اسماً أطلق على حي في مدينة أثينا، كان الخزافون يقيمون فيه مشاغلهم ويعرضون منتجاتهم للبيع، والخزف هو الفخار المطلي والذي يحمل رسوماً وأول ظهور له كان في أثينا ومنها انتشر إلى جميع انحاء العالم اليوناني قديماً وإلى معظم شواطىء حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومما لا شك فيه أن جميع المواقع الأثرية تقدم للباحثين كسراً فخارية تعتبر دليلاً أثرياً. فقد لقي الخزف منذ اختراعه رواجاً واستخدم لأغراض شتى تختلف في نوعيتها وأشكالها تبعاً للموقع وللمنطقة وللشعب. ودراسة الخزف القديم تشعبت اختصاصاتها وتعمق علماؤها في مواضيعهم حتى أنه أصبح بمقدرو الأخصائي منهم اعطاء الشكل الأساسي لآنية ما من خلال كسرة وتحديد تاريخها التقريبي. والفخاريات المدموغة أي التي تحمل آثار ختم اصبح من السهل جداً دراستها، وقد استعملت الخزفيات المشوية في نقل المنتجات كالزيت والنبيذ ... عبر المسالك والطرقات البرية والبحرية. ويكفي أن نتابع تواجد الفخاريات في مواقع العالم القديم المكتشفة لنتبين العلاقات التجارية بين شعب وآخر علماً أن هذه المادة السهلة المنال لم ينقطع استعمالها خلال العصور القديمة وما زالت حتى يومنا هذا، ونرى رغم الاكتشافات الحديثة والتطور التقني عودة إلى تبنيها من جديد كمادة رئيسة في صناعة الأدوات المطبخية بشكل خاص.

واستناداً الى هذه المادة التي لا تؤثر عليها العوامل الزمنية والطبيعية ارتكز العديد من العلماء والخبراء في دراسة تاريخ الحضارات القديمة وعلاقاتها

بعضها بالبعض الآخر من جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية... ومن المهم جداً أن لا تهمل الكسر الفخارية وأن تعطى أولوية على غيرها عند القيام بأعمال البحث والتنقيب في المواقع الأثرية.

وتقنيات صناعة الخزف القديم اختلفت من عصر الى آخر ومن منطقة الى أخرى وظهرت مدارس لها كمدرسة «Exetias» ذات الوجوه والمشاهد السوداء على أساس أحمر أو عاجي ومدرسة Euphronos ذات المشاهد الحمراء على أساس أسود (خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد في اليونان).

وتميز فخار منطقة على أخرى من حيث جودة الطينة الصلصالية ونوعية القصّار (Dégraissant) الداخل في تركيبها ومن حيث أناقة أشكالها وتنوع زخارفها وطريقة شيّها وأسلوب صياغتها واعتماده الأيدي فقط أم الأيدي والدولاب أم القوالب.

ودراسة الفخار وتطوره وأنواعه واسعة جداً ولا يمكن إيجازها في بضع صفحات أو في كتاب نظراً لشموليتها التاريخية والجغرافية فهي ترافق الانسان منذ نشأته حتى يومنا هذا، لكن لا بد لنا من القاء نظرة، ولو سريعة، على الخزف المطلي بالميناء.

لقد كان البابليون أول من اكتشف الخزف المطلي بالميناء خاصة ذي الألوان القوية كالأزرق والأخضر والأصفر وذلك منذ أواخر الألف الخامس قبل الميلاد. وأقدم الأشياء التي طليت بالميناء تعود إلى عهد تل حلف أو الفترة الحلفية في بلاد ما بين النهرين وإلى العهد البداري في مصر وكانت عبارة عن خرز ولكن سرعان ما اعتمد طلاء الميناء في تغليف الوجه البارز من المخروطات التي كانت تشكل نوعاً من الفسيفساء التي زينت جدران أوروك ومن ثم الصفائح التي غلفت جدران وباب عشتار في بابل وفرائز الأقواس ومنحوتات الأشوريين والبابليين التي نجد العديد منها في المتاحف. لكن الخزف المطلي بالميناء والذي ظهر عند المصريين القدماء يعتبر تقليداً لأنه اعتمد في تركيب الطلاء على الصوان وأوكسيد السيليسيوم الشبيه بالزجاج وأعطي اللونين الأزرق والأخضر باعتماد مركبات النحاس. وقد

صنعوا منه تماثيل صغيرة توضع مع الميت وأواني واغراض تزينية ولوحات كاملة نجد مثالاً عنها في القاعة الزرقاء في هرم جوسر في صقارة، بينما نجد أن الشرقيين قد اعتمدوا على أملاح القصدير في تلوين الميناء.

ويعود الفضل إلى شعوب بلاد ما بين النهرين ومصر في انتشار استعمال الطلاء بالميناء في حوض البحر الأبيض المتوسط قديماً. هذا، وقد نقل العرب هذه التقنية إلى الأوروبيين في العصور الوسطى والتي لا تزال تعتمد في أسسها على التقنية القديمة.

الزجاج:

الزجاج هذا الاكتشاف القديم الذي نستعمله بشكل واسع اليوم لم تستطع المواد البلاستيكية رغم سهولة تكييفها وتشكيلها من الحلول مكانه في مجالات عديدة حتى الآن.

ويعتبر اكتشاف الزجاج نتيجة لتطور صناعة الميناء ويعود الفضل في اكتشافه الى شعوب بلاد ما بين النهرين، وأولى العجائن الزجاجية كانت مركبة من الرمل والكلس وكربونات الصوديوم (Natron) أو الرماد مصهورة وملونة بالأوكسيدات المعدنية. ومن الألوان ظهر قديماً الأزرق والأخضر والأحمر والبنفسجي . ونجد بعض الأشياء الصغيرة الحجم المصنوعة من عجينة الزجاج في مصر منذ الألف الرابع قبل الميلاد، أي منذ عصر ما قبل السلالات، ويظهر أن هذه الأشياء صنعت صدفة، أي دون سابق تخطيط لها، وأتت نتيجة خطأ تقني (احتراق شديد غير مباشر أدى إلى تفتت القالب الأساسي). ولا نجد فعلياً أغراضاً مصنوعة مباشرة من عجينة الزجاج إلا في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، هذه الأغراض كانت تصنع بواسطة القوالب وتلوّن بألوان قوية ومتعددة ومنها الخرز والآنية والتماثيل والأساور.

ويبدو أن المصنوعات الزجاجية في بلاد ما بين النهرين، في بابل وفي نوزي (العراق) وخاصة في آشور كانت لها أفرانها الخاصة وتقنيتها تختلف

عن تقنية المصريين، مما يدل على أن اكتشاف الزجاج لم يكن له منطلق واحد قديماً. ففي وادي النيل لم يعمم الزجاج إلا اعتباراً من عهد الامبراطورية الحديثة وصانعو الزجاج مهروا في صناعة الأواني وتماثيل الحيوانات والتعاويذ والخرز باللون الأزرق، وخاصة في عهد العمارنة، في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، نجدهم يبرعون في صياغة الأشياء الصغيرة والوجوه الملونة، التي نجد الكثير منها في متاحف العالم، لتنتشر في حوض البحر الأبيض المتوسط وتصل إلى اسبانيا وحتى إلى انكلترا. ونجد أن المينويين يقلدون المصريين في صناعة الأشياء الصغيرة الزجاجية خاصة الخرز الذي اعتبر بمثابة الحجارة الكريمة عند الفقراء. كما نجد في تلك الفترة تقليداً أو استيراداً للزجاجٌ المصري في سوريا وفلسطين.

وقد وصلت صناعة الزجاج حتى بلاد الصين عن طريق التجارة مع الشرق الأدنى عبر الهند وأول ظهور لاستعماله كان في تنزيل الأواني المعدنية بعجينة الزجاج، ما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد.

ولكن الثورة الحقيقية في تقنية صناعة الزجاج هي في اكتشاف الزجاج المنفوخ والشفاف والتي يعزوها اليونانيون إلى الفينيقيين. ففي القرن الأول قبل الميلاد تغزو شهرة مشاغل صيدا وصور العالم القديم، وخلال قرن من الزمن يعم هذا الاكتشاف جميع ارجاء الامبراطورية الرومانية، ونجد له مشاغل في اليونان وفي مصر خاصة في الاسكندرية التي كانت تصدر منتجاتها حتى الأفغانستان والتي تحظى بشهرة واسعة آنذاك. وفي المقابل نرى الرومان الذين أخذوا هذه التقنية يقيمون مشاغلهم الخاصة في أواخر القرن الأول قبل الميلاد خاصة في بلاد الغول وفي اسبانيا.

وقد اصبح الزجاج في القرن الأول ميلادي ينفخ بواسطة أنبوب معدني لتصنع منه القناني والأوعية الشفافة والرقيقة على اختلاف أغراضها وأشكالها وأدخلت عليه الزخارف النافرة أو المضافة أو المصبوبة. وقد استمرت صناعة الزجاج بطرق مختلفة وظلت عملية صبه في قوالب دارجة في صياغة الأواني التي تأخذ أشكال الحيوانات والرؤوس البشرية ... وحتى أشكال الفاكهة.

في منتصف القرن الأول ميلادي صارت عجينة الزجاج تصب على ألواح معدنية أو زجاجية لتصنع منها المرايا وألواح النوافذ الزجاجية الشفافة والتي ظهرت أيام نيرون، ولكنها ظلت نادرة. والكاتب سينيك (Sénèque)، من القرن الأول ميلادي، يخبرنا أنه في أيامه كان الأغنياء يسدّون نوافذهم بألواح زجاجية، وهذا ما أكدته التنقيبات الأثرية في مدينة بومباي (Pompéi) في ايطاليا، حيث قطع الزجاج ما زالت عالقة في نوافذ قاعات الحمامات. ولكن هذه التقنية اختفت لتعود وتظهر فيما بعد في اوائل عصر النهضة في إيطاليا.

العاج:

عديدة هي الشعوب التي حظيت بالعاج، خاصة تلك التي كان مصدره قريباً منها. والعاج كان يؤخذ من أنياب الفيلة ومن قرون بعض الحيوانات وأسنانها كفرس البحر. ونجد أن أقدم استعمال له كان في مصر ومن أهم النماذج قبضة سكين جبل الأرك (جبل في مصر العليا، شرقي النيل) التي نقشت وجوهها بمشاهد الصيد والحرب، وقد عثر في مصر على العديد من مقابض السكاكين ذات النصال الحجرية والتي تعود بتاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، وإلى أواخر هذا الألف يعود تاريخ الكنز العاجي الذي تضمن منحوتات وتماثيل ولوحات، اكتشفت الى جانب أواني حجرية وتماثيل صغيرة مطلية بالميناء... في مخابىء هيراكونوبوليس (Hiérakonopolis) والتي كانت تعتبر العاصمة الفيدرالية لمصر العليا. وفيما بعد ظل المصريون يستخدمون العاج في صناعة طاولات الكتابة ونزّلوه في خشب الأبنوس الذي صنعوا منه أثاثاتهم وخزائنهم وقبضات أسواطهم ومراوحهم.

أما في بلاد ما بين النهرين فاستعمال العاج كان قليلاً في العصور القديمة، وقد عثر على بعض الأعمال العاجية ومنها علم ماري وأسرة وعروشاً أشورية، قدمت كجزية لنينوى، ولوحات أخرى عثر عليها من

خورسباد ونمرود، كانت تزين بها الأسرة والعروش، وبعضها يعتبر من أجمل الأعمال الفنية، كتلك التي تمثل أسداً يفترس شاباً أسود أو كقناع الأنثى الذي أطلق عليه مكتشفه اسم موناليزا (Monalisa) لشدة جماله. كذلك هناك كمية من العاجيات التي عثر عليها في ارسلان طاش وفي سمارية وفي مجدو. ونلاحظ في هذه العاجيات التأثيرات المصرية والفينيقية وتأثيرات بلاد ما بين النهرين مختلطة سواء كان في الموضوع أو في الطراز الفني. ومنها:

- حوروس على زهرة لوتس من أرسلان طاش وتعود الى القرن التاسع قبل الميلاد ويظهر فيها التأثير المصري.

- عقاب أو عنقاء من مجدو، من القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد ويظهر التأثير الفينيقي وتأثير بلاد ما بين النهرين.

ويبدو أن هذه العاجيات كان مصدرها مشاغل سوريا وفلسطين، ومعلوم أن أوغاريت في سوريا كانت مركزاً لصناعة العاج وهذا ما تدل عليه عائدات قصرها العاجية والتي يمثل بعض منها أفراد العائلة الملكية في القرن ١٤ ق.م.

كثيرة هي أيضاً عاجيات العالم الإيجي من تماثيل كريتية وميسانية ولوحات وخزائن مزخرفة من ديلوس (Délos) ومن قبرص ... خاصة تلك التي تمثل العنقاء والتي تذكرنا بعاجيات مجدو، والبقرة المرضعة في ارسلان طاش تذكرنا بنفس الموضوع الذي مثّله المينويون على لوحات طليت بالميناء. ويظهر أن العاج أصبح وافراً في العصور الكلاسيكية القديمة في اليونان وتمكن الفنانون من صناعة الأقسام العارية من الأجسام منه وبرعوا في صياغتها ونحتها والتماثيل المصنوعة من الذهب والعاج (Chryséléphantines) والتي صاغها فيدياس في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد ومنها زيوس الأولمبي وأثينا بارتينون، وهيرا الأرجية التي صاغها بوليكليت تعتبر من أروع الأعمال الفنية.

ومع أن اليونان والرومان من بعدهم قد عرفوا العاج لكننا لا نجد إلا القليل منه في المواقع الأثرية التي تعود الى أواخر العصور القديمة واستعماله كان لأغراض تزينية فقد زخرفت به أثاثات البيوت وصنعت منه مقابض الأسلحة والتماثيل الصغيرة ودخل في تزيين وزخرفة الجدران والبوابات. وعلى الرغم من أن أفريقيا كانت من أهم مصادره إلا أنه لم يصنع فيها في العصور القديمة على عكس بلاد الهند التي استعملته بكثرة. وتدل بقايا المكتشفات العاجية على أن تجارة العاج بدأت منذ العصر الحديدي بين مناطق أفريقيا الحارة وشواطئها الشمالية والمحيط الهندي.

ـ الباب الثاني ـ
الآثار المدنية

البيت ـ هيلاني :

بيت ـ هيلاني، لفظة سامية تعني «بيت بنوافذ»، تميزت به سوريا الشمالية. وهو عبارة عن بناء يتألف من رواق أمامي، في واجهته عامودان أو ثلاثة، يؤدي إلى قاعة عموماً عرضها أطول من عمقها، تحتوي موقداً. تتوزع أحياناً عند جدار القاعة الداخلي وعلى جوانبها غرف أخرى، وقد نجد عند أحد جوانب القاعة سلماً يؤدي إلى الطوابق العلوية؛ كما تتعدد الغرف الجانبية وتتفرع لتكون قصراً واسعاً وفي هذه الحال يصبح البيت ـ هيلاني عبارة عن جناح مستقل أو يشكل واجهة للقصر.

أقدم نموذج للبيت ـ هيلاني ـ القصر هو قصر يا ريم ليم في ألالاخ ويعود بتاريخه الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وقصر أوغاريت الذي يرجع الى العصر البرونزي.

إنتشر هذا الطراز من البناء في العصر الحديدي خاصة في المدن السورية ـ الحثية في زنجرلي وتل حلف وتل تعنات، وفي آشورية؛ قصر آشور بانيبال، في نينوى؛ كذلك في فلسطين في مجدّو، القصر الجنوبي وفي القدس، قصر سليمان.

ازدانت هذه الأبنية أحياناً بالمنحوتات في الأقسام السفلى من الواجهة المكونة من «أورتوستات»، كما زخرفت بعض الغرف الداخلية كما في قصر آشور بانيبال حيث مثلت المنحوتات مشاهد مجالس الطعام والشراب والصيد والحرب. إضافة الى ذلك فقد ازدانت جوانب الأبواب واعتابها بتماثيل الحيوانات خاصة الأسود.

البيت:

البيت بالنسبة للهندسة الشرقية يعني باحة تتوزع حولها مجموعة من الغرف، وقد اتبع في هيكليته العامة طراز القصور القديمة في بلاد ما بين النهرين، ومجموعة الغرف، وعددها ثلاثة أو خمسة، تنتظم حول الباحة المركزية وتتبع في تخطيطها أحد الطرازين التاليين: إما أن تتقدم البيت الباحة ونلجه بواسطة باب يؤدي إلى غرفة مستطيلة الشكل تتوزع عند جهاتها الكبرى الغرف، وهذا الطراز هو الأكثر شيوعاً في سوريا، أو أن البيت يحتوي على مدخل واسع يؤدي الى قاعة مستطيلة عند آخرها توجد بقية الغرف، والقاعة تدعى «الليوان» والمدخل الواسع يدعى «الإيوان». وقد تفصل الليوان عن بقية الغرف أعمدة تؤدي إلى رواق. ظهر الإيوان في عصر البارتيين، وانتشر البيت ذو الإيوان في العالم العربي خاصة أيام العباسيين.

الميغارون:

الميغارون (Mégaron) لفظة يونانية تعني «قاعة كبيرة»، اعتمدها علماء الآثار للدلالة على نموذج من الأبنية المؤلفة من قاعة كبيرة مربعة الشكل يتقدمها ممر واجهته مفتوحة يشكل رواقاً. ويختلف ترتيب الميغارون من الداخل ولكنه غالباً ما يحتوي على موقد تحيط به أربعة أعمدة تحمل منوراً معداً في السقف يسمح بخروج الدخان، وقد يحتوي الميغارون على غرفة ثانية تفصل بين الرواق الأمامي والقاعة الرئيسية.

ظهر الميغارون منذ العصر النيوليتي، وأقدم ميغارون في سيكلو (Seklo) يعود بتاريخه إلى الألف الخامس قبل الميلاد، وقد أظهر التنقيب الأثري أن طراز الميغارون لم يقتصر بناؤه على المناطق الشمالية الباردة والرطبة مثل البلقان، فقد عثر على مساكن ـ ميغارون في بلغاريا وألمانيا كما عثر عليه أيضاً في مواقع كالكوليتية في الشرق الأدنى في جرش ومرسين وهي مناطق

حارة وجافة. وسقف الميغارون ذو منحدرين يسمحان بانسياب المياه في الشتاء وتجميعها وتخزينها لأيام الصيف.

انتشر الميغارون في العصر البرونزي ويعزا انتشاره إلى عهد وصول الشعوب الهندو ـ أوروبية وقد وصفه هوميروس في قصائده. ويعتبر بعض العلماء أن المعابد ذات الأروقة الأمامية المفتوحة إنما أخذت تصاميمها، أو استوحيت، من الميغارون.

القصور:

إن فرصة اكتشاف قصر ما تعتبر أمنية علماء الآثار والسبب في ذلك ليس فقط أن أجمل القطع الأثرية المكتشفة فيه ستتصدر المتاحف إنما هو كون القصر يعتبر دليلاً قاطعاً على وجود دولة أو سلطة مركزية يقيم حاكمها فيه إضافة إلى الهيئات المنفذة للأحكام والى المستندات من رُقم ونصوص ومخطوطات تعطي معلومات ثمينة وتلقي الضوء على مرحلة تاريخية وتكون وثائق لا شك فيها. فحصاد قصور كنوسوس وبيلوس في كريت وأوغاريت وماري في سوريا وألالاخ وحاتوشا في تركيا وغيرها ... من الرقم ومكتبات قصور الآشوريين وما ضمته من نصوص أدبية ودينية وأرشيف إداري لا تفوق قيمته العلمية قيمة أخرى.

لكن، متى بدأ بناء القصور، وما المبدأ الذي اعتمد في بنائها، وكيف تطور مفهومها عند الشعوب القديمة؟

لقد غطت مصر قصور الفراعنة الذين لم يكتفوا بما ورثوه عن اسلافهم فوسعوا بعضها مضيفين إليها أجنحة جديدة كما شيدّوا قصورهم الخاصة وفق مزاجهم أو ذوقهم أو لمناسبات مختلفة، فرعمسيس الثاني شيّد قصراً فخماً في الصحراء على الطريق إلى سوريا لاستقبال عروسه ابنة ملك الحثيين. ولا نعلم الكثير عن هندسة قصور الامبراطورية المصرية القديمة التي تعود بتاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد لأن المواد التي استخدمت في بنائها من طوب وخشب لم تستطع مقاومة العوامل الطبيعية والزمنية ولكن

البروتوكول الملكي يجعلنا ندرك اتساع قصور الملوك ـ الآلهة التي كانت تشيد في نواحي الأهرامات، حيث عاش هؤلاء محاطين بحاشية من العبّاد والموظفين. كذلك الأمر بالنسبة لقصور الامبراطورية الوسطى، لكن قصور الامبراطورية الحديثة، واعتباراً من القرن السادس عشر قبل الميلاد، ألقت بعض الأضواء على هذا المجال خاصة بعض عناصر قصر أمينوفيس الثالث في طيبة ورعمسيس الثاني في قنطير في الدلتا (Qantir)، وستي الأول في أبيدوس، ومنبتاح في ممفيس ورعمسيس الثالث في مدينة ـ حبو وأخناتون في أخناتون، فقد كانت عبارة عن ثلاثة أجنحة أو أحياء: مساكن الخدم وهي عبارة عن بيوت صغيرة إفرادية، مسكن خاص بالملك، وقاعات رسمية. مسكن الملك الخاص يتألف من جناح الملك وجناح الحريم حيث تعيش الملكة والسراري والأطفال الملكيين ويشرف عليه جيش من الموظفين ويخلو من الخصيان. أما القاعات الرسمية فتشمل سلسلة من الباحات والأروقة، والقاعات المعمدة والممرات وغرف التجلي. وكانت للقصور شرفة تدعى «شرفة الظهور» يطل منها الملك على اتباعه موزعاً الامتيازات والمكافآت.

في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ظهر القصر في بلاد ما بين النهرين وكان نتيجة لفصل السلطات الدينية والمدنية، إذ اصبح الملك والكاهن شخصين مميزين عن بعضهما البعض بعد أن كانا شخصاً واحداً هو الملك ـ الكاهن. فقد ترك الملك المعبد وصار محارباً وحاكماً. وأول قصر أقيم خارج الأرض المقدسة حيث مسكن الإله هو قصر كيش وكان مؤلفاً من مجمعين بنائيين ضخمين يفصل بينهما ممر، ندخلهما عبر باب محصن، ويحيط بهما سور مزدوج، كما في قصر أريدو المعاصر له، وللفترة نفسها يرجع تاريخ قصر تل الأسمر وأول قصر في ماري، وقد ادخلت تعديلات على قصر تل الأسمر ووسّع في أوائل العصر الأكدي واحتوى على جناح خاص للنساء ثم أضيفت إليه منشآت صحية. وإلى عهد «أكد» يعود تاريخ قصر نارام سين المحصن في تل براك. ويعتبر قصر ماري من العصر البرونزي «فرساي عصر البرونز» وقد ادخلت عليه بعض التعديلات أيام زيمري ليم في أوائل الألف الثاني قبل الميلاد. ونجد نماذج عن هذه القصور ذات

الجدران السميكة المبنية من الطوب والمؤلفة من العديد من القاعات والمخازن الموزعة عند الباحات عند الآشوريين وأهمها قصر سنحاريب في نينوى وسرجون في خورسباد وآشور ناصر بال الثاني في نمرود وفي تل برسيب وارسلان طاش في سوريا وقصر بنوخذنصر في بابل.

أما القصور السورية ـ الفلسطينية فنجدها قريبة من طراز بلاد ما بين النهرين ولكنها غالباً ما تتميز بصفات فريدة، فقد بنيت من الحجارة ومنها قصور أوغاريت في سوريا وقصور سمارية ومجدّو في فلسطين.

رغم التأثيرات الواضحة لهندسة قصور بلاد ما بين النهرين فإن قصور النيو- حثيين في كركميش وألالاخ وتل حلف وكراتيبيه وزنجرلي ... تتميز بالأورتوستات المزخرفة بالمنحوتات وبالبيت ـ هيلاني، كما أن قصور الأخمينيين في سوسه وبرسيبوليس احتوت قاعات واسعة معمدة تدعى قاعات العرش أو الأبادانا.

أما القصور الكريتية من العهد المينوي الأوسط وأهمها في كنوسوس وفايستوس وماليا وزاكروس فتتألف من مجموعة من القاعات ومن الأروقة الطويلة المتمحورة حول باحة مبلطة ومستطيلة، وهي في الواقع كانت مقر الملوك ـ الكهنة.

من القصور اليونانية الكبيرة قصر بروشيون (Bruchion) مسكن البطالسة في الاسكندرية وقصر السلوقيين في انطاكية، لكن لم يبق من آثارها ما يشير الى مسكن الملك، إلا أنها عبارة عن بيوت فخمة تحيط بها الأعمدة، وأجمل نموذج عن القصور اليونانية قصر بالاتيذا (Palatiza) في مقدونية بواجهته الشرقية التي تجاوزت الثمانين متراً وبأروقته الدورية وأعمدته الأيونية وقاعاته المبلطة وحديقته المحاطة بالأعمدة. كذلك الأمر بالنسبة للقصور الرومانية التي لم يبق من عناصرها البنائية إلا القليل وأشهرها بيت نيرون «المذهب» في روما.

أما قصور البيزنطيين فقد اشتهرت بالفسيفساء كما اشتهرت قصور البارتيين والساسانيين بالإيوان والقباب، وتأثرت القصور الاسلامية الأموية بالإيرانيين كما في قُصَيّر عمره والمشتى وقصر الوليد وقصر التوبة.

الأكروبول:

الأكروبول أو «المدينة العالية»، عرفت في العالم اليوناني القديم ـ «Acropolis»، وأخذت صفة المدينة ـ الحصن التي تنتشر عند أقدامها المدينة السكنية.

لقد اختار الانسان منذ عصور ما قبل التاريخ المناطق التي توفر له حماية طبيعية مسكنا له فلجأ إلى المرتفعات واتخذ منها تحصيناته، وهذا ما نجده في مختلف أنحاء العالم خاصة في الشرق الأوسط وأوروبا.

واعتباراً من القرن الخامس عشر حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد نرى الامراء المحليين يقيمون فوق المرتفعات قصورهم، وفي العصور التاريخية تتحول قصور الملوك إلى معابد والمدينة العالية الى منطقة مقدسة كما في أكروبول أثينا.

على هذه المرتفعات أو المدن العالية «تكدست كنوز أثرية بعضها يسهل الارتقاء إليه وبعضها الآخر يصعب الوصول إليه كما في أكروبول كورنثيا المدعو «أكرو كورانث». إضافة إلى ذلك فقد احتل الأكروبول أحياناً مساحات واسعة وضم عدة أبنية مدنية إلى جانب الأبنية الدينية كأكروبول برغام (Pergame).

المدن:

تظهر خرائب المدن القديمة وبقاياها على نمطين: على شكل تل يرتفع وسط سهل ولا يبرز منه أي أثر لبناء كما هي الحال بالنسبة لمدن الشرق المبنية من اللبن والمطمورة تحت الرمال والأتربة، وتدعى هذه «تل» باللغة العربية و «كوم» بالمصرية و «تيبي» أو «هويوك» بالتركية، أو على شكل

حقل من الخرائب حيث توجد مجموعة من الأبنية الحجرية أو من اللبن المشوي كما في المدن اليونانية والرومانية.

كثيرة هي المدن الأثرية في العالم القديم وعديدة هي المدن الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط والتي كشف عن مساحات منها وكانت تغطيها الأبنية من معابد وقصور ومنازل وتوابعها من طرقات وساحات وحمامات وأسوار ... ومع أنه حتى الآن لم يتم الكشف عن مدينة بكاملها، ومع أن الأقسام المكتشفة لا تشكل إلا جزءاً من كل، فهي تعطينا فكرة واضحة عما كانت عليه المدن القديمة وعن الدور السياسي أو الاقتصادي أو الديني الذي لعبته في فترة زمنية محددة، ومن هذه المدن نذكر، على سبيل المثال لا الحصر. أوغاريت (سوريا)، جبيل (لبنان) لبتيس ماغنا (ليبيا)، ماري (سوريا)، وبومباي (ايطاليا) ...

الساحات العامة:

إن ساحاتنا اليوم ما هي إلا مساحات فارغة يمر فيها الانسان راجلاً أو راكباً متجاهلاً الآخرين. وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عما كانت عليه الساحة العامة قديماً، أو الفوروم (Forum) فما علينا إلا أن نتمشى في الساحات العامة لمدن جنوبي ايطاليا خلال أمسيات الصيف.

لقد كانت الساحة العامة قلب المدينة النابض، فيها يلتقي الناس للتداول بالشؤون العامة والخاصة ويعرض الباعة بضائعهم ويشتري الزبائن حاجياتهم، وفيها يلتقي الاصدقاء يتنزهون ويتسامرون، وكل سائل عن شخص ولم يجده في بيته سيجده فيها. ليس هذا فحسب، فحول الساحة العامة تقوم أهم الأبنية الدينية والمدنية: الكابيتول حيث ثلاثية معابد الآلهة حامية المدينة جوبيتر جينيون ومينيرفا والمعابد الأخرى، والكوري أو مقر البلدية أو المحافظة كما في أيامنا، والبازيليك وهي مقر ومركز التداول بالقضايا العامة والخاصة وحيث تلتئم المحاكم وتجري أعمال البورصة، وقاعات الانتخابات، ومنصات الخطابة، والمحلات التجارية، والسجن، والمراحيض الشعبية، عدا عن المذابح والنصب التذكارية والتماثيل وقواعدها التي تحمل الكتابات ...

فيتروف (Vitruve) المهندس الروماني الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، صاحب بحث «الهندسة» (De architectura)، وضع قوانين وشروطاً للتقاليد التي اتبعها اليونان والرومان في هندسة الساحات العامة قائلاً: «الساحات العامة عند اليونان مربعة، وحولها من كل الجهات أروقة مزدوجة وواسعة، أعمدتها قريبة جداً من بعضها البعض، وتحمل ساكفاً من الحجر أو المرمر وفوقه أروقة. ولكن هذا لا يجب اعتماده في مدن ايطاليا، لأن العادة القديمة هي جعل الشعب يشهد قتال المتصارعين في هذه الساحات، ولمثل هذه المشاهد يجب أن تكون المسافات بين الأعمدة أعرض بكثير، وتحت الممرات محلات المتبادلين وكذلك الأروقة الموجودة فوقها يجب أن تتوفر لها المساحة الضرورية للقيام بالتبادل التجاري واستيفاء وتحصيل الأموال الشعبية، واتساع الساحات العامة يجب أن يكون نسبياً مع السكان مخافة أن تكون صغيرة جداً إذا كان هناك أناس كثيرون لهم شأن فيها، أو أن تظهر واسعة جداً إذا لم تكن المدينة كثيرة السكان».

هكذا فإن الساحة العامة هي قلب المدينة الرومانية، مركزها الاقتصادي، السياسي، القضائي والديني، وقتال المتصارعين أخذ في أصوله صفة طقوسية دينية.

لكننا عند بومبيوس فيستوس (Pompeius Festus) ومن بين المفاهيم الستة التي اعطاها لكلمة فوروم نجد «الساحة حيث تقوم العدالة، حيث نتناقش مع الشعب، حيث تلتئم عادة المجالس الشعبية» وكذلك الرواق المصوّن الذي يتقدم المدفن. ويبدو أن مفهوم الفوروم قديماً كان يقصد به الباحة أو المساحة المصونة المحيطة بالبيت.

في المدن الرومانية التي اتبعت تخطيطاً هندسياً نجد أن الساحة العامة احتلت وسط المدينة تقريباً، حيث يلتقي طريقا الكاردو والديكومانوس: الكاردو يأخذ اتجاه شمال ـ جنوب والديكومانوس شرق ـ غرب، ولم يكن هذان الشريانان الحيويان يعبرانها إنما يحازيانها. هذه الساحة كانت مبلطة بالحجارة وممنوعة على العربات ومغلقة بسور من الأروقة والمباني العامة، وقد تكون الأخيرة مبنية على أرض الساحة بالذات، وفي الأروقة

وفي الساحة كانت ترتفع التماثيل والنصب المنحوتة تكريماً للمحسنين، للكهنة، للشيوخ وللأباطرة.

بعض المدن الهامة كثرت فيها الساحات، خاصة المدن ـ الموانىء، فنجد إلى جانب الساحة العامة ساحة تجارية تقع غالباً قرب أرصفة المرفأ. في روما قرب الفوروم الروماني بين البالاتين والكيرينال كثرت الساحات التي حملت اسماء الأباطرة مثل ساحات: قيصر، أغسطس، السلام، تراجان، نرفا وقد شيدها الأباطرة تخليداً لذكراهم وقد أخذت هذه الساحبات فيما بعد طابعاً تجارياً واقتصادياً واعتبرت ثانوية وهي أصلاً مستوحاة من الساحة اليونانية أو السوق اليونانية المدعوة أغورا (Agora).

إضافة إلى ما تقدم، هناك ساحات عامة أو فوروم أخذت طابعاً خاصاً إذ كانت تقام فيها أسواق متخصصة وفي أيام محددة فنجد فوروم بيسكاتوريوم (Piscatorium) أي سوق السمك، وفوروم بيستوريوم (pistorium) أي سوق الخبز، وفوروم هوليتوريو م (holitorium) أي سوق الخضار، وفوروم كوبيدينيس (Cuppidinis) أي سوق الحلوى، هذه الأسواق كانت في بعض الأحيان أبنية فعلية مؤلفة من ساحة مربعة الأضلاع تحيط بها الأروقة التي تفتح عليها الدكاكين وفي وسط الساحة توجد عادة عين ماء أو بناء تذكاري دائري فيه حوض ماء، نذكر من هذه الساحات، المدعوة ماسيللوم (macellum)، في: روما، بومباي، بيرجي، أمنسوس، تمغاد، جميلة، كرمنا وساغالاسوس.

الأسواق:

كثيرة هي أساليب ووسائل تعاطي الانسان مع الآخر، بدءاً من الاشارة المتبادلة إلى الكلمة فالفكرة ... فالحاجة المادية التي نجد أنها لم تتوقف رغم مرور آلاف السنوات ورغم التطور الحضاري الذي وصلنا إليه والقائم على التفاعل المباشر أو غير المباشر، ووجود الأسواق التجارية اليوم المحلية والمشتركة ... ما هو إلا نتيجة لتطور عمليات التبادل التجاري الفردي الذي كان ولا يزال يعتمد على العرض والطلب والسعي لتحقيق الغاية المنشودة بأساليب

بعضها تطور والآخر ما برح قائماً نصادفه وقد لا نوليه أية أهمية لأننا حيثما توجهنا وفي أي بلد أو دولة كنا نراه لا يختلف في أسلوبه وغايته عن أي بلد آخر. واسطع شاهد على ما تقدم الباعة المتجولون ببضائعهم التي يحملونها بين أيديهم أو القابعون على رصيف الشارع أو عند مفترق طرق مجاهرين بمواصفاتها عارضينها للبيع، وقد نجد عند بعضهم حاجتنا، ولو سمح لنا ظرف تتبع ومراقبة أحد هؤلاء الباعة لوجدناه بعد فترة زمنية قد تقصر أو تطول يتخذ لنفسه موقعاً معيناً وقد ينوع بضائعه ويطور اسلوب عرضه وإن تيسر له الأمر ينتقل إلى دكان ... ونموذج الفرد هذا ينطبق على الجماعة. فالأسواق المحلية الآنية أو الظرفية التي تقام في موقع محدد وفي يوم محدد من الأسبوع، كسوق الخميس أو سوق الأحد... والتي ينتظرها الناس ويعتبرونها تقليداً محلياً لا تلبث أن تتحول إلى أسواق دائمة وثابتة والعرض في الهواء الطلق يتحول إلى داخل حوانيت ومخازن ترتيبها الداخلي يشير إلى نوع التجارة التي تتم فيها.

إن حاضرنا اليوم ما هو إلا صورة للماضي القريب والبعيد، رغم وجود بعض المفارقات التي لا تمس الجوهر والمفهوم، وهذا ما ندركه فيما تبقى من آثار الحوانيت والأسواق التي كانت تنتظم حول الساحة العامة وفي محيطها.

خلال أعمال التنقيب في المواقع الأثرية لا نعثر سوى على القليل من معالم الحوانيت والأسواق حتى أنه في كثير من الأحيان لا يمكن تمييزها من المساكن، لكن بعضها خاصة ما احتوى منها على محترف أو مشغل احتفظ بجزء مما يوضح مهمته يعتبر من الآثار الهامة التي تبرز فيها المعالم الحضارية عند الشعوب القديمة ومن أهمها في العالم العربي، والتي تعود بتاريخها إلى العصور الرومانية، أسواق: دمشق، أفاميا وتدمر في سوريا، جرازا قرب جرش في الأردن، الاسكندرية في مصر. تمغاد في الجزائر، فوليبيليس (Volubilis) المعروفة بقصر فرعون في مراكش ... وقد كانت هذه الأسواق تتوزع عند أروقة الشوارع الرئيسية المتفرعة عن الساحة العامة.

المكتبات:

معابد المعرفة وذاكرة العالم، إنها المكتبات التي خصصت لها منذ أبعد العصور القاعات في القصور والمعابد ثم الأبنية المستقلة، وأقدمها كانت في سومر وفي سوريا وفي مصر.

ففي مصر كانت المكتبات ملحقة بالمعابد ومنها «قاعة الكتب» في معبد دندره (Dendérah) وقد زخرف باب مدخلها بلوحة «الكاتب»، وقاعة معبد أدفو (Edphou) التي تحمل جدرانها لوائح المؤلفات. ولم يقتصر وجود المكتبات على المعابد فقط، فقد عثر على بعض المكتبات الخاصة ومنها مكتبة ورد ذكرها في قصة ساتني - خامويس (Satni-Khamoés) تفيد بأن آنية من الفخار المشوي احتوت لفائف البردى المخطوطة كانت مرتبة في قاعة سفلية.

أما في سوريا وفي بلاد ما بين النهرين وفي آسيا الصغرى فقد كانت بعض قاعات القصور مخصصة للأرشيف المكون من ألواح من الطين المشوي، حملت نصوصاً قضائية سياسية واقتصادية ... أكثر منها أدبية، وضعت إلى جانب بعضها البعض أو كدست فوق بعضها وقد اكتشف من هذه المكتبات ـ الأرشيف في بيلوس (Pylos، اليونان) وكنوسوس (كريت)، وفي أور وماري ولاغاش في سومر، وفي تل مرديخ وأوغاريت وألالاخ في سوريا، وفي حاتوسّا وسلطان تيبي ـ حرّان ـ في تركيا، ولكن أهمها مكتبة آشور بانيبال في نينوى التي احتوت على أربع وعشرين ألف لوحة تمكن العلماء بواسطتها من فك رموز الكتابة المسمارية. أما مكتبة ماري، التي اكتشفت سنة ١٩٧٤ فقد احتوت على ما يزيد على خمس عشرة ألف لوحة أو كسرة. تعود بتاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، كتبت نصوصها بلغة سامية قريبة من الفينيقية ويعمل على ترجمتها حالياً.

كان اليونان أول من شيّدوا أبنية غايتها احتواء الكتب ومن أشهرها مكتبة

الاسكندرية، في مصر، التي أقامها بطليموس الأول والتي ضمت أكثر من ثمانمئة ألف مؤلف وقد احترقت ونهبت عدة مرات وكانت مركزاً يجتمع فيه العلماء، ومما يؤسف له أن بناءها تهدم كلياً ومثلها مثل منافستها مكتبة برغام (Pergame) في تركيا. رغم أنه لم يبق من أبنية هذه المكتبات سوى «الذكريات» لكن علم الآثار استطاع احياء بعض الأبنية التي تعود إلى العصر الروماني والتي كانت عبارة عن «مكتبات عامة» ومنها مكتبة أوغسطس في روما وتعتبر من أقدم المكتبات الرومانية وتعود بتاريخها الى القرن الأول قبل الميلاد وقد تحولت إلى كنيسة سانتا ماريا أنتيكا (Santa Maria Antiqua)، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة فصل داخلها برواق في وسطه ركائز تحدد قاعة المطالعة وقد الحقت بها قاعات جانبية ضمت الكتب. ومن أهم المكتبات الرومانية المستقلة مكتبة سلز (Celse) في أفسوس (Ephèse) وتعود بتاريخها إلى عهد تراجان (Trajan)، تتقدم واجهتها الأعمدة وهي عبارة عن قاعة فسيحة للمطالعة، طولها ١٦,٥٠م وعمقها ١١م، في صدرها حنية كبيرة كان يرتفع فيها تمثال الآلهة أثينا التي اعتبرت مقررة مصير المكتبات، يحيط بالقاعة صف أعمدة داخلية يعلوه صف آخر من الأعمدة يشكلان طبقتين، وقد جهزت الجدران بحنايا مربعة، بلغ ارتفاع الواحدة منها ٢,٨٠م وعرضها متر وعمقها ٠,٥٠م، حوت المخطوطات. ومكتبة نيزا في تركيا، التي تعود بتاريخها الى القرن الثاني ميلادي، ما زال قسم من بنائها قائماً، فقد كانت مبنية من حجارة نحتت بزوايا مربعة أضفت عليها القوة وتدل معالمها على تصميمها المستطيل الشكل والمؤلف من طابقين، وقد جهزت جدرانها السميكة بحنايا مقببة لاستقبال المخطوطات. أما قاعة المطالعة المركزية فكان يحيط بها رواق تحده الأعمدة.

هذا ونجد عدداً من المكتبات في الساحات العامة مثل مكتبة ساحة أدريان في أثينا أو في القصور مثل «البيت الذهبي» لنيرون في روما أو فيلا أدريان في تيبور (تيفولي في أيطاليا) أو في الحمامات مثل حمامات كركلا في روما. كما أن بيوت الأغنياء كانت لها مكتباتها الخاصة، فقد حفظت حمم بركان فيزوف (Vésuve) مكتبة فيلا بيزون (Pison) في هيركيلانوم

(Herculanum)، وكانت عبارة عن قاعة مربعة طول ضلعها ثلاثة امتار احتوت مخطوطات من ورق البردى. وفي القرن الرابع ميلادي، أيام قسطنطين، ضمت روما ٢٨ مكتبة عامة، أما مكتبة تمغاد في الجزائر فكانت مكونة من قاعة فسيحة، نصف دائرية، ارتفعت في داخلها الأعمدة وتوزعت الحنايا المهيأة في الجدران لاحتواء المخطوطات، تتقدمها باحة تحدها الأعمدة وتقوم عند جوانبها الغرف المستطيلة.

لقد اتبع تصميم المكتبات، كما لاحظنا، مبدأً عاماً يرتكز على قاعة للمطالعة، غالباً ما تكون غنية بالزخارف، تتوزع حولها الحنايا أو الكوى الجانبية المخصصة لاستقبال المؤلفات إضافة إلى الغرف المجاورة التي اعتمدت لتخزينها أو حفظها وكمكاتب لحافظ المكتبة وموظفيها. ونحن اليوم لم نبتدع جديداً في هذا المجال، رغم التطور التكنولوجي في تصنيف الكتب وتبويبها، وما زلنا نعتمد الأسس والمبادىء العامة القديمة.

المسارح: Théâtre

إن أول شعب حاول التعبير عن أعماله الأدبية والموسيقية وإيصالها إلى عامة الناس هم اليونان، فقد أنشأوا تحقيقاً لذلك المسرح «تياترون» (Theatron)، أي مكان التأمل والمشاهدة، فأصل هذا البناء يوناني وفيه كانت تقدم وتمثل الأعمال الأدبية المأسوية أو الكوميدية.

طوال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانت تلعب المأساة والكوميدية على مسارح خشبية، أو منصات، وكان الجمهور يأخذ أماكنه على مدرجات خشبية. وأولى المسارح المبنية في اليونان كانت مستطيلة الشكل، احتلت المدرجات ثلاث جهات منها وخصصت الجهة الرابعة للأوركسترا، أي لفرقة الممثلين أو الموسيقيين، وأول مسرح من هذا الطراز هو مسرح سيراكوز (Syracuse) في صقلية، ومسرح ديونيسوس في أثينا، ومسرح سيرين (Cyrène) في ليبيا.

يعزو البعض عملية بناء المسارح الحجرية إلى الشعور بأهمية ما ألفه الكاتبان أوريبيد وأرسطوفان (Euripide et Aristophane)، ففي القرن الرابع قبل الميلاد اعتبرت مؤلفاتهما ومؤلفات كبار الأدباء اليونان كلاسيكية، وظهرت أولى المسارح النصف دائرية ذات الأوركسترا الثابتة والمدرجات الحجرية. وقد بلغ عدد المسارح التي تعود بتاريخها إلى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد أكثر من ثمانين مسرحاً، توزعت في ارجاء العالم اليوناني، وبعضها رمّم أو أصلح في العهود الرومانية.

ونستطيع تمييز المسارح اليونانية من المسارح الرومانية من خلال بعض المواصفات الرئيسية. فالمسرح اليوناني يتألف من ثلاثة أقسام:

- مسرح التمثيل: Scène أو Skéné باللغة اليونانية

- الأوركسترا: Orchestre أو Orchestra باللغة اليونانية، مشتقة من Orkheomai وتعني رقص

- الكافيا: أو تجويف المدرجات: Cavea لفظة لاتينية يقابلها باليونانية Theatron.

الكافيا أو مدرجات المشاهدين كانت موزعة أفقياً إلى طبقات تفصل بينها ممرات مسطحة ضيقة وموازية للمدرجات التي تأخذ شكل ثلثي الدائرة تقريباً، ومقسمة عامودياً بواسطة سلالم تتبع إتجاه أشعة الدائرة. كلها مبنية من الحجارة على منحدر تلة طبيعية تدعم أطرافها الجدران.

والأوركسترا هي الفسحة المستديرة الفاصلة بين أسفل المدرجات ومسرح التمثيل وهي مركز الفرقة (الجوقة) التي كانت ترقص أو تغني مقاطع من المسرحية.

ومسرح التمثيل يواجه المدرجات والأوركسترا وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل عمقه ما بين ٤ و ٦ أمتار ويتألف من قسمين:

- اللوجيا أو غرف الممثلين.

ـ والمسرح التمثيلي أو الفسحة التي يؤدي عليها الممثلون أدوارهم.

أما المسرح الروماني فقد حافظ في تصميمه العام على أقسام المسرح اليوناني الثلاثة ولكنه أخذ الشكل النصف دائري وكان كله مبنياً من الحجارة ولا ترتكز مدرجاته على منحدر طبيعي إنما ترتفع في أرض منبسطة فوق أساسات حجرية وتحملها الأقواس والجدران. والمسرح التمثيلي اليوناني بسيط وخال من العناصر البنائية التزيينية أما الروماني فقد ارتفعت واجهته أحياناً على عدة طبقات وأزدانت بالأعمدة والكوى والتماثيل مشكلة حاجزاً يمنع امتداد النظر إلى ما رواء المسرح التمثيلي ويركز على المشهد المعروض. إضافة الى ذلك فقد أخذ المسرح الروماني طابع التسلية والترفيه بينما كانت له عند اليونان قدسيته، ونجد الرومان يسعون لتأمين راحة المشاهدين وذلك برفع غطاء ضخم من القماش فوق المدرجات.

ومن أهم المسارح، على سبيل المثال لا الحصر، مسارح أبيدور وديونيسوس وميغالوبوليس في اليونان، ومسرح أورانج في فرنسا وأفانش في سويسرا ومسارح تدمر وبصرى الشام في سوريا، ومسرح جرش في الأردن ومسرح لبدة الكبرى وصبراته في ليبيا. وقد انتشرت المسارح في معظم أرجاء العالم اليوناني والروماني في أوروبا وآسيا وأفريقيا.

المسرح الغنائي: Odéon

ابتكر اليونان المسرح الغنائي وهو عبارة عن مسرح مصغّر مكون من مدرج يأخذ شكل قوس دائرة يواجهه مسرح الغناء (Scène) حيث يؤدي العازفون والمغنون والراقصون أدوارهم، بعض هذه المسارح الغنائية أحيط بسور مربع الشكل، كما أخذ بعضها تصميماً مربعاً كمسرح بيريكليس في أثينا. وقد انتشرت المسارح الغنائية أيام الرومان ومن أهمها: مسرح (Aphrodisias) في تركيا، مسرح هيرود أتيكوس (Hérode Atticus) في أثينا، مسرح أرغوس (Argos) في اليونان، مسرح بومبي (Pompéi) في إيطاليا، مسرح أوست (Aoste). في إيطاليا، مسرح عمان في الأردن، مسرح بيبلوس في لبنان ومسرح قرطاجة في تونس.

والجدير ذكره أن بعض هذه المسارح استخدمت أحياناً لعقد اجتماعات المجالس البلدية.

المسرح المزدوج أو الدائري: (Amphithéâtre).

إذا كان هناك بناء يعبر بشكل واضح عن وجه من وجوه الحضارة الرومانية البحتة فلن نجد أفضل من المسرح الدائري رغم أنه أصلاً وجه من وجوه الحضارة الأثرورية. والمسرح الدائري عبارة عن مسرحين متلاصقين من الجهة العرضية يشكلان مسرحاً دائرياً أو دائرياً ـ إهليليجياً، وأكثرية هذه المسارح التي كانت تبنى في موقع سهلي منبسط أو ملتصقة جزئياً بمنحدر تل ما زالت قائمة.

يتألف المسرح الدائري، عموماً، من الخارج من سلسلة من الفتحات التي تأخذ شكل الأقواس والتي تفصل بينها الأعمدة المتداخلة في جدران البناء. وقد ترتفع هذه الأقواس فوق بعضها البعض مشكلة طبقات تبلغ في بعض المسارح الأربعة، كما في مسرح الجم في تونس أو مسرح الكوليزيه في روما. مبدئياً يختلف النظام المعتمد في البناء الواحد من طبقة إلى أخرى، والذي تحدده الأعمدة المعتمدة، فنجده دورياً في الطابق الأسفل، أيونيا في الأوسط وكرونتياً في الأعلى. أما من الداخل فيتألف المسرح الدائري من ميدان ـ معترك مركزي مفروش بالرمل تحيط به المدرجات المتتالية التي يصلها المشاهدون بواسطة سلالم وممرات داخلية تنتهي بالفتحات أو الأبواب. وقد توزعت المدرجات أفقياً إلى طبقات تربط بينها السلالم. وفي أسفل المدرجات وحول الميدان نجد عدة درجات أوسع من غيرها كانت تجهز بمقاعد متحركة للامبراطور وللحكام وبمنصات لمنظمي الألعاب، بعض المدرجات كانت مجهزة بمقاعد حجرية ثابتة.

لو عدنا تاريخياً إلى دراسة نشأة هذه المسارح وتطورها فإننا نجد أنها كانت تعتمد الخشب أساساً وأن أول مسرح بني من الحجارة والفخار كان مسرح بومبي (Pompéi) الذي يعود بتاريخه الى القرن الأول قبل الميلاد

ثم اصبحت تبنى كلياً من الحجارة. وأصغر هذه المسارح هو مسرح ألبا أنتميليوم (Alba Intemelium ٣٥م × ٣١م)، وأكبرها هو مسرح كوليزيه روما (Le Colisée ١٨٧م × ١٥٥م)، ومن أهمها، في فرنسا: أرلس ونيم وأورانج وناربون وبوردو وبواتييه وليون ... وفي المانيا: تريف؛ وفي سويسرا: أوغست وأفانش؛ وفي انكلترا: كارمنثن؛ وفي يوغوسلافيا: سالون ...

كثيرة هي المسارح الدائرية في أوروبا ولكنها نادرة في اليونان وفي بلاد الشرق وفي شمالي أفريقيا لأن شعوب هذه المناطق لم تألف ولم تستسغ ما كان يقدم ويعرض فيها من مشاهد قتال وصراع بين الرجال والحيوانات المفترسة أو بين الأبطال أو أساليب محاكمة الخارجين على القوانين والأسرى الذين كانت تخرقهم أنياب الحيوانات المفترسة أو حراب وسهام جنود الرومان. ونذكر من المسارح الدائرية في أفريقيا الشمالية مسرح الجم وقرطاجة في تونس، ولامبيز وتيبيسّا في الجزائر.

الملاعب: Gymnase

لم تعرف الملاعب الرياضية قديما مفهومها العصري، فقد كانت عبارة عن مساحة من الأرض المكشوفة، يجري فيها تدريب الجنود، والغاية الرئيسية منها عسكرية، ومع مرور الوقت أخذت تتعدد مهامها فأصبحت أبنية تدريب رياضية وصارت تشكل المدرسة العليا للألعاب الرياضية كما في الملاعب الثلاثة الكبرى في أثينا: الليسيه التي شرّفها اريسطو، السينوسارغ في الجنوب الشرقي للمدينة، وملعب حدائق أكاديميوس حيث علم أفلاطون.

وحتى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ظلت المجمعات الرياضية تقام خارج جدارن المدينة، في البساتين وقرب ينابيع المياه أو الأنهار كملعب أو جيمناز دلفس (Delphes)، وكانت هذه الملاعب مكونة من فسحات وميادين تدريب ومن أبنية صغيرة لتبديل الثياب والاستحمام، وأحيانا نجد مذابح ومعابد صغيرة. واعتبارا من أواسط القرن الرابع قبل الميلاد أخذت الملاعب

مفهوماً مدينياً واصبحت تشكل مجمعات بنائية داخل المدن، نجدها في ميغالوبوليس في اليونان وميليه (Milet) ونوسيون وسميرن (أزمير) وأسوس في تركيا والاسكندرية في مصر ... وكان المجمع الرياضي يتألف من باحة التدريب (La palestre) وهي عبارة عن: ملعب مستطيل تحده الأروقة وقاعة الاستحمام وقاعة الثياب وقاعة الدروس والمحاضرات وقاعات أخرى مختلفة الاستعمالات، يلاصق باحة التدريب أحياناً ملعب آخر يدعى ستاد (Stade) كما في بريين (Priène) في تركيا فقد بلغ طوله ١٩١ متراً وعرضه ١٨ متراً، وملعب تمارين (Piste) مسقوف وتحده الأعمدة، عرضه ٧,٧٥ م. وطوله طول الستاد. وقد زينت القاعات والأروقة بالتماثيل ذات القياسات البشرية خاصة تمثال الإله هرمس (Hermès).

في العهد الروماني اصبحت المجمعات الرياضية ضخمة البناء ومعقدة وأهمها في سارديس (Sardis) في تركيا حيث نجد الى الغرب من باحة التدريب (Palestre) التي بلغ طول ضلعها ٨٠م. مجمعاً بنائياً ضخماً معمداً ومؤلفاً من طابقين يدعى «ملعب المرمر». وقد تأثر الرومان في هندسة حماماتهم بأسلوب اليونان في إنشاء الملا عب الرياضية وبرز هذا التأثير خاصة في باحة التدريب التي اعتبرت جزءاً من الحمامات الرومانية.

الحمامات:

إن الحمامات العصرية وأحواض السباحة الخاصة والعامة مهمتها الأولى والرئيسية توفير رياضة السباحة لفئة من الناس. ولكن أياً من هذه الحمامات أو الأحواض لا يعطينا فكرة عما كانت عليه مثلاً حمامات الرومان التي اعتبرت عنصراً أساسياً من عناصر الحياة ودليلاً حضارياً هاماً، رجال ونساء وأطفال وشباب كانوا يقضون ساعات طويلة في الحمامات يتريضون، يستحمون، يتناقشون، يتسامرون، يطالعون ... وحمامات الرومان كانت حصيلة لتطور هذا المؤشر الحضاري المرتبط بالصحة العامة وباللياقة البدنية والذي يعتبر «العقل السليم في الجسم السليم» والذي ظهر عند الشعوب

القديمة خاصة عند المصريين واليونان الذين لم يشيدوا لـه مجمعـات بنائيـة ولكنهم وضعوا له أسسه.

هكذا نجد أن الرومان قد أخذوا عن اليونان كلمة «ترموس» (Thermos) التي تعني حار وأطلقوها على الأماكن التي استخدمت للاستحمـام وللعنايـة بالجسد، وأولى الحمامات الرومانية تعود بتاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد ولكن أهمها وأكبرها انشئت في القرنين الثالث والرابع ميـلادي. ففي القـرن الرابع ميلادي مدينة رومـا وحدهـا كانت تحتـوي على ٨٥٦ حماماً، بعضهـا كان ضخماً واحتل مساحات فسيحة. بامكاننا اليوم رؤية قسم من حمامـات كركلا بقبابها الرائعة والتي تشغل مساحة ١,٢ هكتارا وحمامات ديو كلتيان كانت أكبر أيضاً، شغلت حوالي ١,٤ هكتارا وكانت هذه المنشآت تحتـوي على العديد من القاعات: قاعات اللباس، قاعات المطالعـة والمسامـرة، قاعـات الحمـام المتنوعـة الحرارة، المعتدلـة، الحارة، البـاردة، قاعـات التـدليك ... إلى جانب قاعة حوض السباحة وغالباً ما كانت هـذه مكشوفـة (دون سقـف). وحوض السباحة في حمامات ديو كلتيان كان أكبر بقليل من أحواض السباحة الأولمبية في أيامنا هذه، إذ بلغت مساحته ٣٦٠٠ م٢، في قاعة طـولها ٩٥م. وعرضها ٤٥ م. عدا عن هذه القاعات الخاصة بمفهوم الاستحمـام وغيـره فقد حوت الحمامات على ملاعب للتمارين الرياضية وعلى مكتبات وقاعـات اجتماع وحدائق وحتى على ميادين السبـاق.

إضافة إلى ذلك، فقـد ازدانت المنشآت بالمنحوتـات والتماثيـل والأعمـال الفنيـة، أمـا التقنيـات التي اعتمـدت في تنفيـذ مفهـوم الحمـامـات فتشيـر الى المستوى العلمي الرفيع الذي توصل إليـه الأقدمـون.

نجد خارج ايطاليا وفي جميع ارجـاء الامبراطوريـة الرومانيـة حمامـات، في أوروبا الغربية منتشرة من انكلترا حتى المانيا بعضها ما زالت حالته جيدة نسبياً، وأفضلها حفظاً في أفريقيا الشمالية في لبتيس ماغنا (لبده الكبـرى) في ليبيا، وفي تمغاد في الجزائر. ومن الأمثلة عن الحمامـات الرومانيـة في: نيس، أرلس، باريس وقد اظهـرت الحفريـات أن مـا يسمى «قصر جوليـان» قـرب

أوتيل كلوني ما هو إلا حمامات تعود إلى أوائل القرن الثالث ميلادي.

أخذت بعض الحمامات صفة «محطة ـ حمام» وكانت تقصد للعلاج وقربها كانت تقام المعابد، فالإله يساعد على الشفاء، ومنها نذكر على سبيل المثال حمامات غرينمات (Greinmatt) قرب «بال» في سويسرا. بعض هذه الحمامات توفرت قربها ينابيع المياه المعدنية.

واليوم بامكان الانسان تذوق الحمامات القديمة والاستمتاع بشيء مما كان يستمتع به إنسان العصور الرومانية في بعض الحمامات المدعوة «تركية»، في أوروبا وفي أفريقيا الشمالية، وفي الشرق الأدنى.

الأقواس:

يعتبر القوس أحد العناصر البنائية الهامة وغالباً ما يحدد شكله تاريخ بناء ما، فمن نظرة نستطيع التمييز بين كاتدرائية غوطية (أقدمها تعود الى القرن الثاني عشر ميلادي واحدثها تعود إلى القرن السادس عشر) وكاتدرائية رومانسكية (من القرن الحادي عشر ميلادي الى القرن الثاني عشر ميلادي) فالأولى تعلو أبواب واجهتها أقواس منكسرة بينما الثانية أقواسها نصف دائرية. وقد ورث مهندسو القرون الوسطى القوس عن الرومان.

يعتبر الأثروريين أول من بنوا أقواساً مؤلفة من حجارة صغيرة مسطحة ومنحوتة ومجموعة بشكل تكون فيه انحناءً يرتكز إلى جداريـن أو ركيـزتين متوازيتين وقد اعتمد الرومان هذا القوس الملىء، النصف دائري، واستعملوه كثيراً في بنائهم ونجد منه في المسارح على أنواعها، في الجسور في قنوات المياه، في أقواس النصر، وفي خزانات المياه. أما اليونان فلم يستعملوا القوس بتاتاً وفضلوا اعتماد الخطوط المستقيمة في بنائهم، رغم أننا نجد منه في الغرب في أبواب أسوار بعض المدن.

في الشرق، المصريون وسكان بلاد ما بين النهرين استخدموا القوس أحياناً، وخلال القرون الأولى للميلاد نجد البارتيين والساسانيين ورثاء البابليين والفرس قد بنوا قصراً في موقع بغداد (ستيزيفون قديماً ـ Ctésiphon). يعرف اليوم باسم «تخت كسرى» بقي منه إيوان وباب يعلوه قوس عظيم وشهير.

ظل القوس قليل الانتشار والاستعمال في آسيا إلى أن عممّه العرب المسلمون في جميع مناطقهم. ولا بد لنا في مجال الحديث عن الأقواس من القاء نظرة على بناء صرحي لا تزال آثاره ماثلة أمامنا ولا نزال نعتمده في بعض المناسبات الاحتفالية وهو «قوس النصر».

إن الرومان هم الذين اطلقوا على بناء القوس المستقل اسم «قوس النصر». وقد كانت تقام أقواس النصر عند تأسيس المدن واعتبرت بمثابة باب تمتد خلفه المساحة التي ستخصص لها كما في جرش في الأردن. أما الأقواس التي أقيمت في وسط المدن فقد أخذت طابعاً رمزياً دينياً كما في أقواس النصر في مدينة أورانج في فرنسا. وفي تمغاد في الجزائر، وفي أوست في ايطاليا، وبعضها يذكر بأعمال عامة هامة أخذت طابعاً رسمياً تؤكده اسماء الأباطرة التي حملها والتي كانت بيدها السلطة عند إقامته؛ وأهم الأقواس تلك التي كانت تقام تخليداً لذكرى الانتصارات العسكرية ومنها: قوس تيتوس (القرن الاول ميلادي)، قوس سبتيموس سيفيروس (أواخر القرن الثاني ميلادي) وقوس قسطنطين (القرن الرابع ميلادي).

هذه الأقواس ـ الصروح كانت تزين واجهتها الأعمدة والمنحوتات وأحياناً المثلثات الجبهية، ويعتبر بعضها وثيقة تاريخية لما تحمله من كتابات منقوشة، وقد احتوت على فتحة (أو قوس) أو فتحتين أو ثلاث فتحات تتصل الفتحات احياناً فيما بينها بواسطة أبواب جانبية مقببة (تمغاد، لامبيز، أورانج، تراجان، قسطنطين ...) وعندما احتوت على أربعة أقواس أو فتحات كان كل قوس منها مفتوح إلى جهة من الجهات الأربع كقوس كركلا في تيبيسّا في الجزائر وقوس جانوس في روما. وأقدم أقواس النصر يعود إلى عهد أوغسطس في ريميني (سنة ٢٧ ق.م.) وبومباي وآخرها الى القرن

الرابع ميلادي. وقد انتشرت هذه الأقـواس في عهـد الامبراطوريـة الرومانيـة وأحصي منها ٦٩ قوساً. وأهمية أقواس النصر هي انها تعطينا تاريخاً تقـريبياً لتأسيس بعض المدن ولبعض الحملات العسكريـة.

الأعمدة:

تعتبر الركيزة أو الوتد الذي يحمل السقف والذي نجده في مساكـن مـا قبل التاريخ وفي العصور البدائية أساساً للعامود. والعامود ما زال حتى اليـوم خشبياً في بعض المناطـق المتأخـرة حضارياً خـاصة في المساكـن الخـاصة في اليونـان وتركيـا وفي الشرق الأدنى وأفريقيـا ... حتى في الصين وأمريكـا. وإننا غالباً ما نستحسن عبقريـة الفـلاحين الذيـن يشيـدون بيوتهـم بأنفسهـم ويزودونها بأروقة أمامية تدعم واجهتها جذوع الأشجار المشذبـة التي تشبـه تلك الأعمدة الخشبية التي كانت تحمل سقوف الكثير من المساكن البدائيـة والتي كانت ترتكز على قاعدة حجرية خـاصة في قصور الكـريتيين المينـويين وفي قصور الميسانيين وفي الشرق الأدنى ومن أبرزها قصر رأس شمرا الـذي كان مدخله الصرحي مدعوماً بأعمدة خشبية بلـغ قطرهـا ٧٥ سنتيمتـراً.

إن العامود مـن اختراعـات شعـوب حـوض البحـر الأبيض المتـوسط التي انتقلت إلى الشعوب المجاورة، ففي بلاد مـا بين النهريـن نجـد أن استعمـال العامود قليل رغم أننا منذ الألف الرابع قبل الميلاد نشاهـد في أوروك أعمـدة من الطابوق غلفت وكسيت بالفسيفساء. ومن عهـد الأشوريين نجـد آثـاراً لأعمدة ملساء ومنحوتات تمثل أبنية مـزودة بالأعمـدة. خـاصة في البيت ـ هيلاني.

ونجد في إيران كما في فينيقيـا العامـود الحجـري المتـوج بثوريـن متدابريـن عند الأخمينيين أو المشابه للأيـوني في فينيقيـا وكنعـان، هـذا وقـد استعملت أيضاً في هذه المناطق الأعمدة الصغيرة ذات اليتجان المزخرفـة بعنـاصر نباتيـة والمتأثرة بالحضارة المصرية واليونانيـة.

رغـم التنـوع الكبيـر في الأعمـدة ذات الساق المزخـرف بالهيروغليـف في مصر فيمكننا تصنيفها على أساس الشكل العام والتاج. عموماً العامود يشبـه

نبتة، عدا أعمدة الامبراطورية القديمة المضلعة الساق والمدعوة «بروتودورية» (Protodoriques) أو الأعمدة ذات التاج الحاتوري (التاج يمثل رأس الآلهة المصرية حاتور). وأهم أشكال الأعمدة هي العمود الاسطواني البسيط، العمود النخيلي الشكل، العمود اللوتسي الشكل والبردي الشكل والجرسي الشكل والمركب ... وقد أخذت أشكال الأعمدة صفتها المميزة من النبتة أو الشجرة التي استوحيت منها زخارفها وشكلها العام كشجر النخيل ونبتة البردى وزهرة اللوتس ...

أما اليونان فعندهم ثلاثة أنظمة للأعمدة، وهي: الدوري، الأيوني والكورنثي، علماً أنهم احدثوا تغييرات في بعض العناصر الزخرفية خلال العصور الرومانية.

اعتمد الرومان بدورهم الأنظمة اليونانية ولكنهم لم يتقنوا نحت أعمدة جميلة كتلك التي تزين المعابد اليونانية مع أنهم تفننوا في أشكالها وأضافوا إليها بعض العناصر ومزجوا عناصر زخرفية أيونية وأخر ى كورنثية ليصيغوا نظاماً جديداً يدعى النظام المركب. وفي عهد الامبراطورية أطلقوا العنان لأهوائهم فظهر العمود المالس ذو الحجارة المختلفة الألوان وعقّدوا الأخاديد فجدلوها وادخلوا تمثيل الأشخاص في التيجان. واستعملوا الأعمدة ليس فقط في إحاطة المعابد إنما أيضاً عند اطراف الشوارع العامة وأوضح مثال نجده في أعمدة معابد وشوارع تدمر، في سوريا، التي زودت بوسائد حملت تماثيل المواطنين البارزين.

والرومان هم أول من ابتكر العامود المستقل الذي يقام تخليداً لحدث أو في ذكرى انتصار والذي تغطيه أو تكسوه المنحوتات، وهذه الأ خيرة قد تنقش على صفائح برونزية ويغلف بها العامود. ومن أهم هذه الأعمدة عامود ماركوس أوريلوس (Marc Aurèle) وعامود ترايانوس (Trajan) في روما. ومثلنا على ذلك عامود الفاندوم في باريس الذي أقامه نابوليون الأول تخليداً لذكرى انتصاره في معركة أوسترليتز. وفي العصور البعيدة أقام الانسان الميغاليتي المنهير وكان الهدف منه تخليد حدث أو تكريم رجل أو إله.

من خلال دراسة الأعمدة نستطيع تحديد العصر الذي يعود إليه البناء وأحياناً الموقع الأثري، فطراز العامود والزخرفة التي يحملها، خاصة تاجه، تعتبر دليلاً واضحاً لعصره، وهذا ما يحملنا على اعطاء فكرة ولو موجزة عن تيجان الأعمدة.

التاج:

كلنا يعرف التيجان الكلاسيكية، هذه القطع الحجرية المنحوتة التي تتوج الأعمدة وتحمل الأعتاب والتي نراها في كل الكتب. وإذا كان في بلدك معبد روماني فلا شك أنك زرته ولاحظت تيجان أعمدته الفنية التي تجمع الأشكال اللولبية الأيونية مع أوراق الأكانتوس الكورنتية إنها تيجان مركبة أخذها الرومان عن اليونان الذين توجوا أعمدتهم بثلاثة أنواع كلاسيكية: الدوري البسيط والرصين، الأيوني الأنيق والكورنتي المزهر والفخم، ويقال أن هذا الأخير استوحاه الفنان كاليماكوس من سلة مليئة بأوراق الأكانتوس والزهور كانت تحملها شابة على رأسها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من التيجان لا نعثر عليه إلا في المعابد الكبيرة أو الأبنية العامة. ونادراً ما نعثر في الأبنية المتواضعة على تيجان غنية بالزخارف لأن أعمدتها غالباً ما كانت خشبية والتاج فيها عبارة عن حجر بسيط، يصعب التعرف إليه كتاج للعامود.

إضافة إلى ما ذكرنا نجد أن تيجان الأعمدة في بعض المناطق تختلف تماماً عن القواعد العامة، ففي آسيا الصغرى التيجان الأيونية تختلف عن ما نعرف، والفرس نحتوا تيجاناً تمثل ثورين متدابرين، والمصريون نحتوا تيجاناً تقلد مزروعات وادي النيل: النخيل، البردي، اللوتس؛ وفي أواخر العصور القديمة في بيزنطية كانوا يحبون التيجان الكثيرة الزخرف والتي تحمل الصلبان

الطرقات

لا تزال حتى اليوم الطرقات الترابية منتشرة في مناطق عديدة من دول العالم، ومنذ وقت غير بعيد اكتفى الانسان بسلوك الدروب الترابية التي خطتها الحيوانات أو العوامل الطبيعية منذ آلاف السنين، ويصعب اليوم تحديد العديد منها خاصة تلك التي لم تتحول إلى طرقات حديثة، ونجد أحياناً بعضاً منها كتلك التي قد تركت العربات آثار دواليبها عليها كما في ليبيا وموريتانيا والتي تحاذيها صخور مطلية أو تلك التي تجتاز الأودية وقد زخرت جوانبها بالإشارات المنقوشة كالطريق التي تصل بين وادي النيل والبحر الأحمر.

قد تصادفك طريق مرصوفة بالحجارة فتتبعها ولا تلبث أن تجدها انقطعت واختفى أثرها. فإلى أي موقع كانت تؤدي ؟ إلى قرية ؟ إلى قصر؟ ... ليس مستغرباً أن تجد آثاراً هامة في الجوار. ففي العهد الروماني ربطت أنحاء الامبراطورية بشبكة من الطرقات المرصوفة بالحجارة وتميز بها الرومان على غيرهم من الشعوب القديمة نتيجة التقنية التي اعتمدوها والتي اعطتها القوة والقدرة على الصمود. فالبلاط الحجري كان يرصف فوق عدة طبقات من الحجارة التي تؤمن له الثبات والديمومة. وطرقاتنا اليوم لولا الصيانة المستمرة لزالت آثارها خلال سنوات معدودة بينما الطرقات الرومانية والتي مرّ على وجو دها حوالي الألفي عام ما زالت ثابتة في مواقعها وما اختفى منها إنما كان نتيجة تخريب الانسان وغالباً خلال شقه للطرقات الحديثة.

حجارة المسافات:

ما أن نغادر المدينة ونتجه إلى طريق عام حتى نعثر على لوحات تشير إلى الاتجاه والمسافة التي يجب أن نجتازها للوصول إلى المكان المقصود أو غيره. وعندما نسافر في منطقة لا تحمل طرقاتها لوحات ـ دلائل نضطر

إلى التوقف والسؤال لمعرفة المسافة التي تفصلنا عن وجهتنا ... هذا في عصرنا، فماذا كان يفعل الانسان قديماً؟ طبيعي أنه كان يسأل ويستعلم أو يركب قافلة يقودها الملموّن بجغرافية المنطقة وطبيعتها، وقد ظل الإنسان على هذه الحال إلى أن أتى الرومان بعبقريتهم ونظرتهم العملية والعلمية وحددوا الطرقات والمسافات، فمنذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد نصبوا في وسط روما، في الساحة العامة للمدينة، أول حجر مسافة وأطلقوا عليه اسم «حجر الميل الذهبي» ومنه انطلقوا وحدّدوا كل الطرقات المتجهة من روما إلى بقية المناطق. وما لبثت الطرقات المحددة أن شملت معظم أوروبا الغربية والوسطى وآسيا الغربية وشمال أفريقيا، وكان يفصل بين كل حجر مسافة وآخر ألف خطوة، أي ميل روماني؛ والميل الروماني يساوي ١٤٨١,٥٠ متراً.

فإذا توصلت يوماً إلى اكتشاف طريق رومانية قد يحالفك الحظ في العثور على إحدى هذه الحجارة التي تشبه عموداً صغيراً قد يبلغ ارتفاعه المترين أو الثلاثة أمتار، وكان حجر المسافة يغرس بعمق في الأرض، وتقرأ عليه رقماً يحدد المسافة إلى المدينة التالية ويلي الرقم أحياناً حرفا «MP» وهما اختزال لكلمتي «millia passum»، وتعني ميلاً نجتاز، كما تجد عليه اسم أحد الأباطرة أو الشيوخ مما يسمح بتحديد تاريخ هذا الحجر؛ وقد عثر على الآلاف من حجارة المسافات التي استطاع الأثريون من خلالها دراسة شبكة المواصلات التي كانت تربط بين ارجاء الامبراطورية الرومانية.

الحدود:

لم يكن للحدود مفهوم محدد قبل العصر الروماني، وكانت هناك دائماً مشكلة حماية المملكة أو الامبراطورية ... من الغزو المتبادل، وقد ساهمت الطبيعة الجغرافية للمواقع، بعض الاحيان، في منع هجمات الغرباء أو البرابرة، فمضيق وادي النيل سهّل على المصريين مراقبة أرضهم ومع ذلك فقد شيّدوا، في عهد الامبراطورية القديمة، في الجنوب سلسلة من القلاع لحمايتها من النوبيين ومنها: كوبان، أنيبا، إيكور، بوهن، كور، ميرجيسا، سمنا، سرّاز؟

كما بنوا جسر زل (Zel) لعبور الحدود إلى سيناء، وحفاظاً عليها من الشعوب الآسيوية. والصينيون لم يترددوا في إقامة جدارهم الشهير. وكان للرومان جدرانهم التي امتدت عند الحدود الجرمانية بين نهري الرين والدانوب، اللذين يشكلان حدوداً طبيعية، وقد عثر على عدد كبير من المعسكرات وحصون الدفاع المبنية على طول هذه الحدود؛ وفي شمالي انكلترا، التي وصل إليها الرومان، لا يزال قسم كبير من جدار الامبراطور أدريان قائماً وقد بني لحماية الحدود من هجمات السلت وكان هذا الجدار يمتد عبر الأراضي ليصل بين البحرين.

ساهم البحث الجوي، الذي يعتمد التصوير الجوي أساساً، في اكتشاف حدود الامبراطورية الرومانية في شمالي أفريقيا وفي سوريا وفلسطين والعراق، ففي الشرق أقيمت الحدود لرد هجمات البارتيين، وتسهيلاً لعمليات المراقبة والدفاع فقد توزعت على طول الجدار في المواقع الاستراتيجية، كنقاط المياه في المناطق الصحراوية، أبنية منها: أبراج المراقبة، الحصون الدفاعية المتقدمة وحصون الدفاع عن الطرقات والحصون الرئيسية وأبراج الاتصال بين موقع وآخر ... أما في أفريقيا وعند الحدود الطرابلسية، في ليبيا، فالدفاع كان يتم بحفر خنادق تحميها حصون وأبراج مختلفة المهام.

نظراً للمسافات البعيدة التي تشملها الحدود فإن الابحاث التي أجريت حولها ما زالت ضئيلة جداً وتنتظر استكمالها خاصة في الشرق.

التحصينات:

منذ أن بدأت تتكون أولى المجتمعات السكنية أو القرى، في العصر الحجري الحديث، أقيم حولها سياج من الأوتاد الخشبية أو صف من الأشجار لحمايتها. ومع التطور الحضاري بمختلف وجوهه تحول السياج إلى جدار أو سور، وأقدم سور حجري، مزوّد ببرج دائري، هو سور أريحا في فلسطين ويعود بتاريخه إلى الألف السابع قبل الميلاد، علماً أنه حتى يومنا هذا لم يعثر على مثيل له يعاصره. وفي العصر الكلكوليتي والبرونزي، منذ الألف

الرابع قبل الميلاد، نجد المدن التي شكلت مراكز حضارية كبيرة محاطة بالأسوار ففي تل حلف جدار حجري يتقدمه أخدود، وفي المناطق السورية ـ الفلسطينيــة استعملت الحجــارة في بنــاء الأسوار التي كانت تحمي المدن ذات المواقع المنخفضة أو أكروبولها أي مدينتهـا المقـدسة. كما أقيمت حصون صغيرة اعتبرت الملاذ الأخير ومنها البناء المربع (١٧م × ١٨م) ذو الجدران العمياء التي تبلغ سماكتها ٣ أمتار. الذي كشف عنه في تـل الحصي وغـرف هذا الحصن تفتح على باحة مركزية. وتميز في هندسة التحصينات العسكرية الكنعانية الميجدول (le migdol) وهو عبارة عـن بـرج مربـع عـال ومحصن نظمت في داخله غرف للسكن، ونجده في أريحا وبيت شيان (قرب بيسان) في فلسطين وفي المعبـد الـذي شيـده رعمسيس الثـالث في مدينـة ـ حبـو في مصر.

اقيمت الأسوار في بـلاد مـا بين النهريـن مـن الطـوب ولكـن الأشوريين استعملوا الحجارة في رفعها وخاصة في نينـوى. ويعتبـر «البيت الدائـري» أو برج قصر تيبي غورا فريداً، إذ بلـغ قطـره ١٩ متـراً وسماكـة جـداره، المبني من الطوب، متراً، يضم داخله عدة غرف وله مدخل واحد مرتفـع ويشرف على المدينة ويعود بتاريخه إلى أواسط الألف الرابع قبل الميلاد.

الشرفات المسننـة، المرامي، الشرفـات المتقدمـة، الابـراج المربعـة والنصف دائريـة، ابـراج القصور، الأسوار العديـدة والأخاديـد وغيرهـا ... كل هـذه المنشآت العسكرية الدفاعيـة نجدهـا في آسيـا وفي مصر، فقـد احيطت المدن بالأسوار منذ الألف الرابع قبل الميلاد، أما في النوبة فنجد أروع التحصينات التي ترجع الى حوالي سنة ٢٠٠٠ و ١٩٠٠ ق.م. وهي عبارة عن سلسلـة من القلاع أقامها فراعنة الامبراطورية الوسطى عند ضفاف نهر النيل لحماية النوبة التي اخضعوها ومنهـا: ميـرجيسا، كرمـا وبـوهين، وهنـا أيضاً نلحـظ الجدران السميكة والمجهزة بالشرفات الناتئة والمبنية مـن الطـوب.

حصّن العالم الايجي مدنه منذ العصر البرونزي القديم خاصة الأكروبول ويظهر أن التأثير الحثّي كان له دوره. فإلى الحثيين ينسب السور ذو السرداب (الموجود في تيرانت (Tirynthe) وفي بعض التحصينات الكنعانية، ولا ينتشر

بناء السور المسردب في فلسطين إلا حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد في: بيت شمش (تل الرميلة) بيت مرسيم (تل بيت مرسيم) سيشم (تل بلاطة)، تل الغول (قلعة شاوول)

اتقن اليونان فن التحصينات، فحصنوا الأكروبول أو المدن المقدسة وخاصة المدن المدنية، وتحقيقاً لذلك بنوا الجدران من الحجارة المنحوتة وفتحوا فيها أبواباً صرحية تحميها أبراج مربعة قوية مجهزة بطرقات تدور حولها وبمرامي. أما التحصينات الرومانية فقد استوحيت من التحصينات اليونانية إنما تنوعت المواد المستخدمة في بنائها. فالرومان استعملوا الطوب أكثر من الحجر واعتمدوا البساطة ولم يلجأوا إلى إقامة الأسوار إلا في الحالات القصوى، نتيجة السلام الذي عمّ ارجاء امبراطوريتهم.

كذلك نجد في بلاد الهند الحصون والأسوار المبنية من الطوب، وفي الصين ظلت الأسوار لفترة طويلة عبارة عن جدار ترابي مرصوص ومنها السور الذي أحاط بمدينة «زنغ شو» في عصر شانغ فقد بلغ ارتفاعه ١٠م. وسماكته ٢٠م وطوله ٧ كلم. أما جدار الصين الشهير فهو من أعمال عدة سلالات صينية، طوله الحالي ألفي كلم. ويمتد في شمالي الصين من الشرق إلى الغرب وطوله الأساسي ٢٤٠٠ كلم. وأول مرحلة بناء فيه تعود إلى أواسط الألف الأول قبل الميلاد وقد كان ترابياً ثم غلفت جوانبه بالحجارة وحفرت أمامه قنوات عميقة، كما غرس بأشجار الحور وعرف باسم «صف الحور»، وتبلغ سماكة الجدار ما بين ٧ و ٨ أمتار وارتفاعه ٦ أمتار، يحميه ٢٥٠٠٠ برج، فتحت فيه خمسة أبواب كبيرة، ورغم قوة هذا الجدار فإنه لم يستطع إيقاف غزوات المنغوليين والمنشوريين قديماً.

وقد أقام الرومان جدراناً حدودية لامبراطوريتهم أهمها جدار أدريان في شمالي انكلترا، بدأ البناء فيه سنة ١٢٢ ميلادية وامتد على مسافة ١٩٦ كلم، من الجهة الشرقية كان حجرياً بلغت سماكته ثلاثة أمتار وارتفاعه ٤,٣٠م. ومن الجهة الغربية ترابياً سماكته عند القاعدة ٦ أمتار وارتفاعه ٤,٣٠م. يحده أخدود وتتوزع على طوله حصون صغيرة كل مسافة ميل روماني (١٤٨١,٥٠ م.) وبين كل حصنين برجين. وجهز بمعابر بلغ عددها

٨٧ معبراً. ولكن عدد هذه المعابر أصبح ١٤ بعد أن أقيم جدار جديد متقدم على الجدار الأساسي.

المخيمات أو المعسكرات:

كل الأسوار الدفاعية والتي لا تحيط بمدينة ولكنها تحمي مؤسسة عسكرية تدعى مخيماً. والمخيمات تعود بتاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ وأقدمها من العصر الحجري الحديث، وما يميزها عن مخيمات العصور التاريخية أي الرومانية وما بعدها، الشكل الغير المحدد والمساحة الواسعة التي نعرف آثارها أحياناً بفضل المرتفعات الترابية التي تسهم في إبراز حدودها، وهي الشاهد الوحيد على وجودها السابق.

نجد في المخيم الروماني هيكلية ثابتة تمكننا من معرفته وتحديده خاصة عندما تكشف جدران الأسوار. وقد ترك لنا الكتاب الأقدمون وصفاً لأنماط المخيمات عند الرومان، أولهم بوليب (Polybe) الذي وصف لنا في القرن الثاني قبل الميلاد مخيماً من عصر الجمهورية، وثانيهم هيجين (Hygin) ويصف مخيمات القرن الثاني ميلادي، والاثنان يذكران العناصر الأساسية التي يتكون منها المخيم: مخطط مربع أو مستطيل منتظم، في كل جهة من جهاته الأربع الأصلية باب، الباب الرئيسي لجهة الشرق ويدعى «بورتا برايتوريا» (porta praetoria)؛ يقطع المخيم من الداخل إلى أحياء بواسطة طرقات تتقاطع بزوايا قائمة، الرئيسية منها هي التي تصل بين الأبواب الأربعة الجانبية، في مركز المخيم يوجد مقر أو حي قائد الجند والساحة العامة ومقر أمين الخزنة ووكلاء وأمناء الجنود وخيام الحكام والنواب والخطباء...

في بادىء الأمر كان المخيم يقام سوره من الخشب ويحمى بواسطة الأتربة التي ترفع حوله والجنود ورؤساؤهم ينامون تحت الخيام، فمنشآت المخيم كلها مكونة من مواد قابلة للزوال بفعل مرور الزمن وتأثير العوامل الطبيعية وغيرها. لكن في بعض الحالات، خاصة في مناطق الحدود، فقد كانت المخيمات تتركز لفترة دائمة فتبنى من الحجارة أو من مواد معمرّة وتشكل مع مرور الزمن نواة مدينة، وكانت لهذه المخيمات مخازنها

ومشاغلها. حيث تصنع الأسلحة والأدوات الضرورية ... ومن نماذج هذه المخيمات مخيم روماني في لامبيز (في الجزائر) وفي نوفيزيوم وهالترن (في المانيا). حول هذه المخيمات كان الباعة الجوالون الذين لا يطول بهم الأمر حتى يستقروا ليشكلوا فيما بعد أسواقاً للمدينة المعسكر وبالتالي تندمج المدينتان مؤلفتان مدينة واحدة تلعب دوراً يحدده موقعها الاستراتيجي والطبيعي عبر التاريخ.

عيون الماء والينابيع:

أن حب الرومان للمظاهر المعمارية حملهم على إحاطة الينابيع وخزانات المياه ببناء هندسي تزينه التماثيل سواءً كان في الأماكن العامة أم في المساكن الخاصة، هذه الأبنية أو عيون الماء (Nymphées) كانت مخصصة لآلهة الينابيع وعيون الماء والتي كانت تعتبر المغاور مساكنها، فهي تجمع بين المغارة والماء كصفات مميزة لها أساساً.

أما اليونان فقد خصّوا بعض الينابيع بأبنية صرحية، أكثر تواضعاً من الرومان، لآلهة المياه في اليونان «Les Nymphes»، وأولى هذه الينابيع أو مصادر المياه ما هي إلا مغاور تتدفق منها المياه وقد حملت صفة المقامات المقدسة وأجمل ما اكتشف منها هو نبع معابد نيم (Nîmes) الذي رمم في القرن الثامن عشر ميلادي. ومن بين هذه العيون الهامة، التي ما زالت محتفظة بحالتها القديمة، عيون حمامات الامبراطورية في تريف (Trèves). وفي أفريقيا الشمالية عيون ماء كبيرة وجميلة، في تيبازا (Tipasa) وفي تركيا في سيدة (Sidé)، وفي اليونان نبع بيرين (Pyrène) في كورنثيا؛ هذا، وقد أحصي عدد يفوق الـ٢٣٠ من الينابيع والعيون في ايطاليا والـ٣٧ في أفريقيا، وقد تحول قسم من هذه الأبنية إلى أبنية للعماد عند المسيحيين.

حاول بعض العلماء تصنيف العيون والينابيع وفقاً لطبيعتها أو لطراز هندستها ... وأهمها الأبنية التي زوّدت بسبع كوى ضمت تماثيل آلهة الزمان والفضاء والتي أضفت على مصادر المياه صفة أماكن عبادات خاصة.

الجسور:

يعتقد البعض في عصرنا أن تنفيذ بعض المنشآت يعتبر ابتكاراً فردياً وفريداً، فالمهندسون اليوم بامكانهم إقامة جسر فوق نهر ومدّ ذراع بحرية كما هي الحال بين تركيا وأوروبا، والجسر المعلق فوق البوسفور وغيره يعتبر عملاً بسيطاً إذا ما قورن بالجسر الذي يصل بين مدينة ريو ده جانيرو ونيتروي في البرازيل، والذي يبلغ طوله أكثر من ١٢ كلم، تسع منها فوق الماء. أو بجسور بحيرة بونشارتان (Pontchartain) في لويزيانا والتي تمتد على مسافة ٣٨ كلم. هذه الأعمال التي ذكرنا وغيرها ... لا نجد فرادة فيها أو ابتكاراً لو راجعنا قليلاً من الأعمال التي خلّفها لنا الأقدمون، ولو علمنا أن هناك مناطق في آسيا وافريقيا وأمريكا ما زالت تمتد فيها جسور من الحبال والألياف.

لقد عبر الناس لوقت طويل مجاري المياه بواسطة الزوارق أو الطوافات أو بواسطة جسور ـ مركبية مؤقتة كالجسر الذي أقامه الملك الفارسي (Xerxès) في هيليسبونت (Hellespont) فوق الدردنيل تسهيلاً لعبور جيشه من آسيا إلى أوروبا. وأقدم جسر معروف هو الجسر الذي بناه البابليون فوق نهر الفرات، في بابل، أيام نبوخذنصر، في القرن السادس قبل الميلاد، وقد عثر على الركائز المبنية من اللبن والمغلفة بالحجارة في أعلاها. أما اليونان فنادراً ما بنوا جسوراً حجرية عند مجاري المياه الضيقة، والرومان بعبقريتهم الهندسية والعملية فقد كانوا أول من غطى الامبراطورية بجسور حجرية ترتفع فوق قنطرة، جسر سان مارتان في أوست، أو قنطرتين، جسر فابريسيوس في روما، أو ثلاث قناطر، جسر باجا في تونس، أو أربع قناطر، قرب برغام في تركيا، أو خمس قناطر، جسر ريميني في ايطاليا، أو ستة قناطر، جسر القنطرة في اسبانيا، وإلى جانب هذه الجسور بنى الرومان جسوراً عملاقة كجسر إيبون (Hippone) في الجزائر الذي يبلغ عدد قناطره إحدى عشرة، وجسر ميريدا (Mérida) في اسبانيا المؤلف من ستين قنطرة!

كثيرة هي الجسور التي ما زالت صامدة وبعضها ما زال مستعملا رغم مرور أكثر من ألفي عام على بنائها، ولكن أغلبها تهدم وبقيت اجزاء من ركائزها في مجاري الأنهار. وبامكان التنقيبات العلمية الكشف عن اطراف الجسور والركائز تحت الأتربة المترسبة عند ضفاف الأنهار والسواقي في مناطقنا.

قنوات المياه:

عندما نحتاج إلي المياه في أيامنا هذه ما علينا سوى أن نفتح الصنبور، إنه عمل طبيعي جداً وبسيط ولكن في حال عدم وصولها لسبب ما ... لا يمكننا إلا أن نفكر كيف استطاع البشر حتى زمن غير بعيد التعامل مع هذا الواقع الذي يقضي على الراغب في الحصول على الماء الانطلاق إلى النبع أو البئر أو الخزان وحمل الماء بواسطة الجرار أو الضروف أو ما توفر من وسائل النقل ...

لكن الإنسان، خاصة أيام الرومان، فتش عن بعض من وسائل الراحة، والعديد من المدن الكبيرة يجب أن يؤتى بالماء إليها من مناطق بعيدة، وتحقيقاً لشيء من الرفاهية اخترع الرومان طريقة لايصال المياه تقوم على جرها بواسطة أنابيب من الفخار المشوي وحتى من الرصاص. وقد كشفت التنقيبات على العديد من عناصر هذه المجاري المائية في المدن قرب الحمامات والمنازل الغنية وفي الريف وحول الفيلات. وعندما كان يجب عبور أودية ضيقة أو مجاري مياه وتمديد أنابيب أو قنوات ضخمة لم يتردد الرومان في بناء جسور فعلية تحقيقاً لمشروعهم: فقنوات المياه ما زالت صفحة قناطرها العليا ماثلة أمامنا في الأرياف والمدن المنتشرة من اسبانيا حتى سوريا وأفريقيا الشمالية، بعض هذه القنوات ـ الجسور مؤلفة من عدة قناطر ترتفع فوق بعضها البعض على عدة طبقات ومن أجملها جسر غارد (Pont du Gard) في فرنسا وقد بلغ ارتفاعه ٤٥ متراً، وجسر سيجوفي (Ségovie) في اسبانيا بلغ ارتفاعه ٣١ متراً. وقنوات المياه الكبيرة كلها معروفة، محددة ومدروسة ومن المفيد دائماً البحث عنها. السير بموازاتها، تصويرها وتخطيطها لأنها

نماذج هندسية رائعة. هذه المنشآت المائية، جسر غارد مثلاً، غالباً ما شمل تنظيمها وتخطيطها مجموعة من القنوات والانفاق والخزانات والجسور التي تسمح بايصال المياه وتوزيعها والتحكم بها وعدم هدرها.

السدود:

تعتبر السدود أعمالاً فردة بالنسبة للآثار، وقد ظهرت الحاجة الى اعتمادها عند بعض الشعوب التي خلفت لنا السنون شيئاً يسيراً من معالمها. فالمصريون القدماء كانوا يرفعون تلولاً ـ سدوداً من التراب ويحفرون القنوات والمجاري لحفظ المياه وري الحقول في الفصول الجافة، ولكنهم آنذاك لم يشعروا بالحاجة إلى إنشاء أي سدود تنظم تدفق مياه النيل أو أنه لم تكن لديهم الخبرة أو المعرفة أو الوسائل التقنية، وكان عليهم الانتظار حتى القرن العشرين لإقامة سد أسوان.

ما تقدمنا به لا ينفي معرفة الشعوب القديمة بالسدود وأهميتها في تنظيم ري الأراضي «وسد مأرب» عاصمة مملكة سبأ قديماً (اليمن) هو دون شك أهم سد خلفه لنا أجدادنا.

كان سد مأرب يعترض وادي أذنه (Adhana)، بعض اجزاء هذا البناء التي ما زالت قائمة هي من الحجارة الجميلة المنحوتة التي تغطي حائطاً ترابياً قديماً، ويتجاوز ارتفاعها الـ١٦ متراً. بلغ طول السد ٦٠٠ متر وارتفاعه تجاوز الـ ٨ أمتار. عند طرفي السد الشمالي والجنوبي بني نوع من الأرصفة الحجرية الموازية لمجرى الوادي والتي بواسطة الترع تجر المياه عبر قنوات طويلة، وقد عثر على آثار القناة الشمالية لمسافة ألف متر تقريباً. تجاوز طول الرصيف الجنوبي الثمانين متراً وبلغ ارتفاعه ١١ متراً وعرضه ٤ أمتار وأرفق بنظام ترع. أما الرصيف الشمالي فطوله ٦٠ متراً يسده حائل ارتفاعه ٩ أمتار زوّد بفتحتين إحداهما عرضها ٣ أمتار والثانية عرضها ٣,٥٠ أمتار، تصل المياه منهما إلى حوض يسده حاجزان ضخمان من الحجارة الغير المنحوتة أحدهما يبلغ طوله ٨٥ متراً، من هذا الحوض تتوزع المياه إلى

القناة الشمالية المذكورة والتي كانت مهمتها إيصال مياه الري إلى أراضي المنطقة المجاورة.

وموقع مأرب الذي نقب سطحياً ما زال يحتفظ بالعديد من المفاجاءات ومثله في ذلك مثل مواقع عديدة في العالم العربي. ففي تونس سد يعود الى العصر الروماني، ويعتبر من أهم السدود التي انشأها الرومان لتأمين ري أفضل للأراضي، هو السد الذي أقيم عند «واد درب» (Oued Derb) قرب قسرين (Kasrin) بلغ طوله ١٥٠ متراً وارتفاعه عشرة أمتار وعرضه خمسة أمتار وقد انشئت طريق مبلطة بالحجارة فوقه هذا، وقد فتح في أسفل السد ممر للمياه بلغ ارتفاعه المترين ينظم تصريف المياه. وفي فلسطين في وادي قورنوب (Wadi Kurnub) في الشمال الشرقي من «بئر السَبْع» سدٌ يعزى بناؤه الى الأنباط رغم أن التقنية المعتمدة في بنائه رومانية، وقد ظل هذا السد مستخدماً حتى أيام البيزنطيين.

المرافىء:

عموماً قليلة هي آثار المرافىء القديمة المكتشفة أو التي بقي قسم منها ظاهراً للعيان. فمرفأ مارسيليا الروماني يشكل جزءاً من المرفأ الحالي، بينما بامكاننا مشاهدة سدّ مرفأ أنتيب (Antibes) القديم؛ واليونان قبل الرومان أقاموا مرافىء بقي منها أحياناً السدود كمرفأ أمبورياس (Ampurias) في أسبانيا؛ والفينيقيون من الشعوب التي جابت البحار، فقد بنوا سدوداً قوية مكونة من حجارة ضخمة تحمي الخلجان مشكلة منها المرافىء، نجد منها في صور وصيدا في لبنان، وقد استطاع العلماء بواسطة التصوير الجوي ومساهمته من دراسة بعض من منشآت مرفأ صور التي بقيت ظاهرة فوق سطح الماء.

كذلك كانت للمصريين مرافئهم على النيل، أما البابليون والآشوريون، الذين كانت لهم مدن قائمة عند ضفاف دجلة والفرات، فلم يكونوا بحاجة لبناء السدود أو الحواجز والجدران لمواجهة الأمواج وكانت تكفيهم أرصفة

من الخشب أو من الطوب، بينما في مدينة مثل لوتال (Lothal) في الهند فقد بني فيها منذ أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حوض كبير مستطيل الشكل تحده أحواض أصغر منه عثر عليها الأثريون.

وقد جرت دراسات جزئية على انشاءات المرافىء القرطاجية ثم الرومانية في قرطاجة، واليونانية في الاسكندرية، والرومانية في أوستي (Ostie) التي اصبحت مدينة زاهرة بفضل مرفئها الذي اعتبر مرفأً لروما، وفي بوزول (Pouzzoles) التي اعتبرت مرفأً تجارياً موازياً لمرفأ أوستي. أما المرافىء الأقل أهمية التي انتشرت على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي فهي بحاجة إلى الكثير من الدراسات والابحاث وتتطلب مساهمة علم آثار ما تحت البحار للكشف عنها بطرق وأساليب علمية.

المراكب:

كان العثور على مركب قديم كامل حلماً راود علماء الآثار قبل نشأة علم آثار ما تحت المياه والبحار واكتشاف التقنيات التي مكنت العلماء من تحقيق الدراسات الخاصة بوسيلة من وسائل النقل التي كان لها دورها الهام والتاريخي في اتصال الشعوب بعضها ببعض. ولقد كانت دراسة المراكب الكبيرة والصغيرة على أنواعها مقتصرة على ما وصلنا من نصوص وما تمثله الرسوم والمنحوتات منها وما احتوته المدافن من نماذج لها، واصبحت لدينا فكرة عن طرق الابحار ووسائله منذ العهد البرونزي.

تميز المصريون بتعدد أنواع الزوارق والمراكب التي نجدها في رسوم مصاطب الامبراطورية القديمة وفي مدافن الامبراطورية الحديثة. ففي معبد حتشبسوت في دير البحري نتعرف الى المراكب التي اعتمدت للمسافات البعيدة والتي كانت تجتاز البحر الأحمر نحو بلاد البونت (Pount)، والنماذج المصغرة تعطينا تفاصيل للجزئيات ولا تهمل البحارة. فمعظم المراكب مزودة بساري وشراع مربع ومجاذيف، كما نشهد في المصورات الزوارق البردية (المصنوعة من نبتة البردي) التي كانت تستخدم لصيد البط في مستنقعات

الدلتا. هذه المراكب المصرية التي يعود تاريخ بعضها إلى اواسط الألف الثالث قبل الميلاد ليست الأقدم، فهناك رسوم لمراكب تعود الى عصور ما قبل التاريخ، ظهرت على بعض الأواني الفخارية وزوارق ذات كوتل (مؤخرة) وصدر (مقدمة) ومنها الممثلة على زند سكين من جبل الأرك (Djebel el-Arak). وإلى الألف الثالث قبل الميلاد أيضاً يعود تاريخ نماذج المراكب السومرية التي عثر عليها في المدافن، خاصة في مدافن أور الملكية. أما بعض النماذج السومرية الممثلة في المنحوتات ومنها الموجودة على أناء من الرخام الأبيض (حالياً موجود في متحف اللوفر)، فتعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، والتي تشبه نموذج سكين جبل الأرك فقد اعتبرت دليلاً على غزو السومريين لمصر.

ونجد مراكب الإيجيين ذات المقدمة المرتفعة ممثلة على فخاريات الألف الثالث قبل الميلاد. أما زوارق الكريتيين، التي تعود إلى نفس الفترة فهي عريضة وغير مجهزة بمقدمة ومؤخرة. بينما الأساطيل الكريتو ـ إيجية التي صورت على جدارن بيت في أكروتيري (Acrotiri) فهي متطاولة وأنيقة ومزودة بمؤخرة مرتفعة وقصيرة وبمقدمة طويلة وعالية. بعضها له ساري مركزي. والأساطيل الميسانية قريبة من هذه النماذج. وشعوب البحر الذين اجتاحوا مصر في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد فمراكبهم ذات مقدمة ترتفع على شكل رقبة الإوز العراقي (Cygne) ونجدها ممثلة في منحوتات مدينة حبو، وتشبه إلى حدٍ بعيد المنحوتات الصخرية في اسكندينافية والتي تعود الى العصر البرونزي (بين ١٤٠٠ و ٩٠٠ ق.م).

وتمثل المنحوتات الأشورية أشكال وأنواع المراكب الشرقية للألف الأول قبل الميلاد ومنها: شكل القفة المستديرة، الطوف على القِرَبْ، زورق القصب، الكلك (مركب يركب في أنهر العراق)، مركب الحرب ذي المؤخرة المعقوفة والمقدمة على شكل المهماز. وبالتالي إن مراكب الفينيقيين والقليل الذي نعرفه عنها نجده ممثلاً في المصادر الأشورية وفي أشهر وأجمل نحت لناووس من صيدون، رغم أنهم يعتبرون من أهم بحارة العالم القديم. ومراكب اليونان لهذه الفترة والتي نجدها في رسوم الأواني تدل على أنهم اتقنوا فن

الابحار نتيجة لإختراع الترييـر (trière)، في القرن الثامن قبـل الميـلاد، وهي عبارة عن سفينة حربية زودت مقدمتها بشكل مهماز برونزي. أما الرومان، ورثة اليونان، فقد كثرت أنواع المراكب عندهم، فكان منها ذات المجاذيف والأشرعة، الطويلة أو المستديرة، الثقيلة أو الخفيفة، النهرية التي تسحب بحبل. ويبـدو أن الرومـان عرفـوا دفّة السفينـة ولكنهـم لم يستعملوها أبداً.

من خلال دراسة الرسوم والنماذج وما ورد في النصوص القديمة استطاع العلماء الوصول إلى العديد من النتائج العلمية الجزئية ولكن الاكتشافات البحرية جعلتهم ينجزون الكثير من التحقيقات حول تقنيات الابحار ووسائله رغم التلف الذي أصابها، ومن المكتشفات الهامة نذكر: مركباً قبرصياً، يعود الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد عثر عليه عند رأس جليدونيا (Gelidonya) في تركيا، وسفينة تجارية فينيقية قرب عكا في فلسطين. ومراكب يونانية في سيرين (Cyrène) في ليبيا، ومركباً بيزنطياً من القرن السابع عند الشاطىء التركي من بحر إيجيه في ياسي آدا (Yassi Ada)، ومركباً عربياً من القرن الثامن عشر جنوبي سيناء في شرم الشيخ. والأمل كبير في العثور على أنواع أخرى من المراكب وربما في اكتشاف ترييـر يونانية توضح كيفية عمل صنوف المجاذيف الثلاثة التي عجز العلماء حتى الآن عن تفسير طريقة عملها، والجدير ذكره في هذا المجال أن نابوليون الثالث بنى ترييرٍ سنـة ١٨٦١ وفي متحف غرينـويتش (Greenwich) في انكلترا يعرض مجسم لها.

العربات:

إن العربات التي لا تزال تستخدم كوسيلة نقل وانتقال والتي نجدها في بعض المواقع السياحية كما نجدها في الريف، كانت، بالنسبة للعصور القديمة، هي السيارة الخاصة والعامة والشاحنة والسيارة العسكرية والحربية وهي سيارة الاستعراض والأبهة.

واكتشاف الانسان القديم للدولاب يعتبر ثورة في عالم التقنيات، وتنوع وجهات استعماله إنما كان المنطلق لاستخدامه في وسائل النقل أو العربات. ولكن متى اخترع الانسان العربة؟

موضوع لا يزال تحديد تاريخه محور نقاش، فبعض علماء الآثار يعتبرون أن أول من اخترع وسيلة نقل تقوم على الدواليب هم شعوب شرقي بحر قزوين في آسيا الوسطى ولا يبررون رأيهم هذا بالدلائل الأثرية. وأول تمثيل للعربات، لا جدل فيه، نجده في بلاد ما بين النهرين، ويبدو أن السومريين هم مخترعو العربة، أي منذ حوالي الخمسة آلاف سنة تقريباً. ففي سومر نجد أولى نماذج العربات ذات الدولابين أو الأربعة دواليب، وأقدم عربات عثر عليها في كيش، في ثلاثة مدافن، تعود بتاريخها إلى عصر جمدة نصر أي إلى حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م؛ وفي المدافن الملكية لأور ويرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٢٧٠٠ ق.م. وعلى راية أور. ونماذج العربات المصنوعة من الطين المشوي التي عثر عليها في السوية الثامنة في تيبيه غورا تعود بتاريخها إلى حوالي سنة ٢٩٠٠ ق.م. هذه العربات البدائية مكونة من صندوق ودواليب خشبية مليئة تجرها الحمير أو الأبقار ثم اصبحت تجرها الأحصنة، وما عثر عليه منها في المدافن أثرت فيه العوامل الطبيعية والزمنية. وقد اعطت النماذج الطينية فكرة واضحة عن العربات وتطورها فاعتباراً من النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد انتشرت العربة ذات الدواليب المليئة في معظم انحاء العالم القديم، من آسيا وصلت حتى وادي الهندوس، وامتدت في أوروبا الشرقية والوسطى باتجاه الغرب ولكنها لم تصل مصر إلا في عصور لاحقة، ذلك أن مصر اعتمدت النيل صلة وصل بينها وبين العالم القديم.

في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد ظهرت العربات الخفيفة ذات الدواليب الخشبية المشععة ومنها عربات الحرب ذات الدولابين وعربات النقل ذات الأربعة دواليب. فاعتباراً من القرن السادس عشر قبل الميلاد كانت لشعوب الشرق الأدنى من كاشيين وحثيين وميتانيين ومصريين عرباتهم الحربية، وقد برز استعمال العربة الحربية خاصة في معركة قادش، ولاقت رواجاً حتى

أنها وصلت الصين وشمالي أفريقيا. وقد عثر في المدافن على العديد من العربات التي أمكن إعادة تركيبها، ففي مصر في مدفن توت عنخ آمون عثر على عربة كاملة وسليمة.

في الألف الأول قبل الميلاد حلت العربة الحربية محل الفرسان وقد ظل اليونان يعتمدونها حتى القرن السادس قبل الميلاد وفي أوروبا خاصة في فرنسا عثر على حوالي مئة وخمسين عربة أشهرها عربة فيكس (Vix). أما في العصور الرومانية فقد استخدمت العربات بشكل واسع إذ أن الرومان طوروا أنواعها وأغراضها واعتمدوها في السباق كاليونانيين وانشأوا خصيصاً لها ميادين سباق العربات (Hippodrome). وفي أفريقيا انتشر استعمال العربات التي تجرها الابقار والأحصنة وامتد حتى الصحارى، ونجد رسوماً ومنحوتات تمثلها على الصخور، ففي محطة واد لارعار (Oued Lar'ar) وحدها ١١٤ عربة ذات دولابين ومجر للعربة.

وتجدر الإشارة إلى أن العربات القديمة بمختلف أنواعها وأغراضها لا تزال تستخدم حتى اليوم دونما تغيير يذكر في مبدئها التقني ـ العلمي الأساسي الذي ارتكزت عليه.

المسكوكات:

تعتبر عمليات التبادل التجاري وسيلة تعارف بين الشعوب ولها يعود الفضل في انتشار الاكتشافات وفي تغيير أنماط العيش وتطويرها، وقد كانت ولا تزال التجارة عند بعض الشعوب حاجة تدفعهم إلى المغامرة بعيداً، فنجد الفينيقيين يصلون حتى انكلترا سعياً في الحصول على القصدير، ويقيمون المحطات التجارية على شواطىء البحر المتوسط، والمصريين يستكشفون شطآن البحر الأحمر حتى الصومال. ونرى اليونان والرومان يقصدون الهند وجنوب الصين.

إحدى مهمات علماء الآثار المشوقة هي البحث عن الطرق الكبرى للتجارة، كطريق القصدير إلى انكلترا عبر أوروبا، وطريق العنبر بين البلطيق

واليونان، وطريق الذهب في أفريقيا الغربية، وطريق الحرير بين سوريا والصين، وطريق البخور بين جنوبي المشرق وشماله ... واكتشاف المحطات التجارية المنتشرة في المواقع الاستراتيجية والمكتنزة لأهم الشواهد الأثرية، الموضحة لدورها ولدور الحضارات التي مرت عليها والتي اعتمدت لألوف السنوات المقايضة أساساً في التعامل التجاري، هذه المحطات كانت أساساً لمفهوم الأسواق التجارية التي نشهدها ممثلة في رسوم المصاطب التي تعود الى عهد الامبراطورية القديمة في مصر وحيث الزبن يتبادلون، منتجات الأرض مقابل المنتجات المصنعة: صنادل مقابل خضار، صناديق مقابل لحوم ... وحتى يومنا هذا نجد أن المقايضة ما زالت معتمدة في تلبية حاجات الأفراد والجماعات والدول.

اصطدمت المقايضة، هذه الوسيلة الحضارية، بمعيق هام هو تقدير القيمة، أو الثمن، وكانت في كثير من الأحيان سبباً لنزاعات وصراعات وحروب ونجد الملوك والأصدقاء يتبادلون الهدايا ويقدرون أثمانها. ومثلنا على ذلك ما ورد في رسالة من إشخي ـ عدو (Ishkhi-Addu) ملك قطنة (Qatna) إلى ملك إكلاتيم (Ekallâtim) إشمي - داغان (Ishme-Dagan)، من الأرشيف الملكي لمدينة ماري في بلاد ما بين النهرين وتعود بتاريخها إلى حوالي سنة ١٨٠٠ ق. م. يشكو فيها الأول كمية القصدير القليلة التي أرسلها الثاني مقابل حصانين قيمتهما أكبر بكثير: «... إنه شيء، حقيقة لا يقال! ومع هذا، الآن، اتمسك فعلاً بقوله لأعزي قلبي ...

لقد طلبت مني الحصانين اللذين ترغب وارسلتهم لك. وها أنت أرسلت فقط عشرين مينا من القصدير!

ألم تحصل مني دون مناقشة وتماماً على رغبتك؟ وتتجرأ فترسل لي هذا القليل من القصدير! ...

أعلم أن ثمن هذه الأحصنة، عندنا في قطنه، هو ستمئة (شقل من) فضة. وها أنت أرسلت عشرين مينا قصديرا! لكن من يعلم هذا، ماذا سيقول؟...»

منذ العصر البرونزي احتل المعدن مكانته بين المنتجات واصبح مقياساً

للتبادل التجاري وأخذ بادىء الأمر شكل المعدن الخام فالقطع فالحلى ... قبل أن يستنبط الانسان فكرة وضع إشارة محددة على الحلقات أو الفؤوس أو القضبان أو القطع المعدنية. فالمصريون كانوا يكتفون بقضيب رفيع من الذهب يقطعون جزءاً منه ويزينونه ليقايضوه بمواد أخرى. وكثيرة هي الرسوم التي تمثل وزن المعدن الذي استخدم كعملة. هذا وقد اعتمدت الفؤوس الحجرية المصقولة والفؤوس المعدنية خاصة البرونزية كعملة تبادل في مختلف أرجاء العالم القديم ومثلها مثل الاصداف البحرية التي اعتمدت في العصر النيوليتي وغيرها من المنتجات الزراعية أو الحيوانية أو الصناعية كالابقار والدجاج والخراف والقمح والقطان والجلود والشحم والمنسوجات...

عمّ استعمال المعدن وأوزانه الشرق الأدنى حتى غلب لفظ «شقل» السامي والذي يعني وزن ودفع واصبح في الوقت نفسه يعني وحدة وزن قبل أن يصبح وحدة نقد في العصر اليوناني. وقضبان النحاس والفضة والذهب ظلت تعبر عن أشكال نقود نجدها ممثلة في مقابر وزراء مصر في عهد الامبراطورية الحديثة، حيث نرى الشعوب الغربية وقد وفدت حاملة منها للفرعون.

شهدت فكرة ختم أو نقش القضبان المعدنية لضمان وزنها وقيمتها، ولادتها في وادي الهندوس (باكستان)، فقد اكتشفت في موهنجو ـ دارو (Mohenjo - Dâro) أقدم قضبان نحاسية مدموغة ويبدو أنها استخدمت نقوداً، وقد عثر في آسيا الصغرى وفي آشورية على قضبان من العصر البرونزي الوسيط والحديث تحمل إشارات مميزة، ومن العصر الحديدي عثر على سبائك من معدن الرصاص تحمل اسم الملك الآشوري سنحاريب (أواخر القرن الثامن ق.م.).

يعزو بعض المؤلفين القدماء إلى الليديين اختراع النقود، لكن الأبحاث والاكتشافات الأثرية تدل على أن ضرب المعادن لصناعة معايير نقدية انتشر في حوض بحر إيجيه حوالي القرن السابع قبل الميلاد. وحسب مصادر أخرى أولى القطع المضروبة، ضربت في أجين (Egine) وقد ضربها فيدون (Phidon) ملك آرغوس (Argos)، الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. وأقدم

المسكوكات المعروضة من فضية أو ذهبية بعضها ضرب في أجين ويحمل رسم سلحفاة وبعضها يحمل رأس أسد وقد ضربها الملك كريزوس (Crésus) ملك ليديا (٥٦١ ـ ٥٤٦ ق.م.)

بعد فترة زمنية قصيرة ضرب داريوس الأول الملك الفارسي الداريك الذهبي والسيكل الفضي (المعروف بالميدي). ولكن أيونية منذ القرن السابع قبل الميلاد عرفت مسكوكات من معدن الإلكتروم (Electrum)، وهو مزيج من الذهب والفضة، مما يحمل على القول بأن كريزوس وداريوس اعتمدا طريقة كانت موجودة من قبلهم.

منذ العهد الآرخي، في اليونان، كانت لكل مدينة مشاغلها النقدية حيث تضرب المسكوكات الذهبية والفضية والبرونزية، وحملت المسكوكات رموزاً لحيوانات ولآلهة ... وقد عرفت مسكوكات المدن من رموزها الخاصة مثلاً: بومة أثينا، ثور سيباريس، مهر كرونثية، عربة ودرفيل سيراكوز، عربة ونسر أغريجانت ... وفي العصور الهللينستية اصبحت المسكوكات تحمل رموز الحكام والملوك وأخذت تحمل كتابات تمثلهم وتعبر عنهم.

نشر اليونان المسكوكات في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الشرق وقلدتهم بقية الشعوب فضرب كل منها مسكوكاته الخاصة والمميزة. وفي أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ظهرت في روما مسكوكات حقيقية حلت محل القضيب البرونزي وقطعه (aes signatum) الذي غالباً ما كان يحمل نقش ثور، هذا الحيوان كان وحدة قيمة وثمن ونسبة إليه كانت تقدر أثمان الأشياء، كعدة السلاح، والنساء والعبيد واعتبر ملكه دليل ثراء الفلاحين. وأول مسكوكة برونزية هي الأس (As) الذي اعتمد وزن الليبرة (Livre) المساوي ٢٧٣ غراماً ويحمل على أحد وجوهه رمز آلهة رومانية وعلى الآخر مقدمة سفينة حربية واسم روما فوقها. ومنذ عهد الامبراطورية أخذت رؤوس الأباطرة واسماؤهم والقابهم تظهر على المسكوكات الرومانية، ولكن بعض المدن التي حظيت بنوع من الحكم الذاتي خاصة في الشرق ضربت مسكوكات ترمز إليها بشكل خاص وتمثلت بمونوغرام أو حيوان أو إله...

إذا نقبت يوماً ما موقعاً أثرياً لا تهمل هذه الصروح الأثرية، ذات الأهمية الكبرى، التي قد تصادفها، فهي تشكل دليلاً يسمح بتأريخ الموقع ومعرفة الشعوب التي تداولتها، فما تحمله من رموز وكتابات ومن تمثله من إشخاص صوروا ، خاصة في العصور الرومانية، تصويراً واقعياً وحقيقياً يعطينا فكرة عن هيئة الأشخاص وملامحهم، وما تحمله من تمثيل هندسي يسمح لنا إعادة رفع ما تهدم من أبنية فقدت تصاميمها، إنها شاهد حي بامكاننا الاعتماد عليه في تفسير العلاقات العامة والتاريخية لفترة محددة، كما أنها تعطينا فكرة عن الفن ومدى تطوره وازدهاره أو انحطاطه، وهي دليل على الحالة الاقتصادية والاجتماعية إنها كتاب تاريخي بوجوه عديدة، إنها رسالة من الماضي تقرأ في أطار ومحيط محدد.

الأختام:

لو راقبنا تجارنا اليوم لوجدنا غالبيتهم تحتفظ داخل أدراج مكاتبها بأختام تمهر بها مراسلاتها وفواتيرها، كذلك الأمر بالنسبة للدوائر الرسمية لا تصدر عنها معاملة إلا وتحمل إلى جانب توقيع الموظف المسؤو ل دمغة أو ختماً يؤكد على صحتها ويجعلها وثيقة مؤكدة على مضمونها، غير قابلة للرفض أو التشكيك، اللهم إلا إذا تبين أنها مزورة. هذه الأختام، المختلفة الأشكال والأنواع والمضمون والمواد. التي اصبحت مستعملة بشكل واسع ولمختلف الأغراض ما هي إلا نتيجة لاستمرارية استخدامها وتطورها منذ العصور القديمة عند شعوب الشرق من سومريين وبابليين ... وحثيين ... الذين نقشوا الحجارة وصاغوا أنواعاً عديدة من الأختام أخذت أشكالاً مسطحة واسطوانية ودائرية ... يمكن بواسطتها ترك علامة مميزة ونافرة على جسم لين المادة، عموماً من الصلصال؛ ويعود هذا الاختراع بتاريخه الى عصر الحجر ـ النحاسي (الكالكوليتي)، فقد ظهر في الألف الرابع قبل الميلاد في شاتال هويوك في آسيا الصغرى؛ وفي الألف الثالث قبل الميلاد ظهر في شمال بلاد ما بين النهرين، في الفترة المدعوة عصر تل حلف. والاختام التي استخدمت كقوالب كانت تصنع من الخشب أو الطين.

في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد ظهر الختم الاسطواني الحجري، ذو المحور المثقوب، في بلاد ما بين النهرين وانتشر استعماله بسرعة في سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى. وقد تنوعت المواضيع المحفورة على الأختام الاسطوانية، منها التي تمثل الحيوانات ومنها التي تمثل مواضيع دينية وحربية، وقد أدت دراسة هذه المواضيع إلى توضيح وجوه عديدة من معالم حضارة بلاد ما بين النهرين خاصة عند البابليين والآشوريين في الألف الأول قبل الميلاد.

آثار هذه الأختام نجدها على اللوحات الطينية التي تحمل نص معاهدات وعلى الرسائل وعلى لفائف البضائع المصنوعة من حصائر القصب. وعلى الأواني المحتوية على أشياء ثمينة، وعلى الجرار المستخدمة في نقل أو حفظ المنتجات الزراعية. وعملية ختم هذه الأشياء تجعلها تحت حماية الآلهة وتشير إلى أن قسماً كبيراً منها خصّ المعابد أو القصور، مما يفسر تمثيل المشاهد الدينية أو إبراز عظمة الملوك الذين تظهر اسماؤهم أحياناً مكتوبة بحروف مسمارية والتي تعتبر بمثابة التوقيع أو علامة الملكية ودليلها.

والثقب المحوري للاختام الاسطوانية إنما كان لأكثر من غرض، إذ أنه يسمح بتمرير سلك يمكن صاحبه من تعليقه وابرازه للعيان كدليل على سلطته أو كتعويذة (أي تميمة).

اعتباراً من الألف الأول قبل الميلاد حل الختم المربع الأضلاع أو البيضاوي أو المستدير الشكل محل الختم الأسطواني في آسيا الصغرى وعند الحثيين وفي سورية وفلسطين. وقد برز التأثير المصري في شكل الأختام ومواضيعها. فالفينيقيون، الذين أخذوا الختم الأسطواني عن شعوب بلاد ما بين النهرين، قلدوا في الألف الأول قبل الميلاد الأختام المسطحة المصرية، ونجدهم منذ الألف الثاني قبل الميلاد يستخدمون الجعلان والتمائم وغيرها من الأشياء التذكارية المصرية التي انتشرت بكثرة في بلاد فينيقية وفلسطين.

صيغت ونقشت الأختام بمختلف اشكالها من الحجارة الصلبة والمتنوعة،

من العقيق، من اليشب، من حجر الدم، من أنواع المرمر، من اللازورد، من البورفير من الديوريت، من حجر الحية، من الحجارة الكلسية من أنواع العقيق المختلفة ... من الأصداف من العاج ... ولم يقتصر استعمال الأختام على المناطق والشعوب التي ذكرنا إذ أننا نجد أختاماً مربعة مستعملة في وادي الاندوس منذ الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، كذلك العالم الإيجي اعتمدها خاصة كريت المينوية وكانت تصنع من الحجارة الصلبة خاصة من حجر الدم كما ظهرت عندهم الأختام العاجية والذهبية والخواتم ـ الأختام (ختم يوضع في الاصبع كخاتم) وغلب في مواضيع النقوش تمثيل الحيوانات.

استمر اعتماد استعمال الأختام على الأواني خاصة على سدادات الجرار حتى العصور الكلاسيكية القديمة، ومع الرومان برزت ظاهرة جديدة هي الأختام التجارية التي حل فيها معدن الرصاص محل الصلصال ... واصبحت طبعة الختم تحدث بواسطة ملازم يضغط الرصاص داخلها. وكانت الملزمة تترك طابعها على وجه واحد لقطعة الرصاص أو على الوجهين إنما بموضوع مختلف. وظهر نوع جديد من الطبعة يدعى دمغة أو طبعة طبيب العيون (Cachet d'Oculiste)، عموماً عبارة عن لوحة صغيرة حجرية مربعة الأضلاع تحمل على جوانبها كتابة محفورة تشير إلى طبيب العيون والى نوع القطرة الموصوفة وحتى الى طريقة استعمالها وكانت هذه بمثابة بطاقة أو وصفة خاصة.

تؤدي الأختام بأنواعها وأشكالها ومواضيعها المتنوعة خدمة كبيرة لعلماء الآثار إذ أنها تقدم لهم معلومات قيمة عن الفن والعبادة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد ... كما أنها تساعد في تحديد تاريخ بعض المواقع الأثرية، وبعضها اصبح معتمداً كمقياس زمني خاصة منها أختام الشرق القديم الأسطوانية الشكل.

المنسوجات:

تعتبر مصر حالياً من أولى دول العالم المنتجة للقطن، وتعترينا الدهشة عندما نعلم أن المصريين القدماء لم يعرفوا القطن ولم يستخدموه، فماذا

استخدم القدماء في صناعة ملبوساتهم، وكيف حموا أنفسهم من عوامل الطبيعة وتوصلوا الى حياكة الأقمشة المتنوعة من كتانية وقطنية وصوفية وحريرية ...؟ وسؤالنا هذا لا يقتصر على شعب معين إنما ينطبق على معظم الشعوب القديمة.

إن المواقع الأثرية ضنينة بالشواهد النسيجية ذلك أن المواد الداخلة في تركيبها سريعة التلف وتتأثر إلى حد بعيد بالعوامل الطبيعية والحيوانية والبشرية التي تساهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في تحللها أو تلفها. وما خلّفه لنا القدماء من نماذج أثرية نادرة كلقى ولكنها في الوقت نفسه ممثلة بشكل واضح في الرسوم والمنحوتات التي تعود الى مختلف العصور والأزمنة.

ولا يهمنا في هذا المجال الحديث عن كيفية استخدام الانسان القديم لما توفر له من جلود الحيوانات التي اقتنصها ومن ألياف النباتات أو أوراقها وكيف ستر نفسه بها بقدر ما يهمنا كيف توصل الى حياكة المنسوجات وطورها معتمداً ما تيسر له من مواد طبيعية تحقيقاً لغاياته. فأولى الألياف النباتية التي استخدمت في عالم حوض البحر الأبيض المتوسط هي ألياف الكتان. فكل منسوجات المصريين القدماء كتانية من وزرة فلاحي عهد الامبراطورية القديمة حتى خمار النسوة الشفاف من عهد الامبراطورية الحديثة، كذلك عرف اليونانيون حياكة الأقمشة الكتانية الناعمة والفخمة. أما السومريون فقد استعملوا شعر الماعز في حياكة وزراتهم الطويلة المعروفة باسم كوناكس (Kaunakès). واعتمد صوف الخراف في صناعة الألبسة، بشكل خاص، في الشرق الأدنى، وفي اليونان وعند الرومان واستخدم في صنع الأغطية للفصول الباردة؛ بينما اعتمد الصينيون خيوط الحرير الطبيعي الذي ازدهرت تجارته وكانت له طرقه التي جهز لها اليونان والرومان القوافل العابرة لآسيا كلها وصولاً إلى بلاد الصين مصدر هذا القماش الثمين الذي ارتفع ثمنه كثيراً في أسواق حوض البحر الأبيض المتوسط واعتبر لباس الملوك ... والمترفين، والذي ما زال يعتبر من أثمن أنواع الأقمشة في العالم.

وإذا أردنا متابعة مراحل تطور صناعة النسيج عبر العصور لاقتضى الأمر تخصيص كتاب مستقل في هذا الشأن، ولو أردنا ذلك بوقت قصير، وسمح

لنا الظرف بذلك فما علينا سوى زيارة أحد المتاحف الخاصة بتقنية صناعة النسيج ونذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، متحف النسيج في مدينة ليون في فرنسا، حيث نشهد عرضاً للمواد والآلات والتقنيات وتطورها، من ورقة التوت والحصير البدائي حتى صناعة السجاد العجمي وما تفرع عنها. وما توفر من المنسوجات الأثرية ما هو إلا عبارة عن قطع صغيرة ونادرة، يشذ عن هذه القاعدة قطع النسيج الكاملة المصرية والتي تعود الى عهد الفراعنة والى أقباط القرون الأولى للميلاد.

ـ الباب الثالث ـ
الآثار الدينية

المعابد:

لا نستغرب عند قيامنا بأعمال التنقيب عثورنا في معظم الأحيان على المعابد لأن هذه الأبنية التي مارس فيها الانسان طقوس عباداته قد أحاطها بأكبر قدر من العناية ووكل عملية بنائها إلى أبرع الرجال وأمهرهم فسخروا لها امكاناتهم المادية والفكرية لتكون أبدية.

نجد في بلاد ما بين النهرين وخاصة في سومر أقدم المعابد. وفي أريدو وأوروك تعود المعابد بتاريخها إلى الألف الخامس والرابع قبل الميلاد، وكانت تقام فوق مسطح مرتفع نسبياً، فمعبد أريدو الأول أحيط بسور حجري في زمن لم تعرف فيه بلاد ما بين النهرين الجنوبية جداراً أو أساساً لجدار من الحجارة، وارتفع فوق مسطح عالٍ يشرف منه على المناطق المجاورة وقد أخذ شكلاً مستطيلاً وفتح في أحد جوانبه باب مربع يحده عامودان، وكانت جدرانه مزدانة بالأعمدة اللاصقة، وتبين أن قسماً منه ضمّ طابقاً علوياً وربما طابقين.

استخدم بشكل عام الطوب في بناء معابد بلاد ما بين النهرين، وأخذت تصميماً مستطيلاً مكوناً من باحة داخلية نصل إليها بواسطة ممر يقع في نهايته قدس الأقداس (Cella) أو الخلوة، الذي تتقدمه أحياناً قاعة أو رواق أمامي (Antecella) تحيط بهما قاعات ثانوية وممرات كما في معبد «نينماح» (أو إيماح) ومعبد «Z» ومعبد «عشتار أكد» في بابل ومعبد «سن» في خفاجة. هذا المخطط البسيط يصبح معقداً عندما تتعدد قدس الأقداس

وتتعدد القاعات التي تتقدمه كما في معبد «نابو» في بورسيبا ومعبد «سن» و «شمش» في آشور حيث تتقابل قدس الأقداس عند طرفي الباحة، وفي معبد «نينورتا» في بابل نجد ثلاثة قدس أقداس (أو خلوات) متلاصقة، وفي معبد نوزي نجد باحتين كل منهما تصل إلى خلوة مستقلة، وفي خفاجة نجد التيمينوس (Téménos) أخذ شكلاً بيضاوياً بينما ارتفع المعبد فوق قاعدة مستطيلة.

اجتمعت بعض المعابد في موقع واحد مع الزقورات كما في أور ومردوك في بابل، وفي بعض الحالات الفريدة نجد المعبد وقد حشر بين زقورتين كما هي الحال بالنسبة لمعبد «آنو» و «حدد» في آشور، وقد كانت بعض المعابد تشكل أحياناً جزءاً من القصر كما في قصر سرجون في خورسباد (دور شاروكين).

منذ الألف الرابع قبل الميلاد نجد أن المعابد كثيرة في شمالي بلاد ما بين النهرين خاصة في أوروك وأريدو وعبيد وخفاجة وتل براك وقد أخذت هذه المعابد بشكل عام صفة مجمع ضخم يحيط به سور، كالقصور الملكية، له مدخل رئيسي يحيط به برجان نصل منه الى باحة كبيرة مستطيلة الشكل تليها باحة أخرى أكبر منها فيها بناء مستطيل الشكل يتألف من بوابة على شكل بيت صغير تعقبه ساحة وغرفة استقبال ثم خلوة فيها المحراب والعرش وتمثال الإله.

كانت بعض المعابد تقام على مصطبة مرتفعة ارتفاعاً بارزاً ومصطنعاً وتدعى زقورات. والزقورة أو زاكارو (Zaqaru) باللغة الأكدية تعني كائن مرتفع وعال، وشعوب بلاد ما بين النهرين اطلقوا هذه التسمية على الأبراج ذات الطبقات التي يعلوها المعبد. هذا المرتفع الذي تجاوز العشرين متراً (من ٢٠م. إلى ٣٠م.) والاصطناعي رمز الجبل عند السومريين وعليه كانوا يقدمون أضاحيهم ويتعبدون. لكن اسم «زقورة» لم يظهر فعلياً إلا في عهد حمورابي فقبله كانت المعابد تأخذ صفة الجبل أو المعبد ذي السبع مناطق الممثلة بالطبقات أو المصاطب المتتالية والمتدرجة في صغر المساحة، ويصعد

الى المعبد القائم فوق أعلى مصطبة بواسطة درج يلتف حول جدران المصاطب، والدرج يكون إما ملتوياً أو حلزونياً أو مستقيماً يخترق المصاطب. أما الدافع الحقيقي لهذا الارتفاع فلا دليل ثابت يؤكده حتى الآن. وقد صنفت الزقورات إلى ثلاثة نماذج.

ـ النموذج الأول، سومري، مستطيل عند القاعدة ويصعد إلى سطح المصاطب بواسطة الأدراج، ونجده في أور ونيبور وأوروك في جنوب بلاد ما بين النهرين.

ـ النموذج الثاني، آشوري، قاعدته مربعة يصعد الى سطح المصاطب بواسطة مطلع منبسط يلتف حول البناء ونجده في كلخ وآشور وخورسباد في شمال بلاد ما بين النهرين كما نجده في الجنوب في أريدو وأدب وحمّان.

ـ النموذج الثالث، مركب، قاعدته مربعة ويصعد إليه بواسطة أدراج للطبقات السفلى ومطالع منبسطة للطبقات العليا، وأهم هذه الزقورات هي الزقورة الكبيرة في بابل والتي تمكن العلماء من إعادة رفعها بفضل الوصف الدقيق لهذا البناء ولطبقاته السبع وقياساتها المدّونة في وثيقة تعود إلى عهد السلوقيين المدعوة «لوحة إزاجيل» (Tablette d'Esagil).

يضيف بعض العلماء نموذجاً رابعاً من الزقورات وهو المعبد المشيّد فوق مصطبة عالية.

وطبقات الزقورات في بورسيبا والتي بلغ عددها سبع طبقات فقد كانت كل منها مخصصة لأحد الكواكب المعروفة في بلاد ما بين النهرين ومطلية بلون مميز يرمز إليها: أسود، برتقالي، أحمر، أبيض، أزرق، أصفر، فضي أو ذهبي. فهي جبل رمزي، عرش إلهي منه تحكم الآلهة الكون، والقاعدة أو المصطبة مهمتها حمل المعبد، مقام الآلهة. وعلى ما يبدو أن الزقورة كانت تعلوها دائماً غرفة مقدسة تقيم فيها الآلهة وهذا ما تشير إليه اسماء بعضها: «المقام المرتفع لزبابا وإنّينا الذي رأسه عال مثل السماء» في كيش، و «بيت دلائل السماء والأرض السبعة» في بورسيبا. وكانت مهمة الزقورة الربط

بين السماء والأرض وهذا ما توحي به بعض الاسماء: «بيت ربط السماء والأرض» في لارسا، «بيت تأسيس السماء والأرض» في بابل، «بيت جبل العالم» في آشور.

عديدة هي المدن التي عثر فيها على آثار زقورات ومنها: أريدو أور، تلو، أوروك، لارسا، أدب، نيبور، بابل، بورسيبا، كيش، آشور، نينورتا، كلخ، دورشاروكين، ماري، تل براك، إيرماح وسوسه. وأقدم الزقورات هي زقورة أور وتعود إلى عهد أول سلالة أي الى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد، وأحدثها هي زقورة مردوك في بابل بنيت أيام نبوخذنصر في أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

وتعتبر الزقورات من الأوابد الدينية التي تضاهي، بتقنيتها المعتمدة على اللبن المشوي والحصر وعيدان القصب وحبال البردى، أهرام فراعنة وادي النيل.

إن أقدم المعابد في مصر هي المعابد المدفنية الممثلة في أهرام الامبراطورية القديمة، تصميمها بسيط وتتألف من عدة باحات ومن قاعة معمدة ـ الأعمدة في أغلب الأحيان ما هي إلا ركائز ـ ومن كابيلات أو خلوات (Chapelle) أقيمت الواحدة منها الى جانب الأخرى، كما في معبد شيوبس ومعبد سنفرو الهرمي ـ المعيني الشكل. فريد هو المعبد «T»، لعيد سيد (Sed)، العيد اليوبيلي للملك، في هرم زوسر في صقارة، ويتألف من بناء مستطيل الشكل نلجه بواسطة بابين يصلان إلى قاعة الأعمدة حيث نجد ثلاثة أعمدة مضلعة داخلة في البناء، ومن القاعة نصل إلى غرفة أمامية ومنها إلى القاعة الرئيسية التي تنتهي في القسم الشمالي بقاعة صغيرة مكشوفة السقف مدخلها مزود بركيزتين، ويحد هذه المجموعة من الأبنية ثلاث باحات موازية للقاعات. أما معابد الشمس في «أبو قير» فطرازها فريد لأنها مكشوفة كلياً (أي لا سقف لها).

والمعابد الالهية المعروفة بأبنية الامبراطورية الحديثة وكذلك المعابد التي ترجع الى العهد اليوناني فتتبع بشكل عام نفس التصميم، وتتألف من: مدخل صرحي تحده ركيزتان ضخمتان واجهتهما مائلة، يؤدي المدخل إلى باحة تحدها الأروقة المعمّدة تليها قاعة الأعمدة التي نصل منها إلى قدس الأقداس الذي يتقدمه أحياناً ممر تتفرع عنه غرف جانبية. هذا التصميم يتعقد أحياناً إذ تكثر المداخل الصرحية وقاعات الأعمدة ولكنه يبقى ثابتاً لأنه يأخذ صفة روحية ـ دينية، فالمعبد المشيّد من الحجارة، هذه المادة الشريفة التي لا تتلف بسرعة، هو صورة للكون وأرضه هي الكرة الأرضية. والأعمدة المزهّرة التيجان إنما هي رمز الزراعة ترتفع من الأرض الخصبة والمعطاء نحو السماء، سقف قاعة الأعمدة هو السماء فقد طلي باللون الأزرق وتوزعت فيه النجوم؛ هذا هو العالم الذي تجتازه الشمس خلال النهار: جزء من قدس الأقداس، غور مظلم في الشرق، منه ينبثق الإله آتياً بالصباح في وسط الظلمة من قاعة الأعمدة، وأخيراً، عند الظهر، يتجول فوق الركائز ـ الأعمدة التي تحمل السماء قبل أن يعود أدراجه فيقطع المسار في اتجاه معاكس ليعود ويغيب في قدس الأقداس. هكذا، مبدئياً، يجب أن يكون المعبد موجهاً حسب سير الشمس في السماء من الشرق إلى الغرب، وأبرز نموذج عن المعابد المعبرة عن هذه النظرة معبد الكرنك. تضاف إلى هذه العناصر الممثلة للمعتقدات الدينية في تصميم البناء الديني المسلات، الماميزي ودرموس أبي الهول.

أقام المصريون أيضاً معابد نحتت في الصخر مثل معبد أبو سمبل، الذي دعاه اليونان سبيوس ارتيميدوس (Spéos Artémidos)، قرب بني حسّان؛ وضمن هذه المجموعة من المعابد الصخرية يمكننا تصنيف المعبد المدفني للملكة حتشبسوت في دير البحري.

أماكن العبادة السورية ـ الفلسطينية تمثل مجموعة من الانماط الهندسية، من السور البسيط الذي يضم داخل جدرانه عدداً من البتيل (بيت إيل = بيت الاله ـ Bétyles) إلى المؤلف من باحة ومعبد قد يحتوى على قاعة أعمدة (معابد أوغاريت، لاكيش، بيت شين)، والباحة قد يكون فيها

مجموعة من البيتيل كما في بيبلوس (جبيل) في لبنان. أما الأماكن المقدسة الحثية فتتمثل بمجمعات معقدة مرتبطة ببعضها بواسطة باحة أو باحات تحدها الأروقة ذات الركائز (معبد حاتوسّا).

أخذت النار عند الإيرانيين صفة مقدسة، فقد كان هؤلاء يقيمون على رؤوس المرتفعات مذابح للنار، ونجد عندهم بعض المعابد منها معبد بيشابور وهو عبارة عن قاعة طول ضلعها ١٤ متراً أقيمت على عمق سبعة أمتار من سطح الأرض وارتفاع جدرانها بلغ ١٤ متراً، ننزل إلى القاعة بواسطة درج سقفه عبارة عن قبة سريرية، وفي كل جدار باب يؤدي إلى أروقة. أما معبد قصر الشيرين الذي أقامه خسرو الثاني في أوائل القرن السابع ميلادي فهو عبارة عن مجمع بنائي (٨٠م. ×١٣٠م.)، نصل بواسطة ممر طويل تحده القاعات إلى باحة فسيحة تحف بها أيضاً القاعات وفي آخرها أقيم المعبد الرئيسي المؤلف من قاعة مربعة طول ضلعها ٢٥ متراً، يحدها جدار سميك فتحت فيه أربعة أبواب وكانت تغطيها قبة.

إذا لم تكن قصور كريت المينوية هي في الوقت نفسه مراكز عبادة فلا وجود لأبنية دينية في كريت، وهذا الأمر يبدو مستغرباً علماً بأنها كانت مليئة بالمغاور، وبالتالي لا نعرف إلا القليل من الأماكن المقدسة في اليونان الميسانية ونجدها في ميسان وتيرانت وفيلاكوبي وهاجيا وإيريني وأزينة. لكن الشعب اليوناني القديم يعتبر شعباً متديناً، وقد خص آلهته بأبدع وأروع أعماله الفنية، وتصميم المعبد اليوناني كان نموذجاً للمعابد الرومانية وهو قريب من معابد الأترورريين التي لم يبق منها إلا الجزء اليسير.

تحدد طريقة ترتيب الاعمدة عند اليونان ونظامها طراز المعبد، نقول «إن أنتيس» (In Antis) عندما يضم المعبد بين ركيزتي واجهته الجانبيتين عامودين فقط، وهذه غالباً حالة الكنوز وهي أبنية صغيرة تشبه المعابد وتتألف من غرفة واحدة فيها كان اليونان يحتفظون بالهبات والنذور المقدمة للأماكن المقدسة الهامة، مثل دلفس (Delphes) أو أولمبي. وعندما يضاف إلى هذا البناء رواق أمامي تتقدمه أربعة أعمدة يدعى «بروستيل» (Prostyle) وعندما توجد خلف البناء أعمدة مماثلة للأعمدة الأمامية يصبح أمفيبروستيل

(Amphiprostyle)، ويقال إنه «بريبتير» (Périptère) عندما تحيط به الأعمدة من كل الجهات، و «ديبتير» (Diptère) عندما يكون هناك صفان من الأعمدة محيطان بالبناء، وقد تكون الأعمدة على صفين من الخلف وعند الواجهة، أو على ثلاثة صفوف، هذه الأعمدة تختلف حسب النظام الذي تعتمده: دوري، أيوني، كورنثي، كارياتيد أو مركب؛ وتشكل نوعاً من القفص يحيط بجسم البناء المدعو «ناوس» (Naos) باليونانية و(Cella) بالاتينية، أي قاعة العبادة، ويحمل المعبد صفة النظام المعتمد في الأعمدة. يتقدم قاعة العبادة عادة رواق أمامي يدعى «بروناوس» (Pronaos)،، وقد يحتوي البناء على غرفة صغيرة خلفية تفتح إلى الخارج تدعى «أوبيستودوم» (Opisthodome) وهي عبارة عن مخزن يوضع فيه كنز المعبد. ومما تجدر الإشارة إليه المنحوتات الرائعة التي حملتها أفاريز الجدران والجبهات المثلثة (Frontons) والتي تعبر عن المعتقدات الدينية.

كان المعبد الأثروري على نفس النمط إنما يقوم على مصطبة من الحجارة، لكن الأعمدة كانت خشبية وكذلك هيكل البناء من الطوب الغير المشوي والزخارف من الطين المشوي والمطلي بألوان حادة. يتألف المعبد الأثروري مبدئياً من قسمين يسميهما اللاتينيون «بارس أنتيكا» و «بارس بوستيكا» (pars antica et pars postica)، البارس أنتيكا تشكل الرواق الأمامي والبارس بوستيكا تشكل قاعة العبادة التي تكون قاعة واحدة أو ثلاث قاعات متجاورة.

معظم المعابد اليونانية والأثرورية والرومانية مستطيلة الشكل ولكن هناك أيضاً معابد مستديرة الشكل وهي نادرة في اليونان، نذكر منها تولوس مارماريا في دلفس وتولوس إبيدور (تولوس * بناء دائري الشكل)، وأكثر استعمالاً عند الرومان، ونقول عنها إنها مونوبتير (Monoptères) عندما تحيط بدائرتها الأعمدة.

إلى العهد الروماني تعود بتاريخها الأماكن المقدسة أو مراكز العبادة العجائبية أو السرية ومن أبرزها معابد «ميترا» (Mithra) المدعوة «ميتريوم»

(Mithraeum) المؤلفة من قاعة مستطيلة تنتهي أحياناً بحنية. هذا الطراز الذي ظهر في مرحلة متأخرة اتبع التصميم البازيليكي في الداخل المقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الأعمدة، والمزود عند جوانب الجدارن الطويلة بمقاعد حجرية. أما هيكلية مراكز العبادات الأخرى فلم تأخذ شكلاً موحداً، يمكن أن تكون قاعات بسيطة مربعة ومزودة بمذبح مثل معابد جوبيتير دوليشينوس (Jupiter Dolichenus)، آلهة سورية المصدر، أو معابد تقوم فوق مصطبة ويتقدمها رواق معمد، أو معابد تحيط بها الأعمدة.

المذابح:

ما المذبح؟ إنه الحجر أو ما شابهه من بناء صغير يقام لتراق فوقه دماء الأضاحي والنذور خلال الاحتفال بالطقوس الدينية، إنه عنصر إساسي في العبادة نجده عند جميع شعوب الحضارات القديمة، وعدم العثور عليه في بعض المواقع الأثرية الدينية غالبا ما يرجع إلى كونه قد صيغ من مواد سريعة التلف كالطوب والخشب. ومع أن معظم المذابح التي نعثر عليها، خلال عمليات البحث والتنقيب الأثري، حجرية فإننا نعلم من مضامين النصوص القديمة أن مذبح ديلوس (Délos)، المدعو كيراتون (Keraton)، صنع من قرون الحيوانات، حسب بلوتارك (Plutarque).

ففي سومر نجد مذبحاً مكوناً من جرن حجري، يرتفع فوق قاعدة مركزية غرست فيها شُجيرة، وموضوعاً أمام تمثال الإله الذي يتقبل تضحية الملك، كما في نصب أورنامو الذي يعود بتاريخه إلى القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد. وفي مصر يأخذ المذبح شكل طاولة تقادم توضع في المدفن أو شكل بناء صغير يتقدمه درج للصعود كما في دير البحري. أما المذبح ذو القرون أي الذي أخذت زواياه الأربع شكل قرون الحيوانات فنجده في كريت المينوية (كنوسوس) كما في اسبانيا وفلسطين (مجدّو) في العصر البرونزي.

عند الحثيين والأنباط نجد المذابح المنحوتة في الصخر كما في يازيليكايا

(Yazilikaya) في تركيا وفي أعالي البتراء في الأردن. أما المذبح المزدان بمنحوتات نافرة أو الذي تحمله قاعدة أخذت شكل إنسان فنجده عند الآشوريين كمذبح توكولتي نينورتا في آشور. ومذابح النار فريدة هي في إيران القديمة، الأخمينية أو الساسانية وشبيهة ببرج صغير نحتت جوانبه على شكل أقواس تحدها الأعمدة عند الزوايا كما في نقش الرستم.

أما اليونان والرومان فقد أقاموا المذابح في كل مكان، في بيوتهم في معابدهم أو أمامها في الغابات وداخل الأسوار المقدسة وعند مفارق الطرقات، تنوعت موادها وأشكالها واحجامها. فمن مذابح البخور الصغيرة المزودة بعروتين تسهلان عملية نقلها من موقع إلى آخر إلى المذابح الصرحية وأشهرها عند اليونان مذابح زوس الإله (Zeus) في أولمبي وسيراكوز وبرغام، والأخير عبارة عن بناء بلغ طوله ٣٧,٧٠م. وعرضه ٣٤,٦٠م. يصعد إليه بواسطة سلم عرضه ٢٠ متراً وعدد درجاته ٢٨، تتوجه أعمدة أيونية، زينت إفريزه منحوتات تمثل صراع الآلهة والجبابرة، وقد نقلت آثار هذا المذبح إلى برلين وأعيد رفعها في متحف خاص يدعى «البرغامون» (Le Pergamon). كذلك، نجد مذابح الرومان الصرحية تزينها المنحوتات الجميلة كمذبح السلام في روما، ومذبح روما وأغسطس في مدينة ليون في فرنسا الذي أحيط بالأعمدة وبستين تمثالاً يمثل كل تمثال منها أحد شعوب الغول، ومذبح مدينة بعلبك في لبنان الذي غلف بصفائح البرونز وارتفع فوقه سقف يحميه.

المذابح في كل عصر تعبر عن مفهوم ديني طقوسي، ولقد عثر على بعضها وما زال بعضها الآخر ينتظر اكتشافه، وتعتبر من الكنوز الأثرية الهامة.

ـ الباب الرابع ـ

الآثار المدفنية

إن الاعتقاد بعودة الروح إلى الحياة بعد الوفاة، أو بالإنتقال من عالم إلى آخر. دفع الأحياء إلى دفن موتاهم مع شتى الأغراض التي سيستخدمونها أو سيحتاجونها في الحياة الأخرى. وقد تكون هذه الأغراض عادية كالمسكوكات والفخاريات والزجاجيات التي تحتوي على التقادم والغذاء ... أو غنية كالاسلحة والحلى الثمينة.

تعتبر المدافن مرتعاً خصباً ومميزاً ليس فقط بالنسبة لعلم الآثار إنما أيضاً لمختلف أنواع العلوم فدراستها ودراسة أساليب ونماذج الدفن المتنوعة في أنحاء العالم القديم والطقوس المرافقة لها لا يسمح لنا ضيق المجال تفصيلها وإيفاءها حقها، لذا سنكتفي بإلقاء نظرة ولو سريعة عنها.

تنقسم ممارسة الطقوس المدفنية إلى مجموعتين كبيرتين تعتمد كل منهما على مبدأ رئيس وهو إما الدفن البسيط لجسد الميت في قبر (inhumation) أو حرق الجسد قبل دفنه (Incinération)، وهذه الأخيرة أقل إنتشاراً في العالم القديم رغم أنها في العصر البرونزي واوائل العصر الحديدي عمّت قسماً كبيراً من أوروبا وعرفت مدافنها باسم حقول الجرار المدفنية (Champs d'urnes funéraires). وعملية إحراق جثة الميت نجدها في موقع دون الآخر بشكل مشتت منذ الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد الأناضول، وقد استمرت هذه العملية حتى العصر الهندسي في اليونان وحتى في العصور اللاحقة إلى جانب طريقة الدفن دون احراق الجثة في أوروبا وفي ايطاليا وحتى العصر الروماني. والرومان الذين عرفوا طريقتي الدفن عمموا ممارسة حرق الجثث في امبراطوريتهم وبنوا لعلب حفظ الرماد «كوى الحمام» (Columbariums) وهي عبارة عن أبنية تقام في المدن المدفنية وتزود بكوى توضع داخلها العلب المدفنية.

يتنوع الدفن دون حرق الجثة من الحفرة البسيطة التي تحف جوا
أحياناً الحجارة وندعوها في هذه الحال «Ciste» إلى الجرار المدفنية إلى ا
الطين المشوي إلى النواويس الحجرية أو الخشبية أو المعدنية إلى المد
الصرحي أو الموزوليه (Le Mausolée) إلى المصطبة فالهرم ... أما المد
العميقة داخل الأرض أو «الديماميس» فقد تتألف من غرفة بسيطة أو أ
نصل إليها بواسطة بئر أو سرداب عبر طريق منحدر يشكل رواقاً محف
جزئياً أو كلياً تحت مستوى سطح الأرض. هذه الديماميس قد تقام في ب
تل وتنحت مداخلها في الصخر كما هي الحال في العديد من القبور الأثرو
والصقلية والقبور ذات الواجهات المقلدة للمعابد اليونانية. وغالباً ما يث
إلى القبور التي تختفي واجهات مداخلها تحت الأرض تليل ونجدها
تسالية ومقدونية في اليونان وتعود بتاريخها إلى العصرين البرونزي والحديد

ونجد أهم الديماميس في مصر في المدافن الملكية، في وادي الملوك ا
وادي الملكات، لكن الطراز المميز في المدافن هو الهرم الذي غالباً ما تحي
به قبور أفراد الحاشية التي تغطيها المصاطب.

هناك نوع آخر من المدافن، نادر جداً، هو القبور الدائرية الشكل، وه
عبارة عن قبر أو عدة قبور داخل حفرة تحت الأرض، تدل على وجود
دائرة من الحجارة، نجدها عند الإيلليريين في اليونان ونعرف منها إثنتين
ميسان تدعيان دائرتي A و B. في الأولى عثر على كنوز من أواخر العص
الهيللادي الأوسط. وهناك أيضاً في آسيا الوسطى قبور دائرية، خاصة
لولان (Loulan) من القرن الأول قبل الميلاد. أما القبور الصرحية الدائري
والمدعوة «تولوس» (Tholos)، فتمثل طرازاً خاصاً واستعملت خاصة ا
العالم الإيجي.

كل القبور يمكن أن تكون فردية أو جماعية، والقبور عامة تجتمع في
مقبرة أو مدينة مدفنية وتخصص لها مواقع في خارج جدران المدن. في العا
اليوناني والروماني كانت تقام عند طول الطرقات وراء أبواب المدن. لكنن
نعرف حالات عديدة حيث يتم الدفن تحت أرض المساكن، خاصة بالنسب
للأولاد الذين كانوا يوضعون في جرار قبل أن يدفنوا.

فوق القبور خاصة عند اليونان والرومان كانت ترفع نصب (شاهد القبر) تحمل كتابات، حفظت لنا اسماء الموتى، ونقوشاً تمثل الميت مع حيوان أليف (عند اليونان غالباً هو الكلب) أو خادمة. كذلك الغرف المدفنية كانت تغطي جدرانها في معظم الأحيان الرسوم التي تمثل مشاهد من الحياة اليومية، مجالس الطعام والشراب ذات الصفة الرمزية ... كما هي الحال في المواضيع الممثلة في المصاطب والديماميس في مدينة طيبة المدفنية في مصر، وفي العديد من مدافن العالم اليوناني وفي قبور الأثروريين في بوسيدونيا في إيطاليا.

عند المصريين كما في الشرق الأدنى وفي العالمين اليوناني والروماني نشهد في المدافن على جدران الآبار أو على النواويس كتابات تحذر من يغتصب هذه الأماكن الأبدية من لعنة الآلهة، إضافة إلى نوع آخر من الحماية لها، ذات الطابع السحري، يعبر عنها بتمثيل بعض الحيوانات كالأسد حارس المدن المدفنية أو أبي الهول، تنقش وتحفر بكاملها أو ممثلة برأسها فقط، وقد تنحت نحتاً بارزاً أو تنقش على النواويس أو ترسم على جدران المدافن.

إن الأعتقاد العام عند جميع شعوب العالم القديم بعودة الأفراد الى الحياة حملهم كما سبق وذكرنا إلى وضع مختلف أنواع الأغراض مع الميت وهذه الأغراض تعتبر شواهد أثرية معبرة عن حضارات الشعوب القديمة وعندما يتعلق الأمر بمدافن ملكية أو بمدافن الأمراء كما في مدافن «توت عنخ آمون»، أوتانيس، أو أور ... فالموجودات كنوز فعلية وثمينة من خلالها نتمكن من الحكم على مدى الغنى الحضاري وعلى المستوى التقني والفني الذي وصل إليه شعب ما. لكن كل أنواع المدافن لها أهميتها، والمدافن المتواضعة غالباً ما تعطينا معلومات أوفر من المدافن الغنية ذلك أن المنقبين المتسترين إذا لم نقل «لصوص الليل» لم يعيروا مدافن الفقراء أهمية ونادراً ما نعثر على مدفن غني سلم من النهب ولم يفرّغ منذ زمن بعيد كما أننا نجد في المدافن العامة معلومات وافرة عن الحياة اليومية ومتطلباتها للمجتمعات القديمة بينما لا نجد في المدافن الخاصة والغنية سوى الأشياء النادرة والثمينة. فالمدافن العامة من الناحية العلمية أكثر أهمية من المدافن الغنية رغم ما تحتويه الأخيرة من كنوز نادرة. ولا يمكننا الشك في أن هذه الشواهد عادية كانت أم نادرة

سوف يفتقر لها في العصور اللاحقة من سيحاول دراسة المدافن المسيحية والاسلامية.

في مجال حديثنا عن الآثار المدفنية، لا بد لنا من تناول بعض المعالم التي ذكرنا بشيء من التوضيح دون الدخول في التفاصيل التي تحتاج الى مجلدات لإيفائها حقها في البحث والدراسة.

الـ «Ciste»

إن لفظة «Ciste» عند الرومان كانت تعني، سلة قصب اسطوانية الشكل مزودة بغطاء، أو قفة تستعمل في الطقوس الدينية، وفي علم الآثار تطلق تسمية «Ciste» على نوع من المدفن المدعو «ميغاليتي» ويتألف من بلاط حجري يوضع في القعر وعلى الجوانب الأربعة للحفرة يشكل ناووساً في الأرض يغطى بحجر أو أكثر. وقد ظهر هذا النوع من المدافن منذ العصر الحجري الحديث وما زال مستخدماً في بعض مناطق العالم، في أمريكا وآسيا وأوروبا وأفريقيا وأوقيانيا.

حقول الجرار: «Champs d'urnes»

تطلق تسمية حقل جرار مدفنية على مدافن تحتوي أجاجين تحفظ فيها عظام الموتى المحترقة أو رمادها والتقادم التي ترافقها وقد تشكل الأجاجين من مختلف المو اد حسب أهمية الميت فهي فخارية أو حجرية أو معدنية كالبرونز والذهب والرصاص ... ظهرت هذه العادة في الدفن في أوروبا الوسطى أساساً واعتبرت دليلاً على الفترة الانتقالية من العصر البرونزي الى العصر الحديدي ويبدو أنها انتشرت فعلياً حوالي أواسط القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

النواويس:

إن استعمال «العلب» لحماية الموتى ليس ظاهرة عامة عند الشعوب القديمة. في الحضارات البدائية، اكتفي بوضع الجثث على سطح الأرض تقريباً، وأحياناً كانت تغطى الجثة بجلد حيوان أو تلف بحصير. وطريقة الدفن في حفرة غلفت جوانبها بالحجارة (Ciste) تعتبر نوعاً من النواويس وتغنينا عن استعمالها. عند شعوب الحضارات التي استخدمت الدياميس يوضع الميت على سرير أو عربة مع أدوات بهرجته دون اللجوء الى النواويس: والدياميس في هذه الحالة وفي أغلب الأحيان عبارة عن غرف في عمق بئر خالية من البناء أو مكونة من ألواح أو جذوع خشبية تقلد أحياناً البيوت كما في مدافن السومريين. ونجد أحياناً سلالاً كبيرة أو جراراً عوضاً عن النواويس خاصة في العصر البرونزي.

في مصر منذ أواخر عهد ما قبل السلالات ظهرت النواويس، المصنوعة من الطين المشوي أو من الخشب، التي حلت محل السلال التي تلت استعمال الحصر أو جلود الحيوانات في أوائل الألف الرابع قبل الميلاد. خلال المرحلة التاريخية ظل الفقراء يستخدمون هذه النواويس الرخيصة التكلفة وأحياناً استعاضوا عنها بالجرار وقد حفظت الأجساد المحنطة إجمالاً. عثر من المرحلة التينية (٣٢٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق.م.) على بعض النواويس الخشبية ولكن أغلب النواويس كانت من الطين المشوي. في مدافن الامبراطورية القديمة ظهرت النواويس الحجرية (غرانيتية أو كلسية) وهي عبارة عن أحواض كبيرة مستطيلة الشكل عارية من الزخارف ومصقولة وتغلق بواسطة غطاء، لكن ناووس ميكرينوس (Mikérinos) يحمل زخرفة، يبدو أنها أضيفت إليه في وقت لاحق. في عهد الامبراطورية الوسطى، ونتيجة لظهور نوع من الديمقراطية في عادات الدفن، كثرت النواويس الخشبية المزخرفة بأعمدة متعددة الألوان تمثل واجهات المنازل أو القصور وتحيط بها نصوص مدفنية هيروغليفية. في عهد الامبراطورية الحديثة ظهر القبر الممثل لشخص الميت (Anthropoïde) الغني بالزخارف، هذا القبر مكون أحياناً من عدة نواويس تعلب داخل بعضها البعض وتتلاءم مع شكل هيكل الميت المحنط أو المومياء،

ومن النماذج عن هذا النوع نواويس توت عنخ آمون المعلبة في ناووس حجري مستطيل الشكل، وقد ظل الناووس الحجري المستطيل الشكل مستخدماً حتى العصور الرومانية، أما القناع الموضوع عند مستوى الوجه في العصور القديمة فقد حل محله رسم الميت الشخصي.

هذا النوع من الأوعية المدفنية الشخصية (Anthropoïde) المنحوتة من الحجر اعتمده الفينيقيون ومن نماذجه ناووس «أشمون عازار»، الموجود حالياً في متحف اللوفر في فرنسا، الذي يحمل القسم الأعلى منه كتابة فينيقية وناووس «تبنيت»، الموجود في اسطنبول، والذي يحمل كتابات هيروغليفية. وبينما وجوه هذه النواويس مسطحة في أغلب الأحيان وقليلة التعبير نجد أن بعضها من العصور اليونانية ـ الرومانية في فينيقيا تمثل وجوهاً متقنة النحت ومعبرة وحيوية وقد اعطتنا المدينة المدفنية الملكية في صيدا نواويس جميلة وفخمة، على شكل منازل مستطيلة ومزخرفة بالمنحوتات البارزة التي تمثل مشاهد حياتية جميلة جداً كمشهد النادبات (الباكيات) أو كناووس الاسكندر الذي يعود بتاريخه الى العصر الهللينستي.

ـ تعود النواويس المكتشفة في فلسطين إلى العصر اليوناني ـ الروماني وهي من الطين المشوي تمثل الموتى بوجوه غير متقنة الصياغة وتدعى «فلسطينية» وقد عثر عليها في بيت شعيا. واعتباراً من العصر اليوناني ـ الروماني نجد أن طراز النواويس الأكثر شيوعاً هي التي تأخذ شكل علبة أو قبر بسيط وقد اطلقت عليها تسمية «théca» ومنها النواويس الفينيقية الجبيلية المأخوذة من حجر كلسي أو رخامي بسيط جداً وهي عبارة عن حوض مستطيل الشكل لا يحمل أية زخارف ومزوّد بغطاء ذي منحدرين أي على شكل «جملون» (شكل العدد ٨). وإلى الفترة نفسها تعود بتاريخها حافظات العظام الحجرية التي كانت تزخرف أحياناً بعناصر هندسية، الغاية منها حفظ عظام الأجساد المجردة من اللحم نتيجة مرور فترة زمنية على دفنها في الأقبية ليدفن غيرها في الموقع عينه.

كثيرة جداً هي النواويس الحجرية اليونانية والرومانية المعتبرة اعمالاً فنية حقيقية وإذا كان الفقراء يكتفون بأحواض مستطيلة أو بجرار بسيطة فإن

الميسورين اعتمدوا نواويس جوانبها وأغطيتها مليئة بالمنحوتات المتنوعة التي تمثل مشاهد حياتية مختلفة، فإلى جانب المشاهد المدفنية حيث نرى الميت محاطاً بأشخاص مألوفين نجد مواضيع مأخوذة من الميتولوجية ومن الأساطير والملاحم اليونانية، من الإلياذة والأوديسة من حياة أخيل وإيبوليت وديونيسوس إله الخمر الذي يحمل أيضاً صفات «آلهة جهنم» والذي يطلق اسمه على مجموعة من النواويس المدعوة «ديونيسياك». وهناك نواويس تحمل مشاهد تمثل جوانب محددة من حياة الميت كالجوانب التاريخية كما في ناووس الاسكندر، قسم كبير من هذه النواويس تعود الى العصر الروماني، ونميز بينها طرازين: الطراز اليوناني والطراز الروماني.

النواويس اليونانية عموماً غطاؤها على شكل سقف ذي منحدرين وجبهة مثلثة والمنحوتات تحتل الجوانب الأربعة للناووس، أما النواويس الرومانية فغطاؤها مسطح والمنحوتات تحتل ثلاثة جوانب فقط، فأحد الجوانب الطولية لا يحمل منحوتات كونه يستند إلى جدار أو يحشر داخل حنية.

ومن النواويس الرومانية البحتة نذكر طرازاً يتسع عند حوافه العليا على شكل حوض الاستحمام (المغطس)، زخرفته بسيطة وتقتصر على خطوط متموجة ومتوازية على شكل حرف «S» ممدود، وقد ظل عدد من هذه النواويس معتمداً في العصور المسيحية. أما النواويس المسيحية الأولى فقد استمرت في اعتماد النحت البارز مع تغيير في المواضيع التي أصبحت مأخوذة من العهدين القديم والحديث. وغالباً ما يظهر رمز المسيح عليها أو الميت برفقة زوجه في إيقونة مركزية تحيط بها مجموعة من المشاهد، وفي بعض الأحيان تنظم المشاهد على شكل صفين فوق بعضهما البعض وقد تحدد المشاهد بين مجموعتين من الأعمدة فيبدو الأشخاص وكأنهم يقفون في رواق معمد.

إضافة إلى ما ذكرنا فإن بعض النواويس اليونانية ـ الرومانية يمثل على غطائها الزوج والزوجة بنحت نافر وتوضع هذه النواويس في مصاف النواويس الأثرورية حيث يظهر الناووس وكأنه سرير تمدد عليه الميت وزوجه.

المصاطب:

المصطبة اسم اطلقه العرب على الأقسام التي ترتفع على سطح الأرض فوق المدافن والتي تأخذ شكلاً شبه منحرف. وتتألف من كومة من الحصى والرمل، فوق بئر أو عدة آبار مدفنية، تدعمها وتجمعها الحجارة.

ظهرت المصطبة أساساً في عهد التينيت وكانت عبارة عن جدران من الطابوق تشكل سوراً حول الحفرة المدفنية. وكانت الجدران وما يعلو الحفرة تشكل حماية للمدفن وتحدد موقعه: ثم أخذت طابع معبد تقام فيه الطقوس المدفنية وظهرت فيها الكوى ـ أولاً واحدة ثم اثنتان ـ التي تقام في الجدران ابتداءً من مستوى الأرض أو من أول مدماك. وظهرت المصطبة المليئة في أواخر عصر السلالة الأولى واصبحت دارجة خلال عصر السلالة الثانية وكثرت فيها الكوى المتنوعة الأشكال والأعماق. وفي أقدم المصاطب كان يوضع في اتجاه شروق الشمس نصبٌ يمثل باباً مغلقاً، يُدعى نصب الباب المزيف، نقشت عليه اسماء وألقاب الميت، وأمام الباب كانت توضع طاولة التقادم التي تحمل المقومات الضرورية التي سيحتاجها المتوفى عند عودة الحياة إلى روحه.

في عهد الأمبراطورية القديمة أقيمت قاعة خاصة بالتقادم داخل المصطبة بالذات، هذه القاعة أو المعبد أخذت تتسع مع الوقت واحتوت نصب الباب المزيف في الجدار المواجه لمدخلها وظلت طاولة التقادم توضع أمامه، كما انشئت فيها الكوى وغطت الجدران الرسوم والكتابات. هذه الرسوم الغنية والمتنوعة تعتبر شواهد هامة عن الحياة اليومية في مصر في عهد الامبراطورية القديمة. أما تمثال الميت فكان يوضع في غرفة في الجهة الجنوبية من المصطبة تدعى «سرداب» يتصل مع قاعة التقادم بواسطة منفذ تتمكن من خلاله روح الميت «Ka»، الساكنة في التمثال، حضور احتفالات التقديم واستنشاق روائح التبخير. تضاعف مع مرور الزمن عدد الغرف التي نصل إليها من المصطبة حتى صار داخلها عبارة عن متاهة من الدهاليز والقاعات المتشعبة.

وعندما اصبح الهرم في أوائل عصر الامبراطورية القديمة نموذج المدفن الملكي ظلت المصاطب مدافن الكبار المميزين ونجدها في ممفيس والجيزة وسقارة تحيط صفوفها بالأهرام مكونة مدناً مدفنية طرقاتها الطويلة تتقاطع في زوايا قائمة. وتجدر الملاحظة إلى أنه في أواخر عهد الامبراطورية القديمة لا نجد سوى مصاطب غير متقنة البناء تدل على سقوط الملكية المركزية: الأشراف تحرروا من سيطرة الملوك فبنوا مدافن في أملاكهم الخاصة. ولكننا نعود ونجد المصاطب في عهد الامبراطورية الوسطى دائماً حول الأهرام الملكية ـ دليل عودة السلطة الملكية المركزية. وفي عهد الامبراطورية الحديثة تختفي المصطبة لتحل محلها المدافن الصرحية.

حاول العلماء تصنيف القبور الموجودة تحت المصاطب من خلال دراسة هيكليتها الداخلية واستطاع G.A.Reisner تحديد خمسة نماذج رئيسية تعود الى عهد السلالات الأربعة الأولى، إضافة الى عدد من النماذج الثانوية، النموذج أو الطراز الأول يشمل قبوراً مغطاة بسقف خشبي ومؤلفة من بئر وسور من الطابوق ومنها قبر مينيس ونارمر ....، الطرازالثاني يشمل قبوراً شبيهة بالطراز الأول ولكنها تحتوي على درج ومنها قبور ملوك السلالة الأولى، الطراز الثالث قبور مقببة بعقود نصل إليها بواسطة درج ومنها قبر خاسخموي من السلالة الثانية، الطراز الرابع يشمل المدافن المحتوية على درج والتي تضم عدة قاعات كما في هرم زاوية العريان وعدد من المدافن الخاصة من عهد السلالتين الثانية والثالثة، أما الطراز الخامس فهو عبارة عن مدفن يحوي قبواً صغيراً مبنياً من الطابوق داخل بئر مفتوح نصله عبر منحدر محفور في الصخر، كما في قبر زوسر وفي أهرام دهشور وميدوم.

الأهرام

الأهرام، كما يصورها هواة علم الآثار الخيالي، أبنية غريبة وغامضة بناتها غرباء عن هذه الأرض، فلا تركب مركبهم، يقولون إن أبعاد هرم خوفو

تختصر كل أبعاد العالم ولا يدركون أن معظم هذه الأبعاد (القياسات) خاطئة، لأن قمة الهرم وغلافه القديم مفقودان مما يشير إلى أن القياسات المعروفة ليست قياسات الأبعاد الأساسية وهذا ما برهنته الدراسات العلمية، ويدّعون أن الهرم الكبير الخالي من الكتابات يعود بتاريخه إلى عشرات آلاف السنوات ويجهلون أن حجراً من حجارته يحمل على أحد وجوهه الداخلية اسم خوفو وهذا مما يؤكد حكاية هيرودوت المؤرخ اليوناني، إضافة إلى أن هذا الفرعون هو أحد فراعنة السلالة الرابعة ومن المسلم به أن بناء هذا الهرم قد تم حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

الهرم طراز من الأبنية المدفنية أطلق عليه المصريون اسم «مير» (mer) واليونان «بيراميد» (Pyramide)، وقد أتى شكله الهرمي نتيجة تطور بناء المصطبة. ونعلم أنه حتى عهد السلالة الثالثة لم تكن المدافن الملكية مميزة عن المدافن الخاصة في أقسام بنائها العليا أي الظاهرة فوق سطح الأرض. ويعتبر امحوتب وزير ومهندس جوسر (زوسر) أول من حول المصطبة إلى هرم مدرج: تقام مصطبة فوق أخرى متدرجة في الصغر نحو الأعلى وتملأ الفراغات أي المدرجات دون نظام؛ فقد بنى هرماً لجوسر في سقارة وكان هذا الهرم عبارة عن ست مصاطب ترتفع أصغر فأصغر فوق بعضها البعض تشكل الهرم المدرج الذي أدى تطوره إلى الهرم الكلاسيكي. فهرم سنفرو في ميدون والهرم المعيني في دهشور يؤشران إلى مراحل تطور بناء الأهرام الذي سيؤدي إلى بناء أهرام الجيزة أو الأهرام الكبيرة.

الغاية المدفنية من هذه الأبنية ـ الأهرام ـ لا شك فيها، وإذا لم يعثر على أمتعة وأثاث في الأهرام الكبيرة فالسبب في ذلك يعود الى الثورة الشعبية الحقيقية التي انتهى بها عهد الامبراطورية القديمة والتي قد تم خلالها تحطيم نواويس وتماثيل الأهرام المدفنية ورميها في الآبار المدفنية، حيث عثر على اجزائها. إضافة إلى ذلك فإن كتابات أهرام السلالات الخامسة والسادسة تؤكد بأنها أبنية للموتى.

ونتيجة للمعتقدات والتقاليد يجب أن تتوفر لجسد الملك ـ الاله أفضل حماية، ومدفن الفرعون يجب أن يتميز عن بيوت الأبدية للموتى الآخرين،

وهكذا أتى بناء الهرم مرتبطاً بالمفاهيم الدينية الجديدة حول المصير الشمسي للملك الذي يجب أن يصعد إلى السماء ليلاقي الاله ـ الشمس «رع»، فالهرم «سلم السماء»، كما ورد في أحد نصوص الأهرام. في حين أن أولى أهرام جوسر وسنفرو لم يهيأ فيها سوى بئر يؤدي إلى الأجنحة المنشأة تحت الأرض، نصل في الأهرام اللاحقة مباشرة إلى الغرفة المدفنية بواسطة سلسلة من القاعات والممرات. ولكن الهرم ذو البئر يعود فراعنة السلالة الثانية عشرة الى استعماله. أما الكتابات التي خلت منها أهرام السلالات الثالثة والرابعة والخامسة فتبدأ بالظهور في هرم «أوناس» (Unas) آخر ملوك السلالة الخامسة وتكثر في أهرام ملوك السلالة السادسة، وقد اعطت هذه الكتابات معلومات قيمة حول مفهوم وتمثيل المصريين القدامى للحياة الأخرى.

اعتباراً من عهد السلالة الخامسة بدأ حجم الأهرام يصغر، وفي عهد ملوك السلالة الثانية عشرة عاد البناء يأخذ أحجاماً عملاقة لكن داخله لم يعد حجرياً بل أصبح من الطابوق ووحده الغلاف الخارجي كان حجرياً. هذه الأهرام الموجودة في منطقة الفيوم سيئة الحفظ. نعرف بعض أهرام السلالة الثالثة عشرة ولكن السلالات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة فقد نهبت مدافنها وليس مؤكداً ارتفاع أهرام فوقها، أما أمراء السلالة السابعة عشرة فقد بنوا لأنفسهم أهراماً صغيرة من الطوب في منطقة طيبة، علماً أن الهرم لم يعد امتيازاً ملكياً فمنذ عهد السلالة الحادية عشرة بدأت تظهر المصاطب التي تعلوها الأهرام. وفي عهد الامبراطورية الحديثة بينما كان الفراعنة يدفنون في مدافن صرحية داخل المدينة المدفنية الطيبية، في وادي الملوك، اكتفى الخاصة بوضع هرم صغير فوق مدخل مدافنهم الصخرية وفي الواجهة كانت تهيأ حنية تضم نصباً يدعى «نصب ـ الكوة» يمثل الميت وهو يتعبد للشمس.

قلد الملوك النوبيون المصريين فبنوا أهراماً شديدة الارتفاع في نباطة (Napata) ومروة (Meroé). كذلك أخذ اليونان والرومان الشكل الهرمي واستخدموه في تغطية أبنية ذات طابع مدفني، عوضاً عن السقف ذي المنحدرين.

بنـاء على وجـوه الشبـه حـاول البعض المقاربـة بين اهـرام مصر و«آهـرام المكسيك» هذا خطأ مبدئي لأن «أهرام المكسيك» كما يسميها بعض الأثـريين ما هي إلا كناية عن أبراج مؤلفة من عدة طبقات، مزودة بأدراج، ويتوجها معبد. وآخر أهـرام المصريين تعـود الى حـوالي سنـة ١٧٠٠ قبـل الميـلاد أمـا «أهرام المكسيك» فتعـود الى أواخـر الألـف الأول قبـل الميـلاد. وولادة الهرم المكسيكي وتطوره بدأت من المعبد الصغير المكون مـن كـوخ متـواضع مـن الطين والقش فوق مرتفع ترابي، ثـم حـوالي سنـة ٦٠٠ قبـل الميـلاد أصبـح المرتفع الترابي يشكل قاعدة مزودة بأدراج ثم اصبح المعبد يبنى من الحجارة فوق قاعدة مكونة من عدة صفـوف مـن المداميك. ثـم اصبـح المعبـد يغطى بالحجارة حتى أخذ شكلاً هرمياً في القرنين الأخيرين من الألـف الأول قبـل الميـلاد. هكـذا نجـد أن الخـلاف قائـم سواء كان بالنسبـة لمفهـوم البنـاء أم بالنسبة لوجهة استعماله أم لتطوره الهنـدسي.

الأضرحة الفخمة ـ الموزوليه:

الموزوليه (Mausolée) بناء مدفني يقام تكريماً لشخص والغايـة منـه ضم رفاته. وقد اطلقت هـذه التسمية على الأضرحـة الفخمـة نسبـة الى مـوزول (Mausole)، الملك الذي حكم كاري، في الجنوب الغربي من آسيا الصغرى، في القرن الرابع قبل الميلاد؛ عند وفاته سنة ٣٥٣ قبل الميلاد أقامت له زوجته أرتميس مدفنا صرحياً فخماً، وتحقيقاً لغايتها أتت بأبـرع الفنـانين والنحـاتين وأشهرهم في اليونـان، ومنهـم: سكوبـاس، بريـاكيس، تيمـوتي وليـوكارس. وحسب وصف بلين (Pline) كانت للبناء قاعدة مستطيلة الشكل بلغ طولها ١٤٢,٥ قدماً وعرضها ٦٣ قدماً (٤٠م × ١٨م تقريباً) وارتفاعه ١٢ متـراً تقريباً (٢٥ ذراع، الذراع قديماً يساوي ٥٠ سنتـم تقـريباً)، يحيـط بـه ٢٥ عموداً، وأقيم فوقه هرم، بلـغ ارتفاعـه ارتفـاع القسم السفلي للبنـاء، مؤلـف من ٢٤ درجة، ووضعت فوق قمة الهرم المسطحة عربة خيل انجزها النحات بيتيس (Pythis)، ارتفاع البناء بمجمله كان ١٤٠ قدماً أي حوالي ٤٠ متراً. وقد كشفت اعمال التنقيب عن ٧٥٠ قطعة مـن المنحوتـات والتماثيـل التي كانت موزعة بين الأعمـدة وعلى الإفريـز.

هناك أمثلة لضريح موزول عند الأخمينيين، كما أن اليونان والرومان من جهتهم أقاموا أضرحة فخمة، أو موزول، أهمها عند اليونان سوما (Soma) أو ضريح الاسكندر الكبير في الاسكندرية، الذي لم يبق منه أثر يذكر. وعائلات الرومان الغنية شيدت لنفسها أضرحة فخمة ولدينا منها نماذج عديدة ويمكن تقسيمها إلى فئتين: الموزول ـ المعابد والموزول البسيطة.

الموزول ـ المعابد تتقدمها الأعمدة وقد تحتوي واجهتها على رواق أمامي تحده الركائز، والغرفة المدفنية هي غرفة العبادة، ويرتفع الموزول فوق مصطبة أو قاعدة عالية ويصعد إليه بواسطة سلم أمامي. نذكر مثلاً عنه موزول هنشير الزعتلي (Henchir ez-Zaâtli) في تونس. أما باقي الموزول فلا يتقدمه رواق أمامي وهو عبارة عن بناء بسيط مربع أو دائري الشكل، هندسة واجهته تختلف من بناء إلى آخر، خاصة الأبنية المربعة فمنها ذات الأعمدة أو ذات الطابقين أو ذات الركائز أو ذات الواجهة المثلثة الجبهة ومنها ذات السقف الهرمي أو المخروطي ... مما يعطي لكل بناء ميزة خاصة به، ونجد من هذه الموزول في آسيا الصغرى وفي فلسطين وفي أفريقيا الشمالية وفي أوروبا ...

التل المدفني: Tumulus

التل المدفني أو تيميلوس عبارة عن كمية من التراب والحجارة التي تجمع فوق القبر وتشكل تليلاً، وقد شمل مفهوم لفظة تيميلوس اللاتينية كل المرتفعات أو التلال الاصطناعية.

فكيف نميز بين مرتفع أو تل طبيعي وآخر مصطنع؟

الدراسة تتم عن قرب، فإذا كان تلاً مدفنياً نعثر على سطحه على كسر فخارية، وعند مستوى الارض الطبيعي نجد حجارة المداميك التي تكون القسم الأعلى من الجدران التي تحتوي القبر المطمور بالتراب، ومن الصعب

العثور على دلائل أخرى سطحية والتنقيب العلمي وحده يؤكد على وجـود المدفن. وعندما نصادف مجموعة من هذه التلال المدفنية فإن وحدة أشكالها واحجامها هي التي تجعلنا نميزها بسهولـة.

النصب المدفني:

النصب المدفني أو حجر الشاهد المدفني بالنسبة لعلـم الآثـار هـو عبـارة عن بناء مدفني يأخذ أشكالاً مختلفة، الغاية منه تحديـد موقـع القبـر. ونجـد النصب المدفنية في العالم القديم وهي في بعض الأحيـان تشبـه المذابح المدفنيـة ولكنها لا تكون مثلها مجوفة إذ أن المذابح المدفنيـة كانت تحتـوي على جـرة مدفنية وكانت تقـدم فوقهـا الأضاحي كما هي الحال في المذابح القرطاجيـة.

والنصب قد يكون حجراً بسيطاً وقد يمثل رأس إنسان وقد يأخذ شكل مسلة كما أنه قد يحمل كتابات أو نقوشاً تمثل مشاهد حياتيـة دينيـة ومدفنيـة تعبر عن الأشخاص كالاسماء والألقاب ... وعن العادات والتقاليد والمعتقدات. واعتماد هذا النوع من النصب أو الشاهد المدفني لا يـزال قـائماً حتى يومنـا هذا وفي معظم انحاء العـالم.

المدينة المدفنية أو النيكروبـول

كانت المدينة المدفنيـة (Nécropole) تقع خارج المدن، قـريباً مـن أبوابهـا أو على طول الطرقات المؤدية إليهـا، نجدهـا غـربي المدن في مصر، في طيبـة حيث وادي الملوك والملكـات الغني بالمعابـد المدفنيـة. كـذلك الأمـر بالنسبـة لليونان والأثروريين والرومان. في ميسان وفي أور سلمت المدن المدفنيـة التي لم ترتفع فوق مدافنها أبنية صرحية تشير إلى وجودها فأتحفتنا مدافـن الملـوك والأغنياء بما ضمته من محتويات قيّمـة.

الفصل الخامس

أين نحن من آثارنا؟

إنه عنوان الفصل. أين نحن من آثارنا؟ سؤال نطرحه على كل مواطن عربي دونما تمييز بين مواطن وآخر وأينما تواجد هذا المواطن، أمياً كان أم مثقفاً، مزارعاً، عاملاً، جندياً أم مسؤولاً حكومياً ... وللإجابة عليه لا بد من الإجابة على اسئلة توضح مفهومنا لها، وهي: كيف نراها ونحددها؟ كيف نستكشفها ونكشفها وندرسها نظرياً وعملياً؟

كيف نراها ونحددها؟

آثارنا جذورنا المتشعبة والممتدة داخل أرض الوطن العربي هي الناطق عن حضاراتنا، هي حاضنة تراثنا، تنادينا حية من على أرضنا، تحرك فينا العقل والشعور بالمسؤولية تجاه تاريخنا القديم والحديث، تدفعنا للحفاظ عليها وبعث الدفين منها وكشف أسرارها وخباياها. آثارنا هي روح ولسان إنسان وشعب وممالك ودول وعالم تطور وتجدد واستمر لنكون ونحيا ونتابع تطوره ونعمل على استمراريته في مختلف المجالات الحيوية فكرية كانت أم مادية. والمادة، حاملة الأفكار والمعبرة والشاهدة على تنفيذها. حاضرة أمامنا في ما خلفه لنا أجدادنا من أعمال سخر الانسان لها عقله وكل ما وصلت إليه يده ليبني لنا مستقبلاً أفضل وعالماً أجمل، فصاغ من الحجر والشجر والطين والمعدن ... ما نعجز نحن اليوم عنه رغم الوسائل والتقنيات الحديثة المتوفرة لدينا، واستغل العناصر الطبيعية والبشرية ليؤمن حياته واستمراريته

في الآخر. اخترع الرسم والكتابة والحرف ... أوجد الآلهة ووضع الشرائع والقوانين وفلسف الأفكار لينظم مجتمعه، وترك لنا كل ما توصل إليه من اكتشافات وأفكار ومعتقدات واعمال نراها حاضرة في الشواهد الأثرية كيفما توجهنا وحيثما بحثنا، وبحثنا عنها يغنينا ويجدد فينا حب المعرفة والاستزادة وسبر الخفايا وايضاح المجهول.

وآثارنا كنوز وطنية المتجارة بها وتهريبها خيانة وطنية، إنها شاهد لا يدحض تغييبه ونقله خارج أرض الوطن يقطع تواصل التاريخ ويشوهه. آثارنا نهبت ودمرت مرات عديدة فلنحافظ على المكشوف منها والمغمور إلى أن تتاح فرص كشفه ودراسته بطرق وأساليب علمية تنمي معرفتنا وتصل ما انقطع فنغنى علماً ووعياً لا مالاً. آثارنا سجل حي صفحاته المعالم الأثرية ومحتوياتها. فهل يجوز أن يخفى شيء منها؟ إنها وحدة تتكامل في الاجزاء مهما كانت في نظر البعض الذي لا يدرك أهميتها، حفنة تراب، حجر، كسرة فخار، تمثال، تاج عمود، منحوتة، نصب، قطعة نسيج، مسكوكة، حبة خرز، زجاجية، مدفن، بيت، معبد، سور، قصر، طريق، مغارة، صخر، قوس، مدماك، حرف، مخطوط، ختم، شفرة، إبرة، فأس ... أنظر حولك وتأمل ودقق، قد تكون في حقلك قرب بيتك أو تحت أساساته، داخل مدينتك أو قربها، قد تكون في السهول والأودية والمنحدرات وفي التلال وعند رؤوس الجبال في المغاور والينابيع والبحيرات وعند شواطىء البحار ...

كيف نكتشفها وندرسها؟

إن اكتشاف الآثار سهل وصعب في آن معاً، سهل عندما نعثر عليها صدفة أو عندما يكون قسم من معالمها ظاهراً على سطح الأرض، وصعب عندما ندرك وجودها ولا نعلم موقعها، وفي كلتا الحالتين عملية اكتشافها والتنقيب عنها ودراستها تتطلب جهوداً وأساليب علمية ووقتاً طويلاً. فحياة

هنـري شليمـان الألماني (Heinrich Schliemann) وعمله طوال فتـرة شبابـه من سنـة ١٨٢٩ حتى سنـة ١٨٧١ للعثـور على مدينـة طـروادة واكتشافهـا تعتبر فريدة من نوعها في العالم. وتعتبـر مثـالاً يحتـذى في السعي نحو المعرفـة والعلم. فقد قرأ، وعمره لا يتجاوز الثمانية أعوام، قصة مصورة عن طروادة ووجد أنه «إذا كانت هنـاك جـدران بهـذه الضخامـة، مـن غيـر الممكـن أن تكون قد اختفت»، وظل يعمل ويجد ليجمع المال الذي يمكنه مـن البحث عنها وكشفها. وأثمر جهده فاكتشف سنة ١٨٧٠ م حيصارليك (Hissarlik) وسنة ١٨٧١ م. عاد وتابع التنقيب واستمـر حتى وافتـه المنيـة سنـة ١٨٩٠ م. وتتـالت بعـده أعمـال التنقيب في مواقـع قريبـة ويعتقـد بعض العلمـاء أن حيصارليك هي طروادة هوميـروس بينمـا يعتقـد البعض الآخـر أنهـا إيليـون (Ilion) أو كارايور (Karayour) اللتان اكتشفتا لاحقاً. ومهما كانت النتيجة ومهما اختلفت الآراء لقد كان هنري شليمن أول من سعى لكشفها معتمداً ما ورد في المؤلفات القديمة لتحديد موقعها في الشمال الغربي من الأناضول.

أكنا هواة آثار أم عاملين محترفين دافعنا حب المعرفة وغايتنا البناء لا الهدم يجدر بنا اعتماد المبادىء الأساسيـة العامـة للبحث والتنقيب. عمـوماً الحرفي هو الذي يمارس مهنة ويعيش منها أما الهاوي فهـو النـاشط في عمـل بدافـع اللذة الغير المادية. وإذا أخذنا بحرفيـة هذيـن المفهـومين يمكننـا القـول بأن لا علماء آثار مهنيين في عالمنا، ذلك أن الأخصائيين لا يعتبرون علماء آثار إنمـا أساتذة ومحافظين على المتاحف وملحقين في مراكـز الأبحاث العلميـة، ونجـد بين الهواة أحيـاناً محتـرفين حقيقيين لا يعملـون إلا في الآثـار، وفعلياً الهواة يمتهنون عملاً يرتزقون منه وفي الوقت نفسه يتفانون في البحث عـن الآثـار ومثالهم في ذلك هنري شليمن وغيـره.

أما اليـوم فهنـاك فـرق مـن البحاثـة والمنقبين الذيـن باستطاعتهـم تـدريب وارشاد من يجـدون عنـد أنفسهـم شعـوراً بحب اكتشاف الآثـار ودراستهـا إضافة الى الجامعات والمعاهد المختصة وتمكنهم هـذه مـن ممـارسة هوايتهـم بعد الحصول على إذن من السلطات المختصة، وبالتالي تحمل المسؤولية الكاملة الملقاة على عاتقهم.

طبيباً كنت أم مهندساً أم محامياً أم مزارعاً أم عاملاً في أي مجال من المجالات وليس بامكانك التحصيل العلمي في الجامعات والحصول على صفة تسمح لك التنقيب عن الآثار وكشفها، فعندك امكانية الالتحاق بفريق مختص يطلب منقبين متطوعين يصبحون فيما بعد منقبين أثريين هواة. وهل أجمل من أن تقضي عطلتك مع فريق مختص في موقع للتنقيب؟ لا تتفاجأ لأنك ستصادف هنالك الطالب الجامعي إلى جانب العامل والمحاسب والمهندس والطبيب والعسكري والمزارع وحتى تاجر المصنوعات القديمة. وهل تعلم أن أي اكتشاف يسجل باسم مكتشفه مما يحفظ له حقه أدبياً، ومبدئياً يحق للمكتشِف إذا كان المُكتشَف في أملاكه الخاصة الاحتفاظ به شرط أن لا يهمله أو يسبب في تلفه أو يبيعه دون إشعار السلطات المختصة بذلك. أما نشر معلومات عن المكتشفات فلا يحق إلا لمن لديه العلم والمعرفة الوافية في هذا المجال.

قد يرى البعض أن الحرية في التنقيب عن الآثار يجب أن تعطى لكل إنسان مبررين ذلك بقولهم: ليست لدى السلطات المسؤولة والمختصة امكانية القيام بالتنقيب لأسباب عديدة، ولكنهم يجهلون أو يتغاضون عن ذكر الأضرار التي تلحقها اعمال التنقيب العشوائية خاصة تلك التي لا هدف لها سوى سرقة ونهب الثروات الوطنية الحضارية والمتجارة بها. وتلافياً لما جرى قديماً ويجري حالياً مع الأسف، في العديد من المواقع الأثرية في العالم العربي وغيره، فقد وضعت الدول قوانين مبدئية عامة، أهمها: لا يحق لأحد التنقيب دون الحصول على إذن رسمي مسبق حتى ولو كان ذلك في ملكه الخاص. لكن التجاوزات المباشرة وغير المباشرة عديدة ونتائجها تقع على المسؤولين الذين باهمالهم وعدم صرامتهم في كثير من الأحيان يحملون العلماء على الوقوف عاجزين عن تفسير بعض المظاهر العمرانية وغيرها نتيجة للثغرات التي خلفتها غوغائية تنقيبات «لصوص الظل» الغير العلمية من جهة وللتطورات العمرانية المدنية الغير الواعية من جهة أخرى، كشق طريق أو بناء مدرسة أو مقر ديني أو سدٍ. وصرخات علماء الآثار تذهب مع الريح لأسباب مبرراتها غير مقنعة في كثير من الأحيان.

شرطـان رئيسان يجب أن يتوفـرا قبـل البـدء في أعمـال التنقيب وفي أي موقع كان: الإذن الرسمي أو الترخيص والخبـرة العلميـة. بعـد ذلك يمكننـا المباشرة بالعمل معتمدين أفضل الوسائل والتقنيات الحديثة ومتبعين الأساليب الملائمة بعد أن نكـون قـد درسنـا كل الاحتمـالات التي تساهـم في انجـاح عملنا.

فمن أين نبدأ وكيـف؟

أ ـ **الأستكشاف السطحي**: ليس اكتشاف الآثار مسألة حظ ولا لعبـة ساحر بارع، إنه عمل جاد، دقيق ومشوّق في آن. قد تصادفك وأنت تعمل أو تتنزه في حقلك أو حديقة منزلك كسرة فخـار أو قطعـة نقـود أو خـرزة ... أخرجتهـا إلى سطـح الأرض فئران الحقـل أو سكـة المحراث ... فانظـر حولك وادرس الموقع جيداً وتأمل ما يحيط بـه مـن تـلال وجبـال ومجـاري وأوديـة وابحث في المنحـدرات عـن مـا حملتـه العوامـل الطبيعيـة مـن أمطـار وسيول... وعن ما صنعته يد الانسان أو شيدته أو هدمتـه ... فقـد يكـون عند رأس الجبل معبـد أو حصن كما قـد يكـون في التـل مدفـن وفي الـوادي سد ... ولاحظ الحجارة أهي مـن الأرض عينهـا أم أنهـا منقولـة إليهـا مـن مكان آخر؟ أهي منحوتة أم لا؟ أتحمل نقشاً أم كتابة ...؟ ... وأن تصادف لقى أثريـة فليس بالأمـر العجيب أو الفريـد، كثيـرة هي المواقـع الأثريـة التي كشفها فلاح يحرث أرضه أو راع يرعى قطيعه أو بنـاء يحفـر أساس منـزل، فمدينتي هيركيلانوم وبومباي اللتان طمرتهما حمم بركان فيزوف (Vésuve) سنة ٧٩ م. كشفت آثـارهما على أيـدي الفـلاحين في أرضهـم. ولكـن هـل نقف مكتوفي الأيدي ننتظـر الصدف لتكشف لنـا الآثـار؟! طبعاً لا.

إن البحث عن الآثار واستكشافها يتطلب اتباع نهـج نظـري علمي يبـدأ بدراسة الخرائط الجغرافيـة الدقيقـة والمفصلـة، والـدراسة تتنـاول اسماء المدن والمواقع والطرقات والجبال والأوديـة والمياه ... فهنـاك اسماء مـدن تبـدأ أو تنتهي بمقطـع لفظي معين أو بكلمـة معينـة مثلاً: كفـر، عين، أيـل، بت، ات... فماذا يعني هذا المقطع أو اللفظ؟ ولنأخذ على سبيل المثال اسم مدينـة بعلبك أو اسم مدينة طرابلس، بعلبك: بعل بك أو إلـه البقـاع وبعلبك أيضاً

كانت تدعى هيليو بوليس أي مدينة الشمس، وطرابلس أو تريبوليس أي المدن الثلاثة. كذلك الأمر بالنسبة لباقي المعالم الجغرافية الطبيعية هل تساءلنا لماذا اطلق عليها اسمها الذي نعرفها به وهل كانت لها اسماء أخرى عرفت بها قديماً؟ أما الطرقات فلو دققنا في مسالكها لوجدنا أنها تتبع تخطيط الطرقات القديمة أو تجاورها، وهي التي ترشدنا وتقودنا في كثير من الأحيان إلى مواقع أثرية كنا نجهل وجودها.

من السهل علينا ملاحظة بعض العناصر البنائية من حجارة وأعمدة وغيرها والتي أخذها الناس في الماضي من المواقع الأثرية واستخدموها في بناء بيوتهم ومقاماتهم الدينية ومنشآتهم المدنية، بعض هذه العناصر استعمل دون أي تغيير فيه سواء كان يحمل كتابة أم زخرفة أو يشكل جزءاً من تمثال تحطم أو غير ذلك ...

هذه الملاحظات والخطوات الأولى النظرية تتبعها خطوات عملية تتطلب استكشاف الموقع عن كثب. فعلى المستكشف الأثري أن يتسلح ببوصلة وآلة تصوير وكيس وقلم ودفتر وخريطة وكمية من الأوراق. يسجل على الدفتر ملاحظاته وطبيعة الأشياء الموجودة أو التي سينقلها كشواهد ويرسم تصميماً أولياً للموقع، وعلى الخريطة يحدد أماكن الموجودات الأثرية كلها ثم يصور الموقع صوراً شاملة وجزئية ويغلف كل شاهد أثري سينقله بورقة يدون عليها مكان وتاريخ اكتشافه، وإذا لم يكن أخصائياً عليه عرضها على من هو أكثر خبرة منه في هذا المجال ليصار فيما بعد إلى أخذ الاجراءات اللازمة والضرورية سواءً كان بالنسبة لنشر خبر الاكتشاف أو لمتابعة البحث والتنقيب.

ب ـ الاستكشاف الباطني: اصبح استكشاف المواقع الأثرية دون تخريبها أمراً سهلاً بفضل التقنيات الحديثة التي تساهم في معرفة ما تكتنزه الأرض قبل البدء بأعمال الحفر، كما تساهم في تحديد الطرق الواجب استخدامها لكشف الآثار دون تعريضها للتلف، ومنها: المئفاق (Périscope) المزود بمصباح يضيء الداخل. ولكنه لا يصلح إلا للأماكن الغير المليئة

بالأتربة وغيرها كالغرف المدفنية وما شابهها، وتتم عملية الاستكشاف هذه بحفر ثقب في الأرض (كما في الآبار الأرتوازية) يدخل فيه المئفاق الذي نستطيع بواسطته تصوير الموجودات. وهناك ايضاً الاستكشاف بواسطة الطرق الفيزيائية كغرس قطبان كهربائيان في موقع محدد ومحصور وارسال التيار الكهربائي في أحدهما، فالمياه الموجودة في الأرض تنقل الكهرباء الى القطب الآخر، فإذا اعترض التيار حجر كثافته النوعية تختلف عن كثافة الأرض يتقطع التيار الذي تسجل حركة تواصله مسجلة كهربائية خاصة وبالتالي ندرك وجود جدران ونتمكن من تخطيطها قبل كشفها. أما آلة مقياس المغناطيس التفاضلي (magnétomètre différentiel) المتطورة فتمكننا من مقارنة القوة المغناطيسية بين الأرض ومحتوياتها كما تحدد نقاط تواجد الآثار وعلى أي عمق تقريباً.

ج ـ **الاستكشاف الجوي**: لو اتيحت لك فرصة التحليق في الجو فعلى بعض الارتفاع سترى سطح الأرض لوحة تختفي تحت خطوطها معالم كثيرة، فالنباتات الضعيفة تنمو فوق الجدران أما الغضة الناشطة فتنمو فوق المدافن وإذا كنت تستكشف موقعاً أثرياً فانطلق عند شروق الشمس أو عند غروبها مزوداً بآلة تصوير، فالتصوير في هذه الساعات هو الأفضل لأن الظلال ترسم الخطوط وتوضحها، ثم عد إلى الأرض والصورة بيدك وحدد المعالم بدقة. فالتصوير الجوي لا يستخدم فقط للاستشكاف إنما أيضاً يساعد في الحصول على تصاميم دقيقة، وإذا لم يكن بالامكان الحصول على طائرة فعلية فطائرة الورق أو البالونات الهوائية تفي بالغرض، أما عن كيفية التصوير بواسطتها فتتم بتثبيت آلة التصوير الأوتوماتيكية جيداً تحت الطائرة أو البالون بعد ضبطها ثم تقذف بأقصى سرعة ممكنة. ابتسم إنها لعبة أطفال ولكنها لعبة ناجحة وقد اعتمدت في تصوير العديد من المواقع الأثرية لاستكشافها وللحصول على مخطوطات وتصاميم سريعة للموقع.

د ـ **أعمال السبر**: بعد أن نكون قد أنجزنا عملية استكشاف الموقع المنوي التنقيب فيه يجدر بنا أن نتساءل من أين نبدأ؟ ففي كثير من الأحيان تكون أرض الموقع مستوية ولا يبرز فيها طرف لبناء أو لجدار فنلجأ إلى السبر، وهنا تلعب الصدفة دورها.

نختار مكاناً من حقل التنقيب ونحفر فيه مسبراً، خندقاً أو مربعاً، طول ضلعه متر أو متران، ونعتبر هذا المسبر نقطة انطلاق أو مركزاً لتقسيم حقل التنقيب إلى مربعات متساوية تغطي مساحته، وحفر المسبر أو المربع المركزي يستوجب الانتباه الشديد والتأني في رفع الأتربة طبقة طبقة حتى الوصول إلى شاهد أثري قد يكون كسرة فخار أو جزءاً من هيكل بناء أو أي غرض أثري آخر يؤكد لنا فعلاً أننا نعمل على موقع أثري، وقد لا نعثر على شيء في أول مسبر حفرناه عندها إما أن ننتقل إلى مكان آخر من حقل التنقيب ونحفر مربع سبر جديد أو نطوّل خندق السبر. وحالما نعثر على أثر نباشر تقسيم الحقل إلى مربعات ونبدأ الحفر تدريجياً تاركين ممرات تسهل العبور ونقل الأتربة التي تجمع خارج الحقل كوماً كوماً.

هـ ـ **أدوات التنقيب**: كما أن للمستكشفين أدواتهم فللمنقبين أيضاً أدواتهم، إنها أدوات بسيطة ومتوفرة أهمها: معول خفيف لنزع النباتات السطحية، رفش لرفع الأتربة السطحية، معول صغير ومسحاة ومرّ ومالج ومقشط وسكاكين صغيرة وفراشي مختلفة القياسات والصلابة وفرشاة أسنان ومخرز لكشف الموجودات ونزع الأتربة العالقة بها، عربة صغيرة بدولاب واحد أو سلال لنقل الأتربة من الحفرة إلى الخارج، مناخل ومسارد لنخل التراب، منشار لقطع الجذور العميقة، وكلاّب وسلال لرفع اللقى ونقلها إلى المخازن الخاصة أو المختبرات. وطريقة العمل بهذه الأدوات تتطلب الدقة والعناية والصبر والحذر لأن سوء الاستعمال وعدم مراعاة الروية يعرض اللقى للتلف والفقدان.

و ـ **حقل التنقيب وفريق العمل**: إن عالم الآثار أو المشرف على أعمال التنقيب يجب أن يكون إلى جانب علمه مصوراً، رساماً، عالم خزف، مهندساً، حفاراً وناقلاً ماهراً للتراب، جغرافياً، فيزيائياً، كيميائياً، مرمماً ... صبوراً، شجاعاً، أميناً ومدركاً لمسؤولياته.

أما فريق العمل العامل في حقل التنقيب فيتألف من شخصين أو أكثر حسب ما تتطلبه حاجة الموقع. عموماً يتألف الفريق الأساسي المسؤول عن الموقع مباشرة من عالم الآثار ومساعديه العلميين المزودين بكل الوسائل

الضرورية لسير العمل ويضم مدير الحقل، مساعدين كلهم اخصائيين في علم الآثار، مهندساً، رساماً، مصوراً، عالم كتابات قديمة، عالم خزف ... ولكل موقع طبيعته الخاصة واحتياجاته من الاخصائيين الذين قد نستغني عنهم في مكان ونحتاجهم في مكان آخر. إضافة إلى فريق العمل هذا هناك العمال والمراقبين الذين يختلف عددهم حسب الحاجة والذين تتنوع مهاراتهم ومستوياتهم العلمية. فعدد العاملين في حقل التنقيب يحدده الموقع ويفرضه فهناك مواقع بإمكان شخصين فقط تنقيبها وهناك مواقع تحتاج إلى مئات العمال.

ز ـ **التنقيب**: إنه تتويج لأعمال البحث والاستكشاف والعمل الرئيسي الذي على أساسه تحيا الآثار، وهو يختلف من موقع أثري إلى آخر، فعملية سير التنقيب والأساليب والوسائل المعتمدة في تل مدفني تختلف عنها في مدينة مدفنية أو مسكنية أو معبد أو مسرح. وقد يقسم الموقع إلى عدة حقول تنقيب إذا كانت مساحته واسعة، كما في المدن الأثرية، وقد نضطر إلى فتح مسابر عديدة، كما أننا قد نضطر إلى تأجيل العمل لظروف مناخية وغيرها. وكيفما رأينا الأسلوب الذي يجب اتباعه فهناك مبادىء أساسية علينا مراعاتها وهي:

١ ـ تحدد منطقة حقل التنقيب بواسطة الأوتاد والحبال.

٢ ـ تقسم المنطقة المحددة بواسطة الحبال إلى مربعات متساوية ضلعها متر إذا كانت مساحة الموقع ضيقة وخمسة أمتار إذا كانت المساحة واسعة، على أن تترك ممرات بين المربعات ولا يتجاوز عرض الممر متراً بينها (يصبح ضلع المربع الداخلي ٤ أمتار).

٣ ـ ترقم المربعات على طول المحاور الأفقية الرئيسة المتعامدة بالأرقام والحروف، مع مراعاة تسلسلها، ويعطى لكل مربع رقم وحرف يعرفان به.

٤ ـ تدرس سويات الأتربة وطبقاتها بواسطة السبر حول الموقع وداخله لمعرفة درجة اختلاف السويات وأسبابها التي قد تكون نتيجة لعوامل طبيعية أو بشرية.

٥ ـ يتم التنقيب وفقاً للطبقات الستراتيغرافية أو السويات.

٦ ـ كل شاهد نعثر عليه يأخذ إضافة الى رقمه الخاص رقم المربع الذي وجد فيه فيسهل تحديد موقعه على الخريطة المفصلة لمربعات حقل التنقيب.

٧ ـ تفحص الأتربة قبل نقلها من المربعات وتنخل لئلا يخرج معها أي أثر صغير الحجم (مسكوكة، خرز، إبر، كسر ...).

٨ ـ تصور اللقى مهما كان نوعها حال ظهورها وفي موقعها الأساسي بالأبيض والأسود وبالألوان بعد أن يوضع إلى جانبها مقياس معروف الأبعاد والألوان لتيضح لونها وشكلها وحجمها الحقيقي على الصورة. وترسم على الخريطة المفصلة للمربعات وسوياتها وعلى سجل اليوميات.

٩ ـ تؤخذ عينات من تربة كل سوية وتفحص كيميائياً في المختبرات لمعرفة التغييرات التي طرأت عليها.

١٠ ـ كل لقية توضع داخل مغلف يكتب عليه نوعها وفي أي مربع عثر عليها وفي أي سوية وعلى أي عمق. كما تخصص لها بطاقة هوية مفصلة لنوعها وصفاتها وأبعادها ومربعها ... إضافة إلى تاريخ العثور عليها واسم المنقب الذي اكتشفها، وتعطى رقماً ترتيبياً متسلسلاً.

١١ ـ لكل حقل تنقيب سجل يومي ودفتر عمل صفحاته تتناوب فيها صفحات الكتابة والرسم الهندسي الميلليمتري وتدون عليها الأحداث والمعطيات وترسم تفاصيل المربعات والسويات.

١٢ ـ تؤخذ الحيطة والحذر، ويعمل بصبر وتأنٍ، وتدون أدق تفاصيل مجريات العمل والمستجدات، وتصور مختلف الأعمال، وتترك بعض المقاطع الترابية في مكانها لئلا تضيع معالم بعض السويات أو تُنتسى أمور قد تساعدنا في اعطاء النتائج العلمية الأكيدة.

أن تستكشف موقعاً أو أن تعمل في حقل للتنقيب الأثري أمر هام فعلاً، ولكن الأهم منه هو أن تدرس المكتشفات الأثرية بعد أن تكون أعمال التنقيب وما تبعها من أعمال صيانة وترميم وإعادة بناء ورسم مخططات

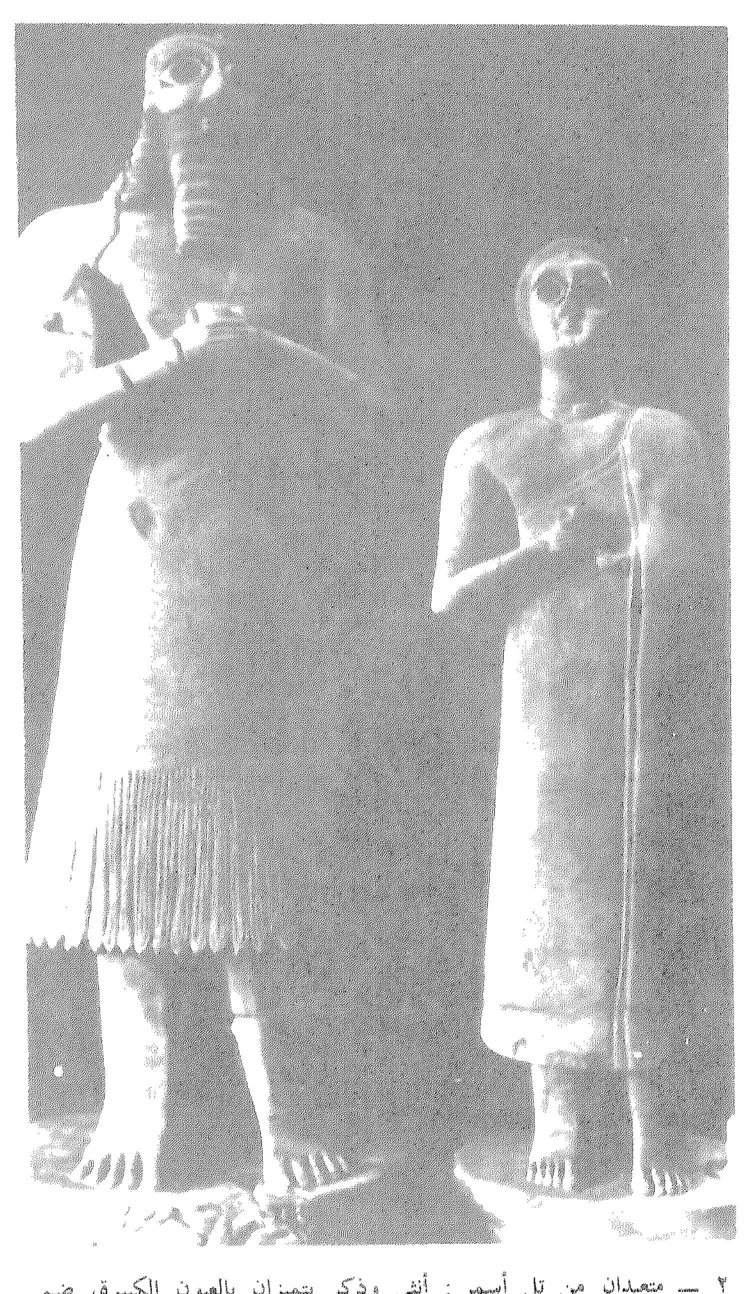
واحصاءات وفك رموز وتفسير كتابات وتحاليل مخبرية وتأريخ ونشر معلومات ... قد انجزت ومعلوم أن لكل من هذه الأعمال متفرعاتها وأخصائيوها الذين لا مجال لتعدادهم وذكر أعمالهم هنا. فالدراسة هي خلاصة الأعمال ونتيجة الخبرات والجهود الطويلة التي ذكرنا، نقرأها منشورة في المجلات العلمية المختصة أو في المؤلفات الأثرية وغيرها، وقد تقتصر على مجموعة من الكسر الفخارية أو على تمثال أو على مسكوكة وقد تتناول بناء محدداً أو مدينة أو حقبة زمنية أو حضارة أو اختراعاً أو فناً أو طرازاً ... ونشاهد مواضيعها ماثلة أمامنا في المواقع الأثرية وفي المتاحف وعند هواة جمع الآثار وحتى عند تجار الأشياء القديمة وإلى جانبها بطاقة صغيرة تحدد هويتها.

أخيراً، وبعد هذا العرض الموجز للآثار مضموناً ومفهوماً، يجدر بنا التنبيه إلى التزوير المنتشر في مختلف أنحاء العالم، الذي لا يتناول فقط تزوير اللقى الأثرية إنما تزوير الحقائق التاريخية، فأعمال التخريب التي يقوم بها «لصوص الظل» تساهم بشكل مباشر وعن وعي أو غير وعي في المؤامرة التي يحوكها اعداء الوطن العربي حول أرضنا وتاريخنا وشعبنا.

صيانة آثارنا ومواقعنا الأثرية والمحافظة عليها من العابثين بتراثنا وحضارتنا أمران كل مواطن منا عنهما مسؤول. آثارنا إرثنا التاريخي والحضاري فلنصنه ونحميه.



١ ـــ منحوتة تمثل جندياً مسلحاً بحربة، يرتدي مئزراً يلتف حول وسطه،
ـــ تأثير مصري ـــ من فلسطين، تعود بتاريخها الى الألف الثالث قبل الميلاد.



٢ ـــ متعبدان من تل أسمر : أنثى وذكر يتميزان بالعيون الكبيرة، ضم الأيدي دليل الاحترام، يلاحظ اعتماد الشكل الاسطواني للمرأة والمخروطي للرجل.



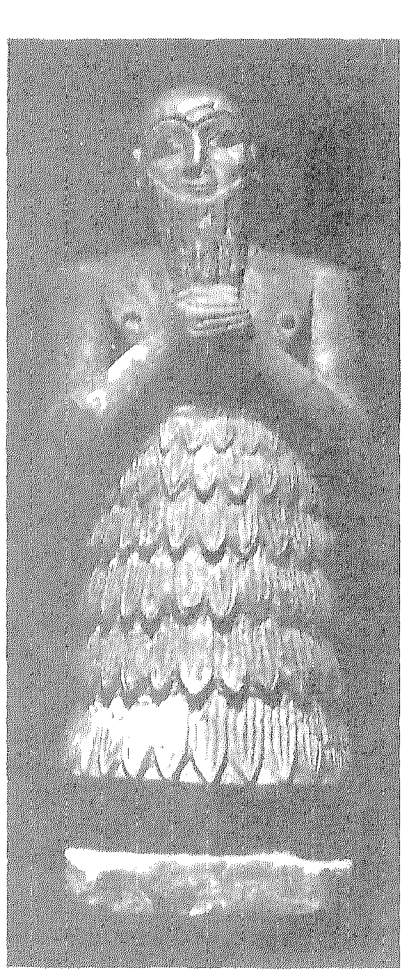
٣ ــ نصف نارام سين الأكدي، يمثل انتصار الملك على « اللولوبي » حيث تتبع المشاهد خطوطاً مائلة، المنتصرون يرفعون رماحهم ورايتهم أما المهزومون فرؤوسهم مطأطأة.



٤ ـــ تمثال اله العاصفة، يعود بتاريخه الى الألف الأول قبل الميلاد، من سمعال (Sam'al) ـــ سوريا.



٥ ـــ تمثال الملك أتور ـــ شمكان، من ماري.



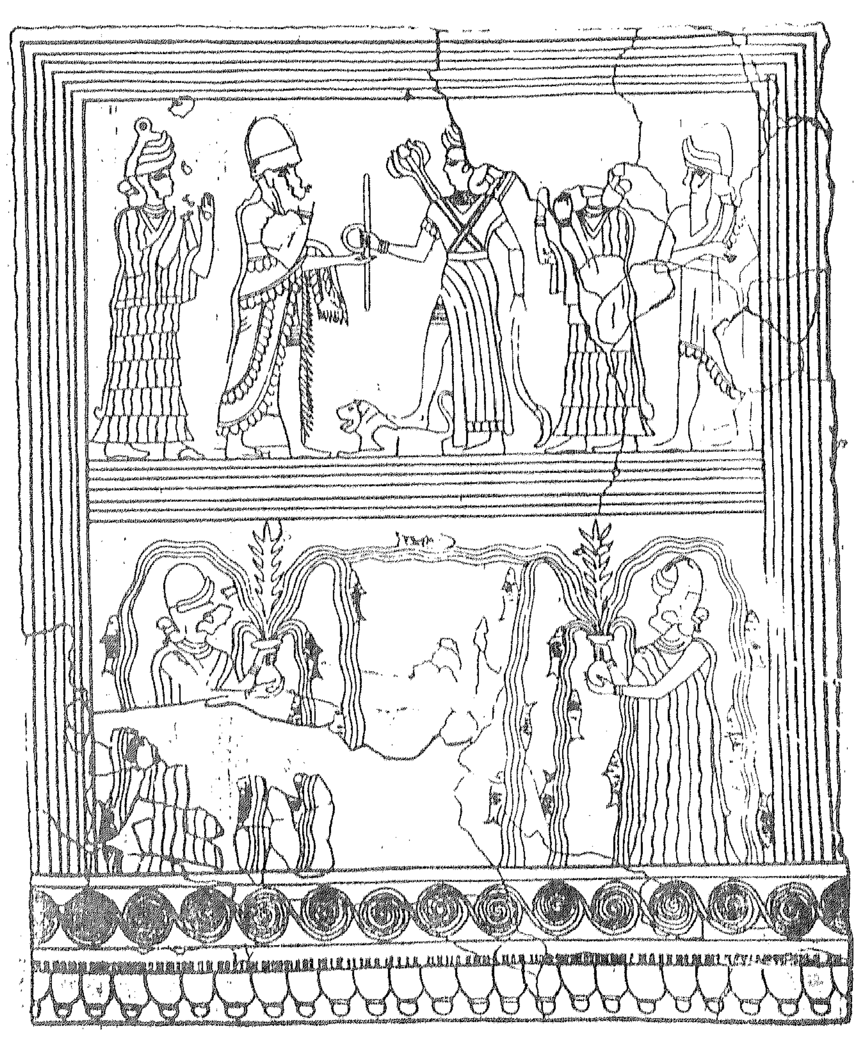
٦ ـــ تمثال الملك لمجي ـــ ماري، يبدو كتفه الأيمن عارياً، من ماري.



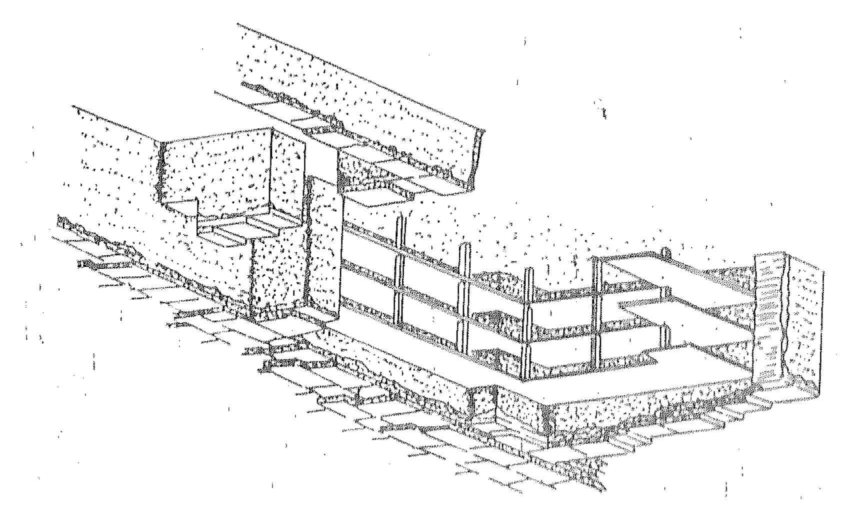
٧ ــ رأس محارب كنعاني يعود بتاريخه الى حوالي ١٩٠٠ ق.م.



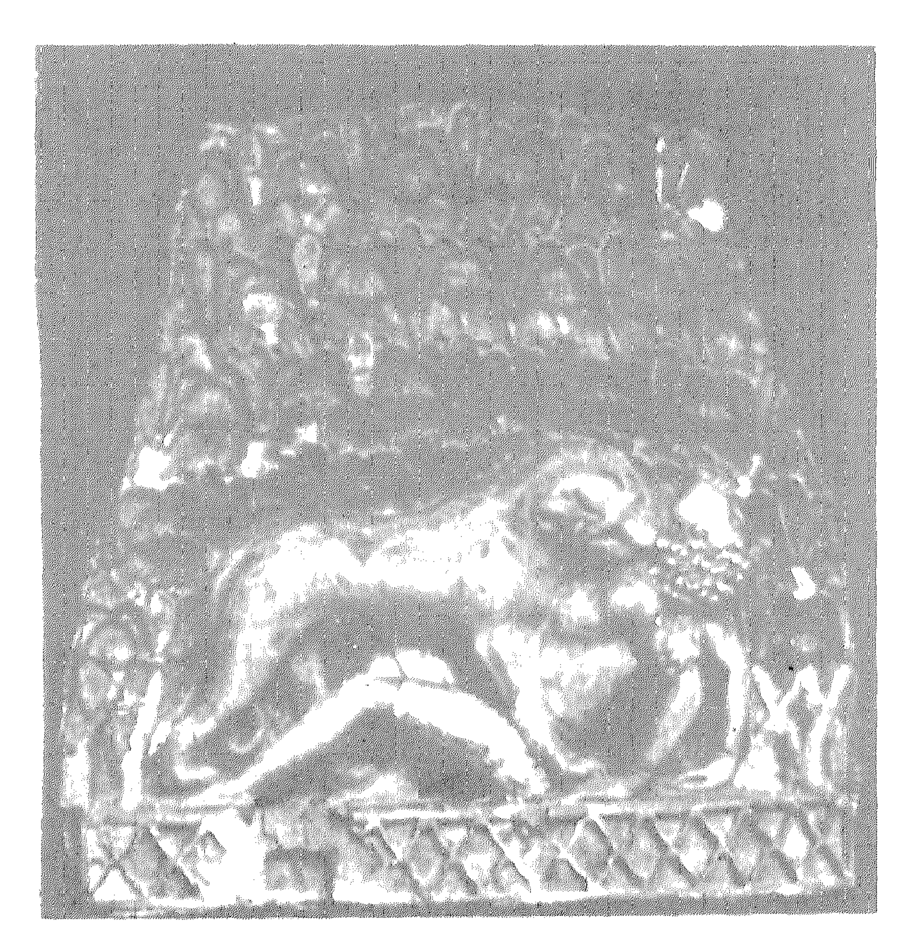
٨ — رأس نارام سين من البرونز، أنف طويل وحاجبان مقوسان وشفتان عريضتان ولحية مضفورة وشعر مضفور ومجموع، عمل فني رائع — من نينوى.



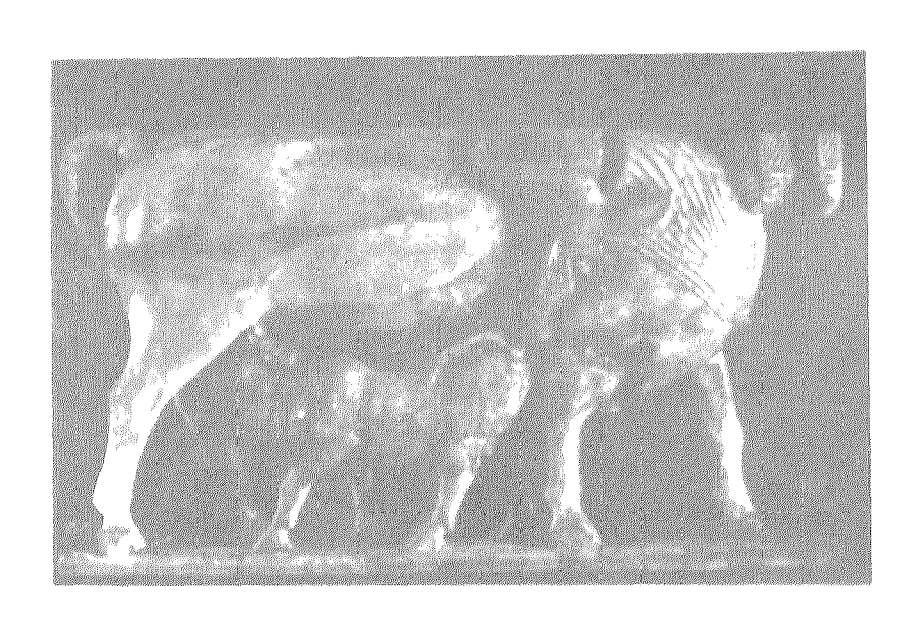
٩ ـــ رسم لإحدى جدرانيات قصر ماري، يمثل مراسم تنصيب الملك زمري ليم.



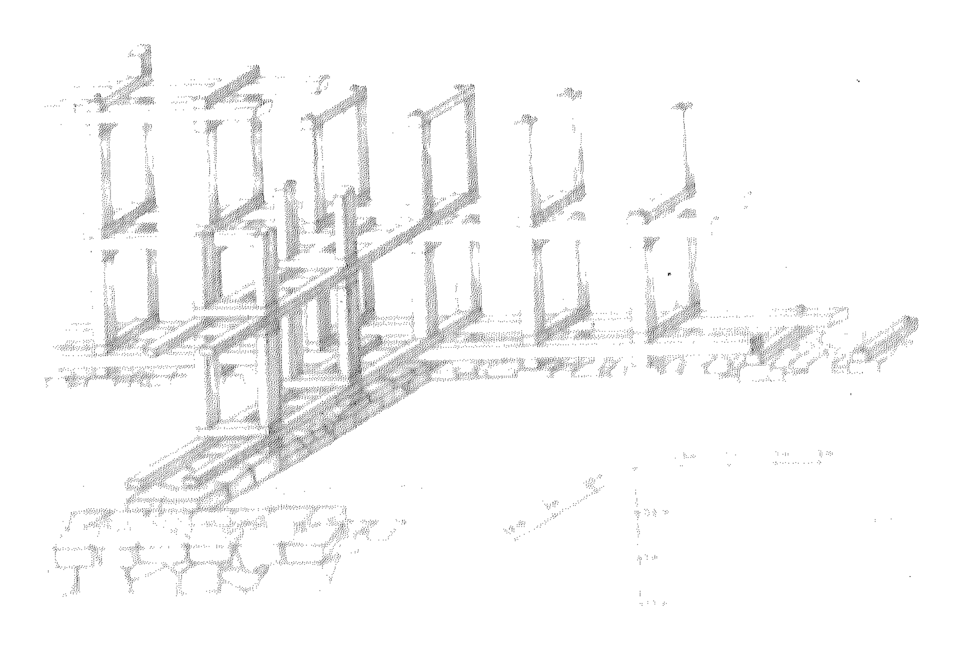
١٠ ــ رسم بياني لقسم من مكتبة ماري.



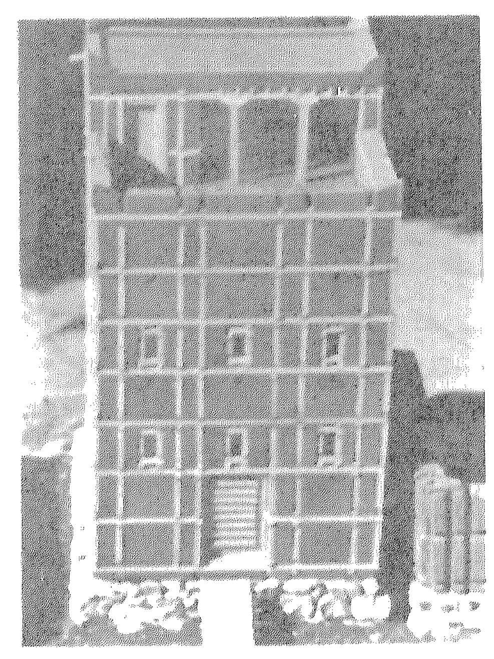
١١ ـــ عاجية سورية ـــ فلسطينية، تثمل أسداً يفترس رجلاً أسود وسط مجموعة من البردى ـــ تأثير مدرسة الجنوب.



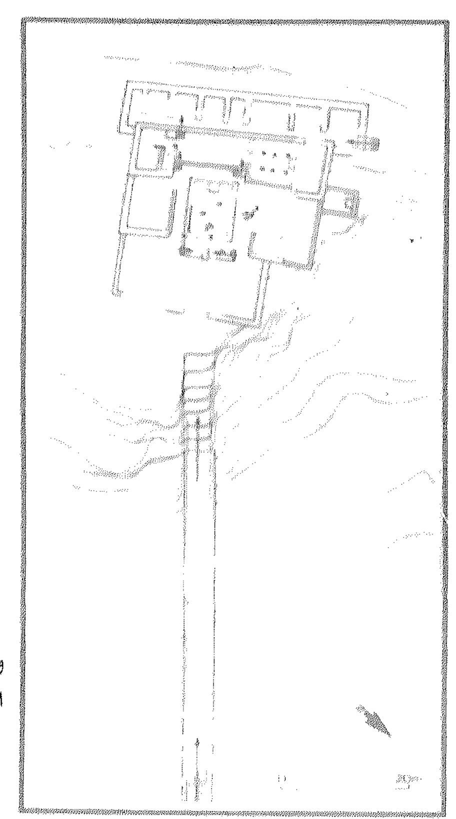
١٢ ـــ عاجية سورية ـــ فلسطينية من مشاغل حماة تمثل بقرة تلحس عجلها ـــ من الألف الأول قبل الميلاد ـــ تأثير المدرسة الفينيقية.



١٣ ـــ رسم بياني لهيكل بيت يمني، من مشفا.



١٤ ـــ بيت يمني مؤلف من عدة طبقات هيكله العام والحامل من الخشب أما الجدران فمن الطوب المجفف ـــ مشفا.



١٥ ــ مخطط معبد الحجرة (Hajra) وهو واحد من سبعة معابد تتبع التصميم نفسه ــ اليمن.



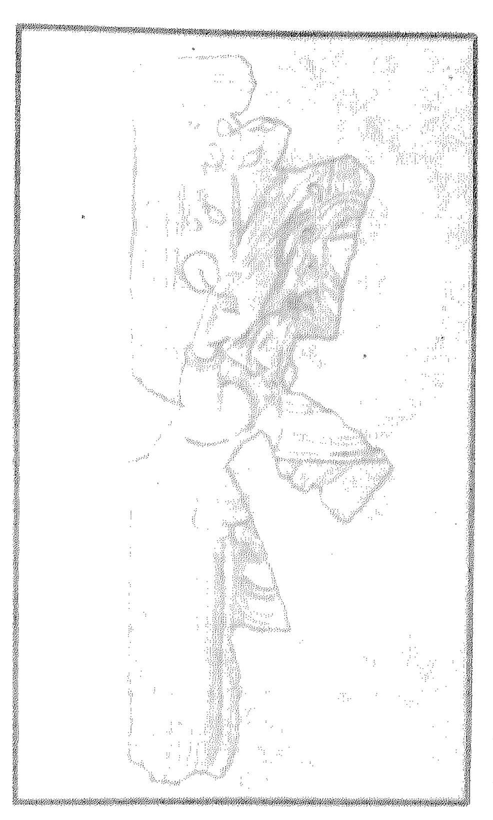
١٦ ــ سقف بناء من الجسور الحجرية، من معين ــ اليمن.



١٧ ــ حجر من سور الأساهيل في وادي رجوان (اليمن) يحمل نقش كتابة سبئية.



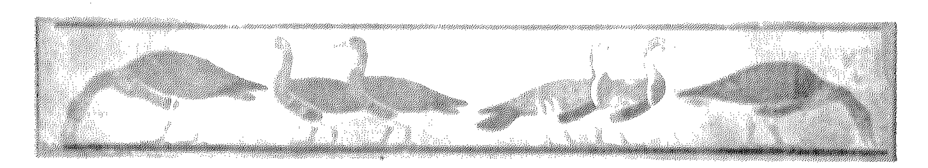
١٨ ـ أ ـ قسم من جدرانية من شبوة ـ اليمن.



ب ـ رسم للجدرانية (أ)، يبدو أنه لامرأة ترتدي منديلاً. وتتحلى بالأساور.



١٩ — ترس من الخشب المذهب نقش عليه مشهد الملك يذبح أسداً ويمسكه بذيله، عثر عليه في مدفن توت عنخ آمون.

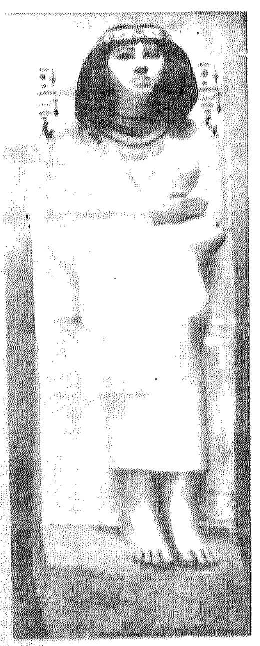


٢٠ ــ رسم من مدفن يمثل إوز ميدوم، من عهد السلالة الرابعة ــ مصر.

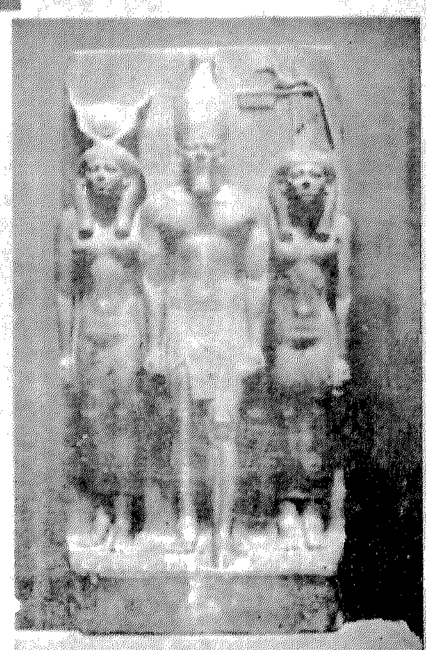


٢١ ــ تمثال الكاتب المتربع، من عهد السلالة الرابعة ــ مصر.

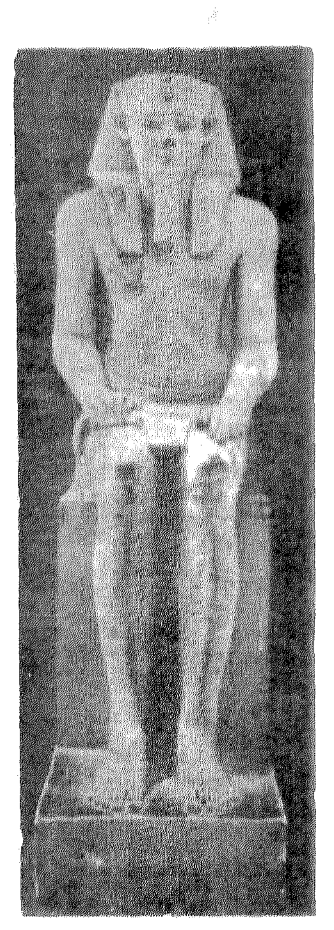




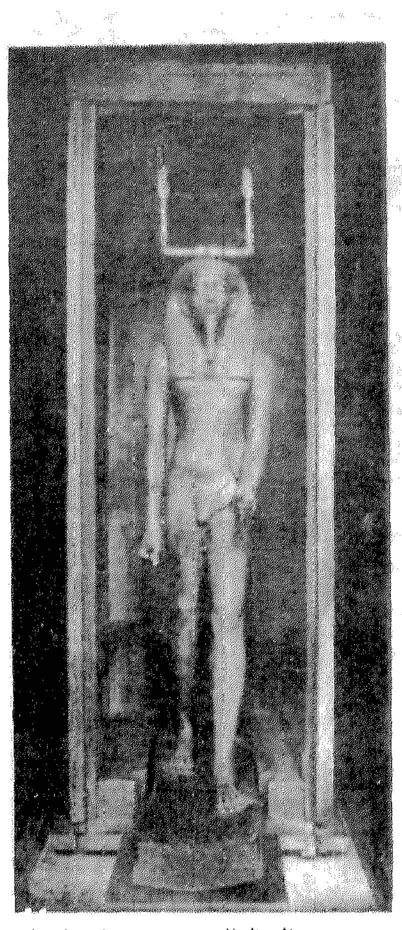
٢٢ ـ تمثالا رعحوتب كبير كهنة هيليوبوليس وزوجته نوفرت. طليت بشرتهما بالألوان : الرجل باللون الأحمر (البني) والمرأة باللون الأصفر، من السلالة الرابعة ـ ميدوم ـ مصر.



٢٣ ـ نصب الملك ميكيرنيوس بين حاطور وليكوبوليس (يجسد أسيوط) عثر عليه قرب الهرم ـ مصر.



٢٤ ـــ أحد تماثيل سنوسرت الأول العشرة، من الحجر الكلسي، من السلالة الثانية عشرة ـــ مصر.



٢٥ ـــ تمثال الملك حور من السلالة الثانية عشرة وتابوته، يبدو متوجاً بشعار « كا »، أو الروح، الممثلة بذراعين مرفوعتين.



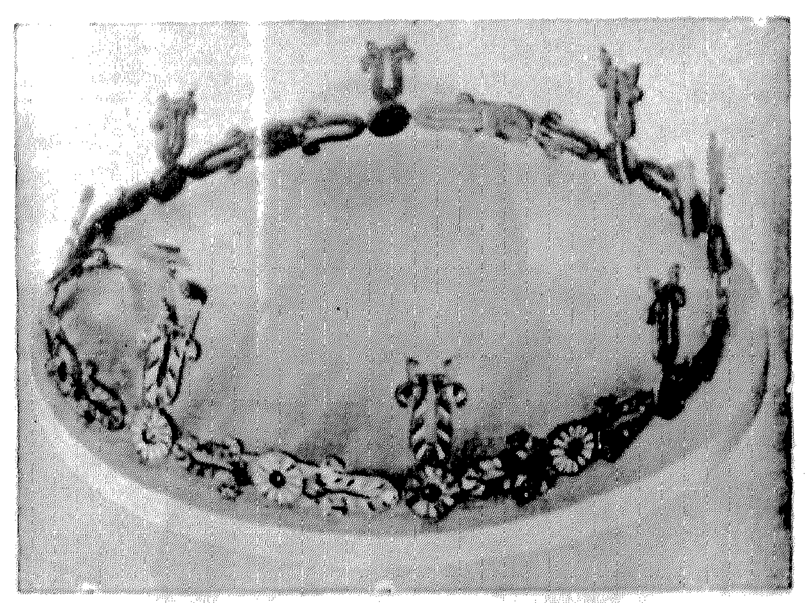
٢٦ ـــ تمثال من المرمر الأبيض لتحوتمس الثالث راكعاً يحمل بين كفيه إناءين للنبيذ والماء، من السلالة الثامنة عشرة ـــ دير المدينة ـــ مصر.



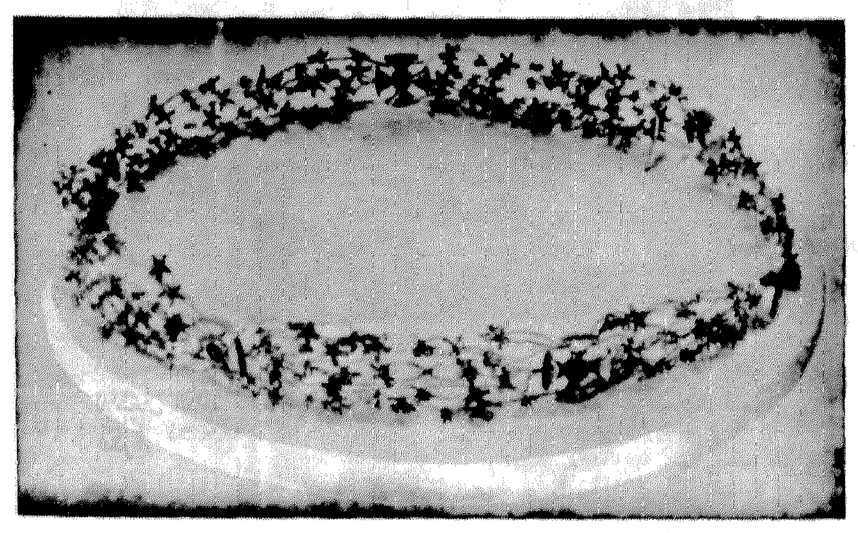
٢٧ ـــ رأس الآلهة « موت »



٢٨ ـــ تمثال من الغرانيت الأسود لمنحوتب ابن حبو الذي كان مديراً للأشغال العامة أيام أمينوفيس الثالث ثم أصبح ملكاً من ملوك السلالة الثامنة عشرة.



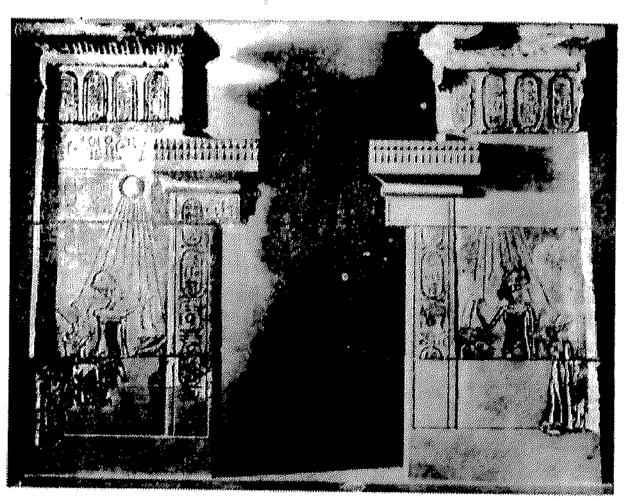
٢٩ ــ أ ــ تاج للأميرة خنوميت من الذهب، مؤلف من زهور وأشكال تشبه القيثارة، من الخلف (اليسار) شكل ريشة طائر.



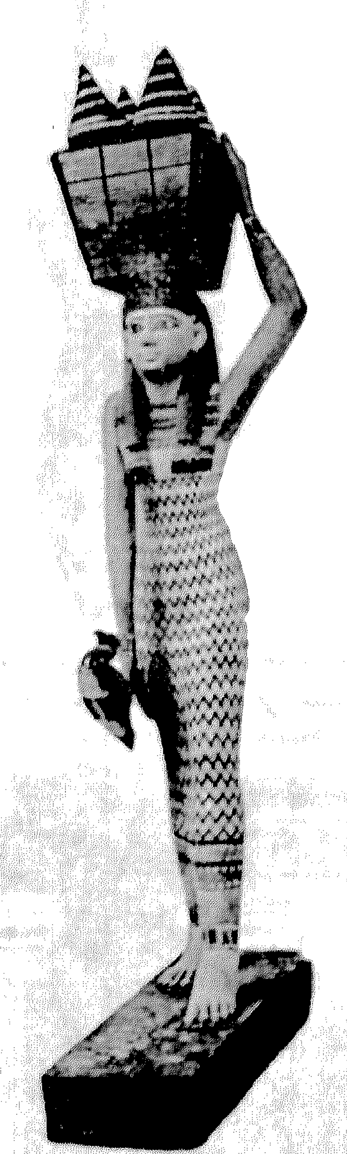
ب ــ تاج للأميرة خنوميت مؤلف من شرائط ذهبية تتوزع عليها النجوم المنزلة ويجمع بينها أربع زهور على شكل صليب مالطة.



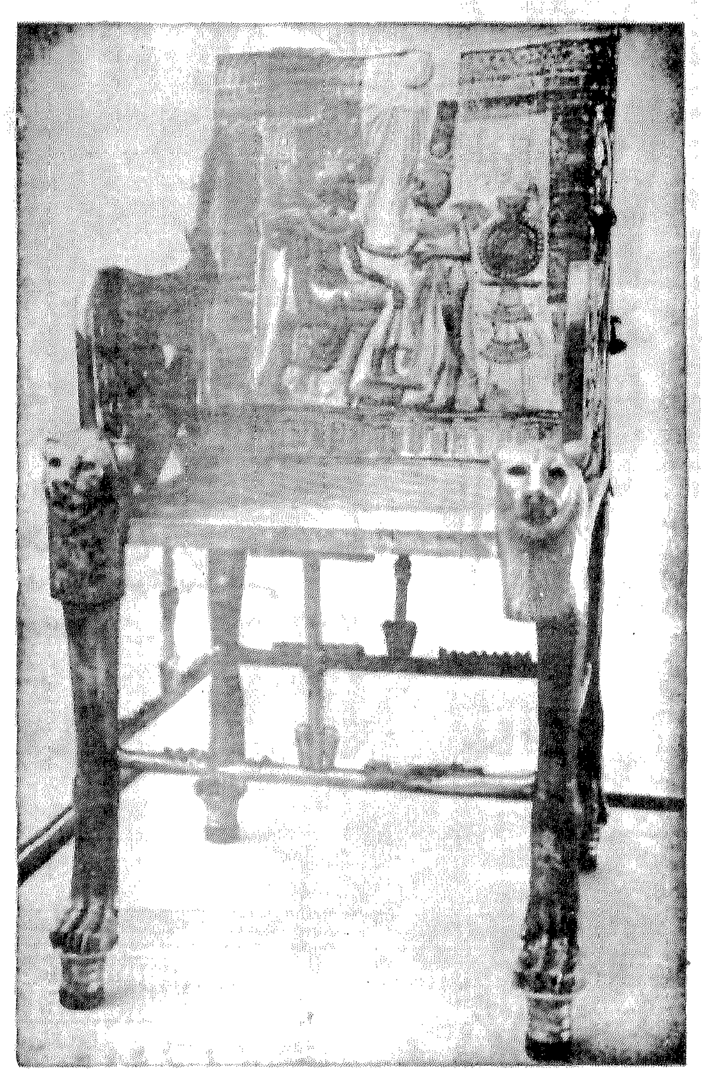
٣٠ ــ تمثال أمينوفيس الرابع (أخناتون) وهو واحد من عدة تماثيل عثر عليها محطمة نتيجة للثورة التي قام بها في عهده.



٣١ ــ الجزء الأعلى من مذبح يظهر فيه أخناتون وعائلته يتعبدون للشمس.



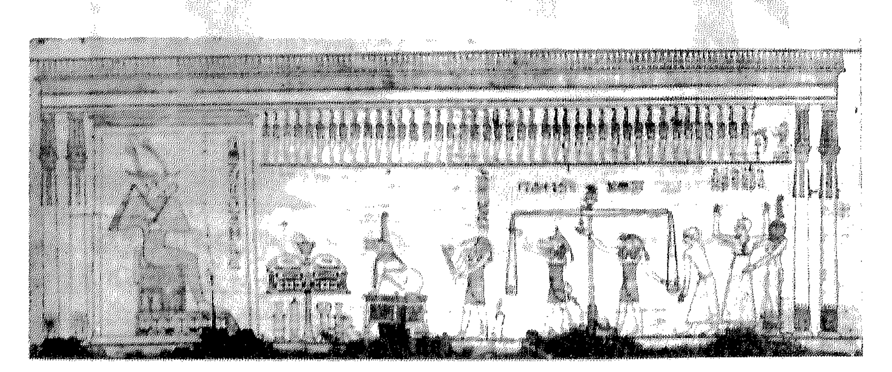
٣٢ ـ تمثال خادمة تحمل سلة على رأسها وإوزة بيدها.



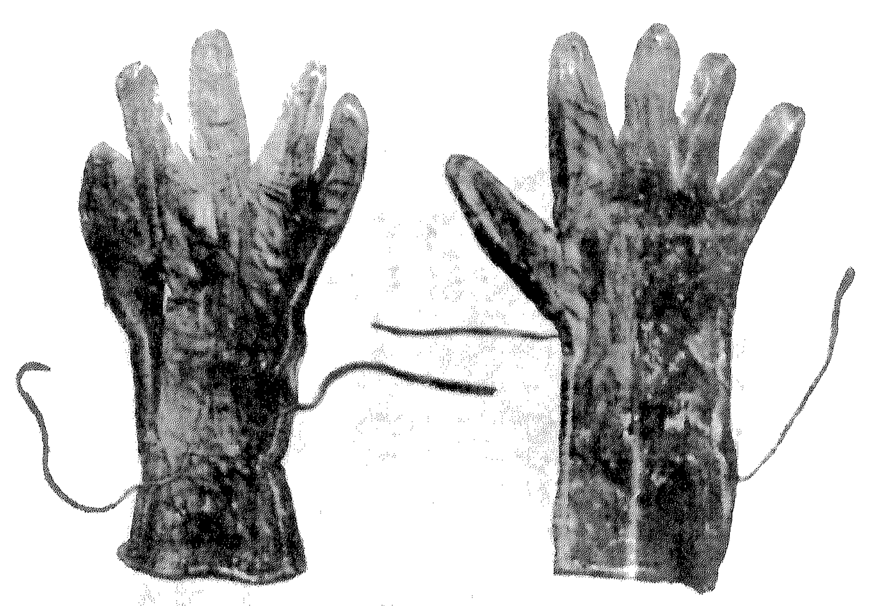
٣٣ ــ كرسي العرش من الخشب المطلي بالذهب والمطعم بالحجارة الكريمة والزجاج والفضة.



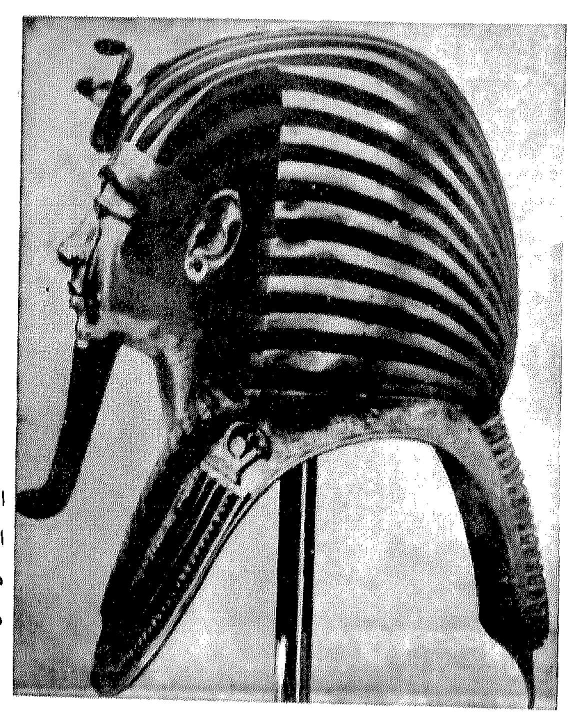
٣٤ ــ تمثال توت عنخ آمون، تلاحظ ثيابه وحركته، يحمل نبوتة بيده اليمنى وقصبة باليسرى.



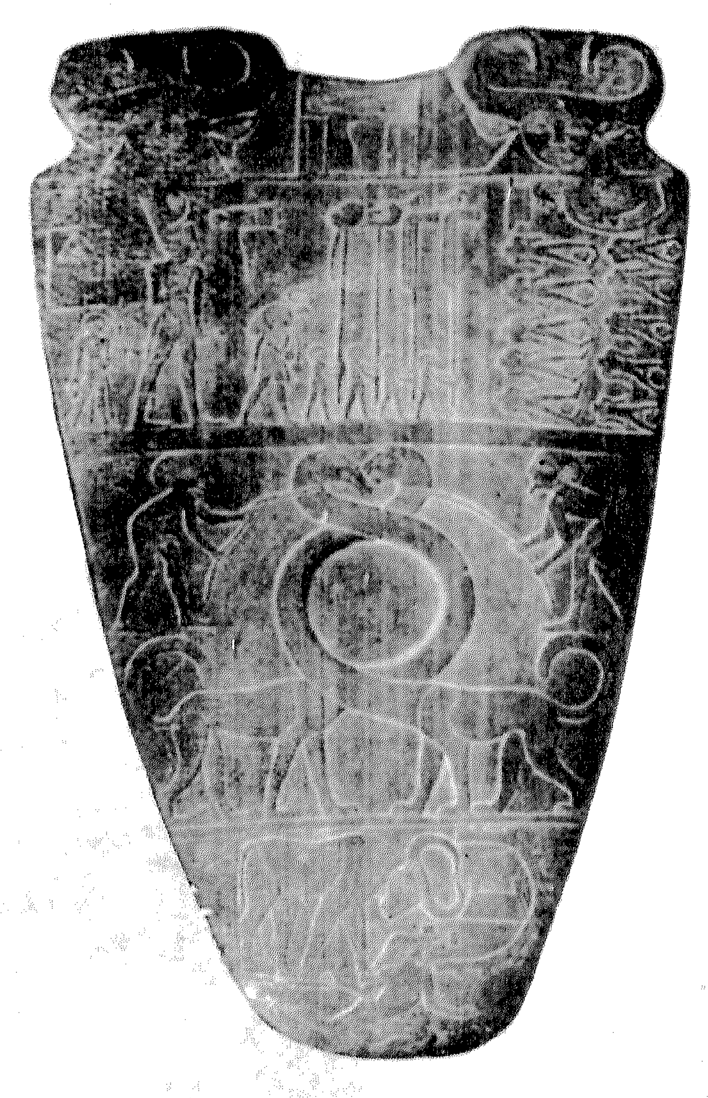
٣٥ ــ مشهد الدينونة على قطعة من ورق البردى، من كتاب الأموات، ساعة وزن قلب جوسر ومحاكمته بعد موته ويبدو الإله أوزيريس الى اليسار ينتظر النتيجة.



٣٦ ـــ قفازات توت عنخ آمون، عثر عليها في مدفنه.



٣٧ ـــ قناع توت عنخ آمون من الذهب الخالص المنزل بالزجاج، العيون والحواجب من اللازورد، اللحية من الذهب والزجاج الأزرق والعقد منزل بالحجار الكريمة والزجاج.

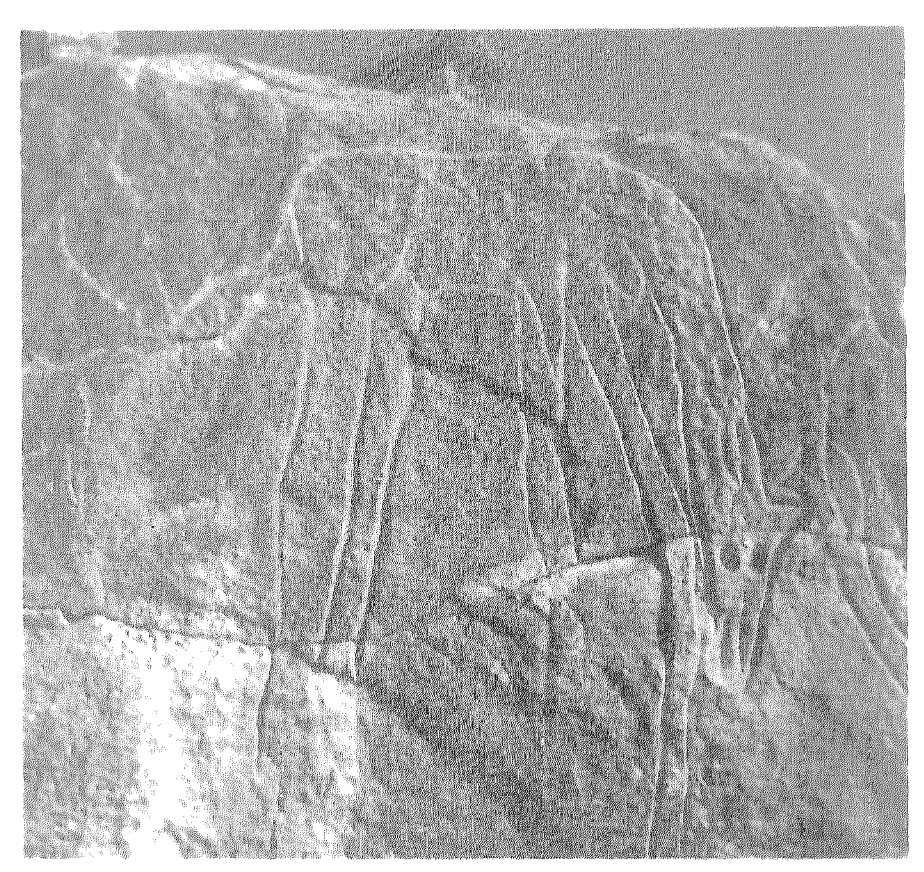


٣٨ ـــ لوحة نارمر وهو يضرب العدو بنبوتة.

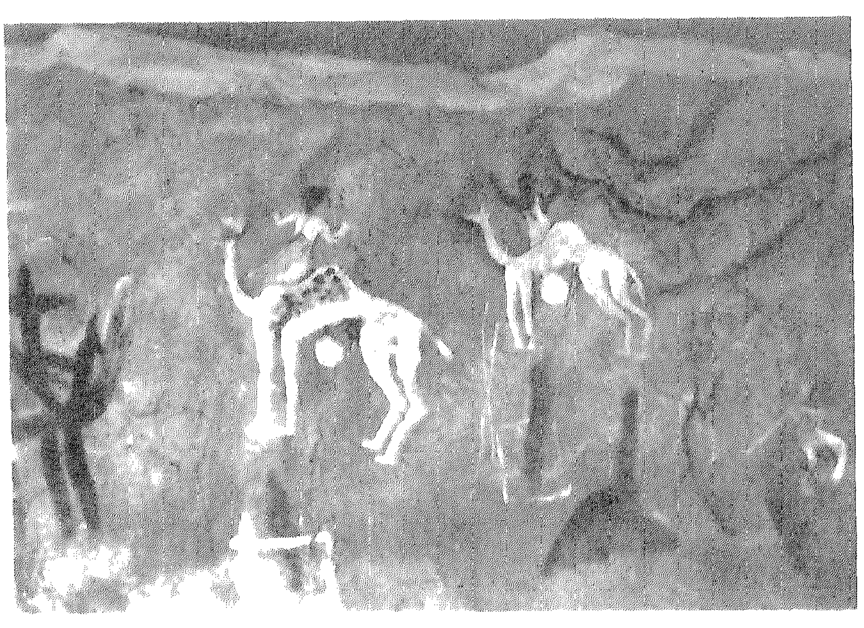


٣٩ ــ أ ــ ب ــ رسوم صخرية ملونة من عصور ما قبل التاريخ ــ ليبيا.

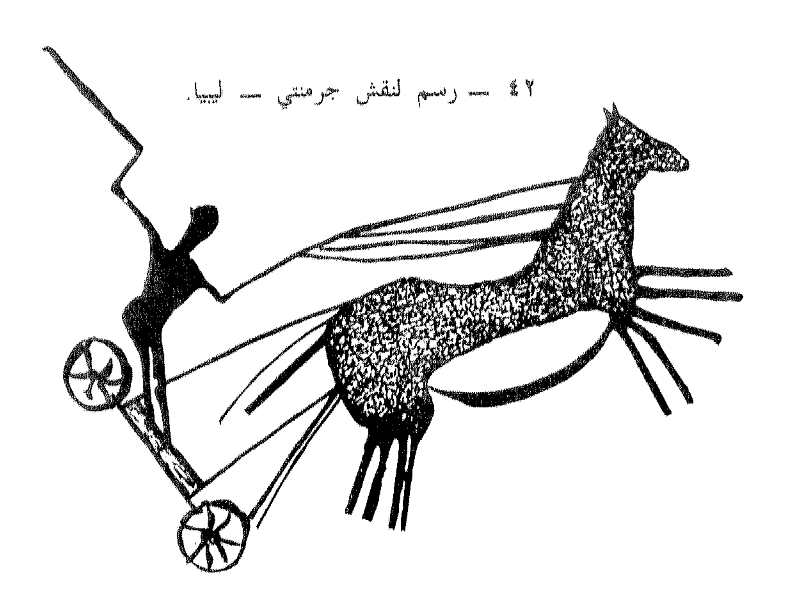




٤٠ ــ نقش صخري من عصور ما قبل التاريخ ــ ليبيا.



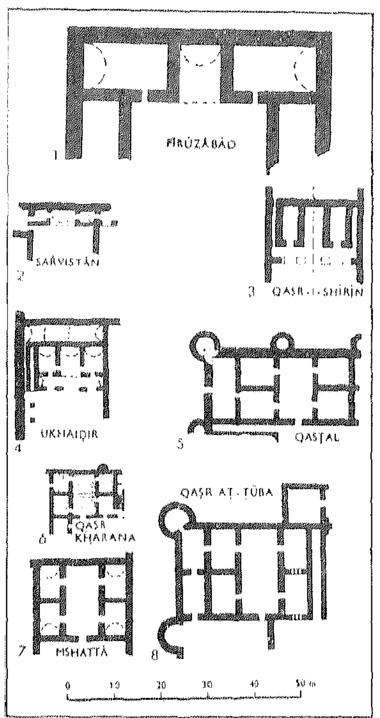
٤١ ـــ نقوش صخرية ملونة من فنون ما قبل التاريخ ـــ ليبيا.



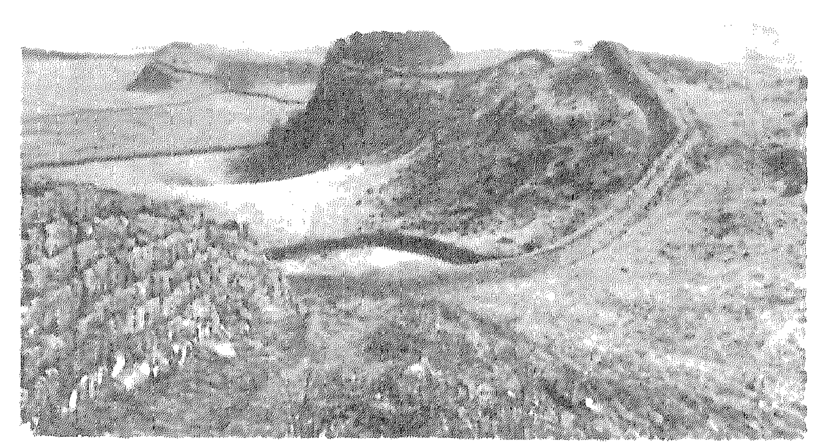
٤٢ ــ رسم لنقش جرمنتي ــ ليبيا.



٤٣ ـــ سوق لبده الكبرى ـــ ليبيا.



٤٤ ــ تصاميم البيوت القديمة: ١، ٢، ٣ ــ إيران؛ ٤ ــ العراق؛ ٥، ٦، ٧، ٨ سوريا.



٤٥ ــ جدار الحدود في شمالي انكلترا، يعرف بجدار أدريان.



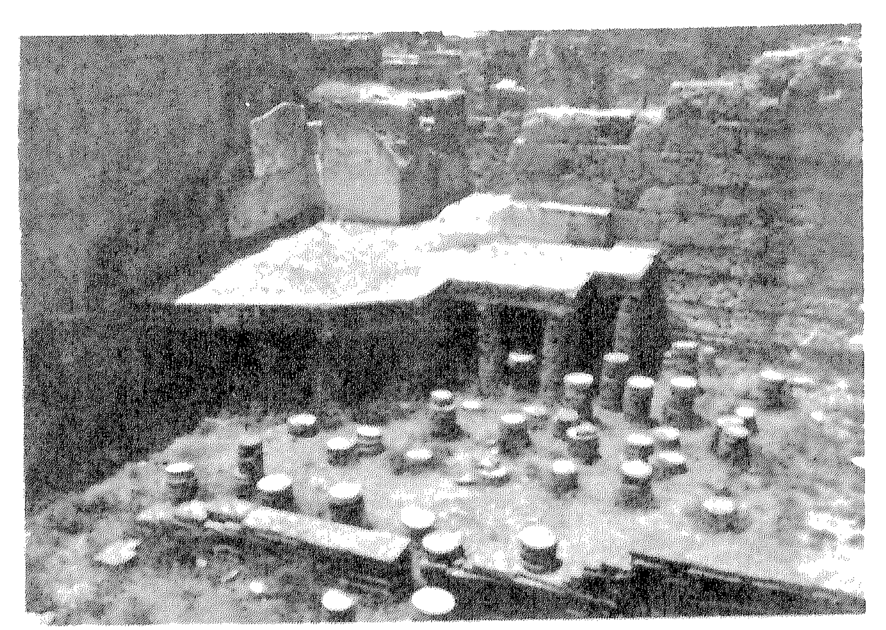
٤٦ ــ شارع مرصوف بالحجارة في لبدة الكبرى ــ ليبيا.



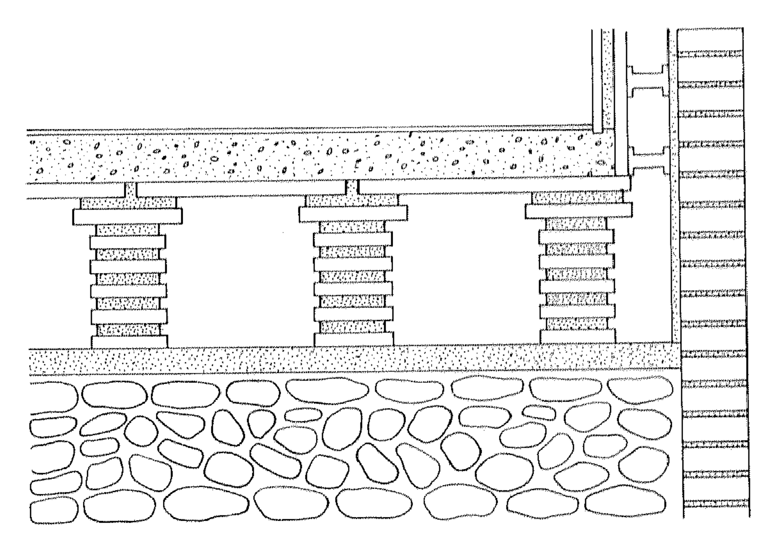
٤٧ ــ طريق مقدسة مرصوف بالحجارة من العصور اليونانية.



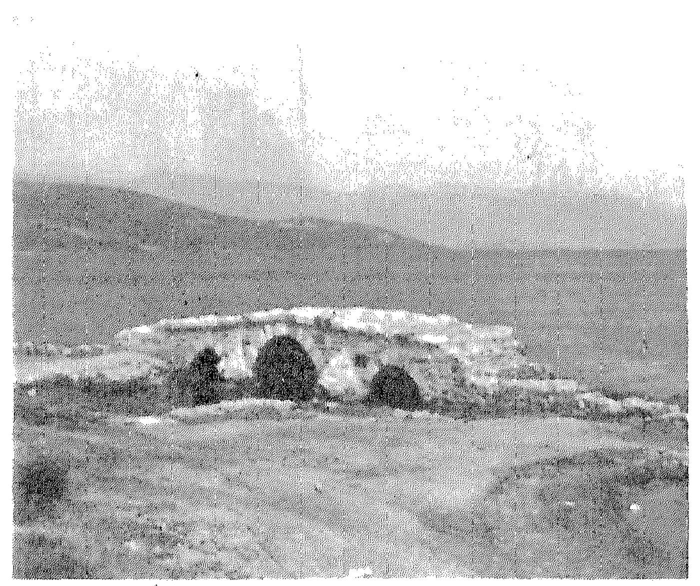
٤٨ ــ حجر مسافة يعود بتاريخه الى حوالي سنة ١٣٠ قبل الميلاد.



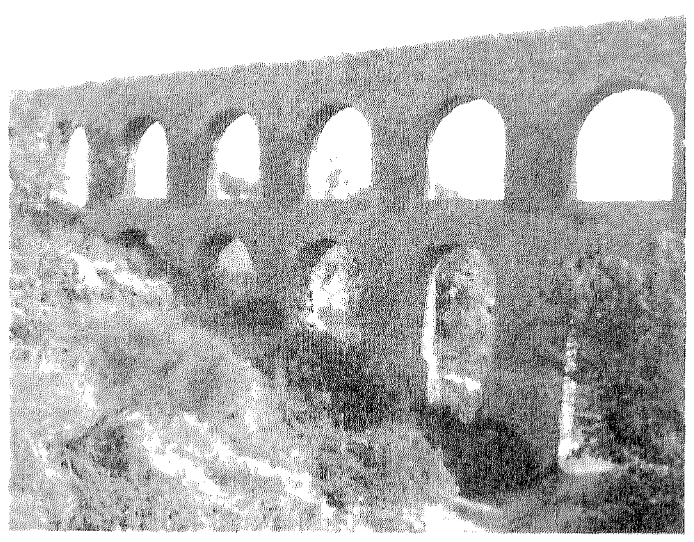
٤٩ — بقايا حمامات سيرين الرومانية في ليبيا، وتبدو الاسطوانات الفخارية.



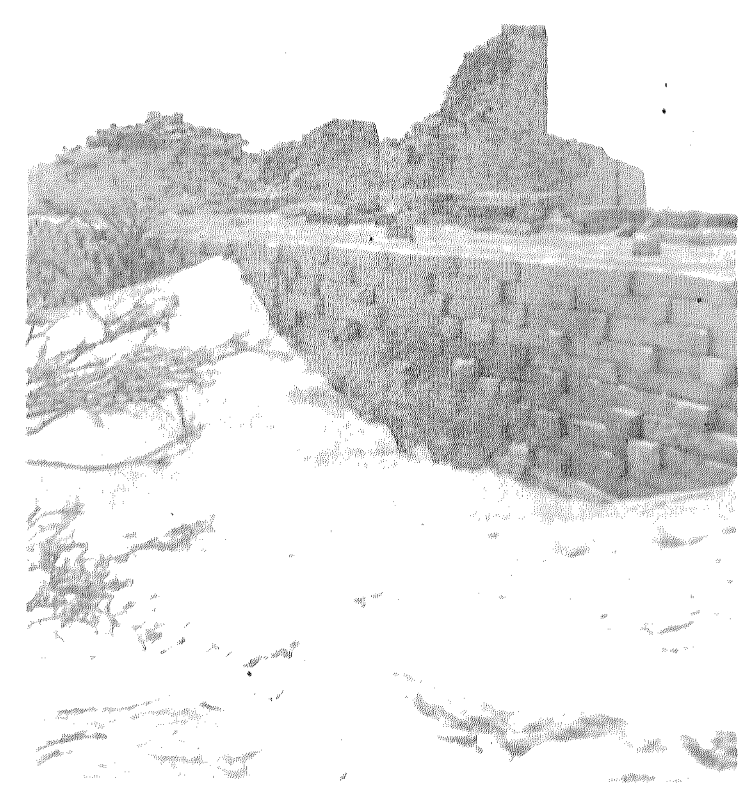
٥٠ — رسم يمثل طريقة رصف الاسطوانات الفخارية تحت أرض الحمامات في سيرين — ليبيا.



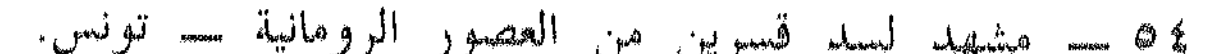
٥١ ــ جسر أثري في ضواحي إزمير (تركيا) تغمر قسماً منه مياه البحر.



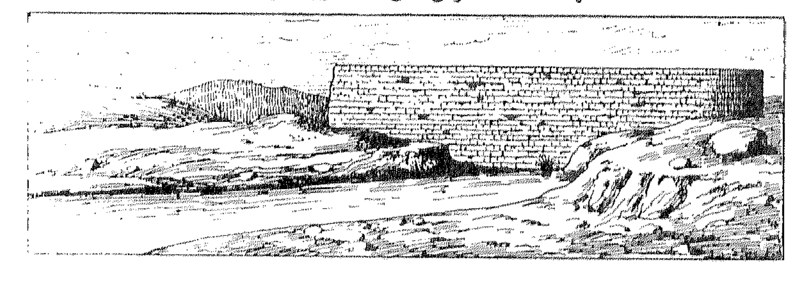
٥٢ ــ قناة مياه تمر فوق جسر مؤلف من طبقتين من الأقواس (ايطاليا).

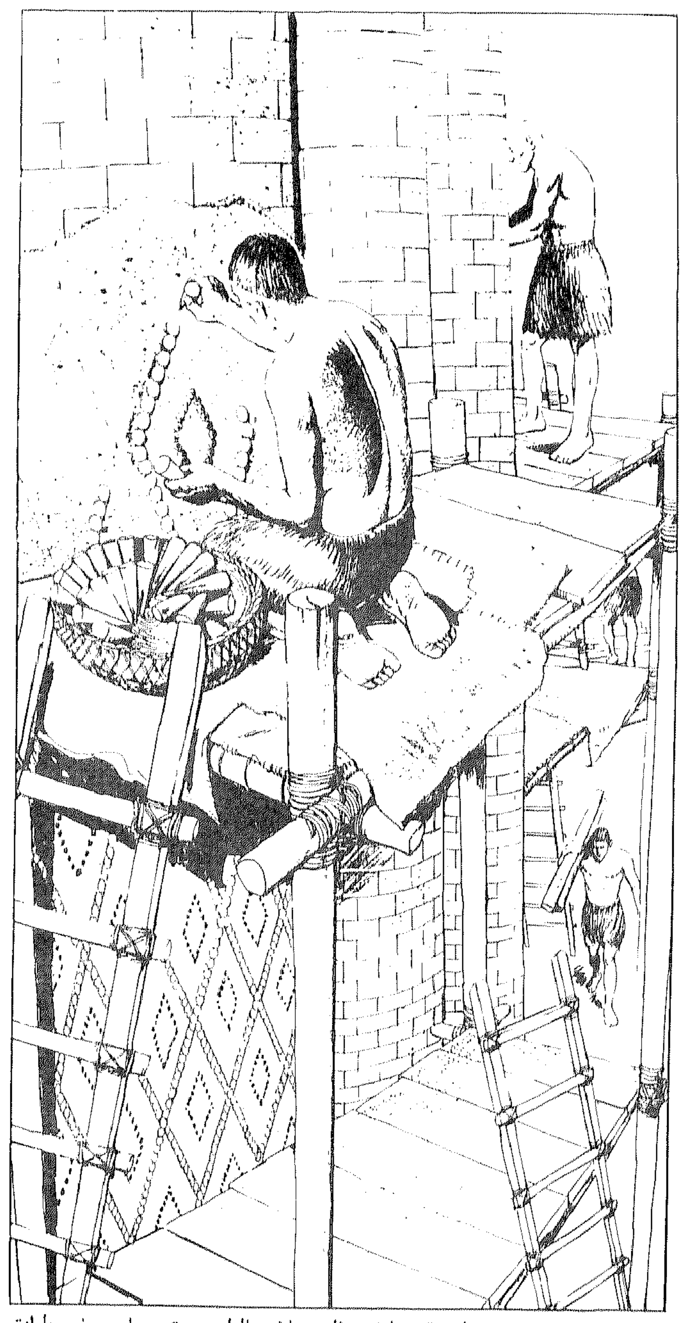


٥٣ ـــ سد مأرب وقد غطت قسماً كبيراً منه رمال الصحراء ـــ اليمن.

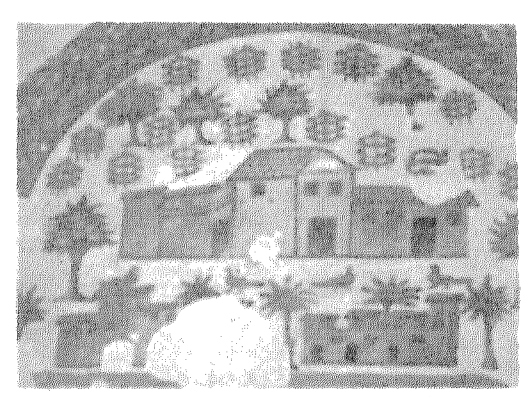


٥٤ ـــ مشهد لسد قسرين من العصور الرومانية ـــ تونس.

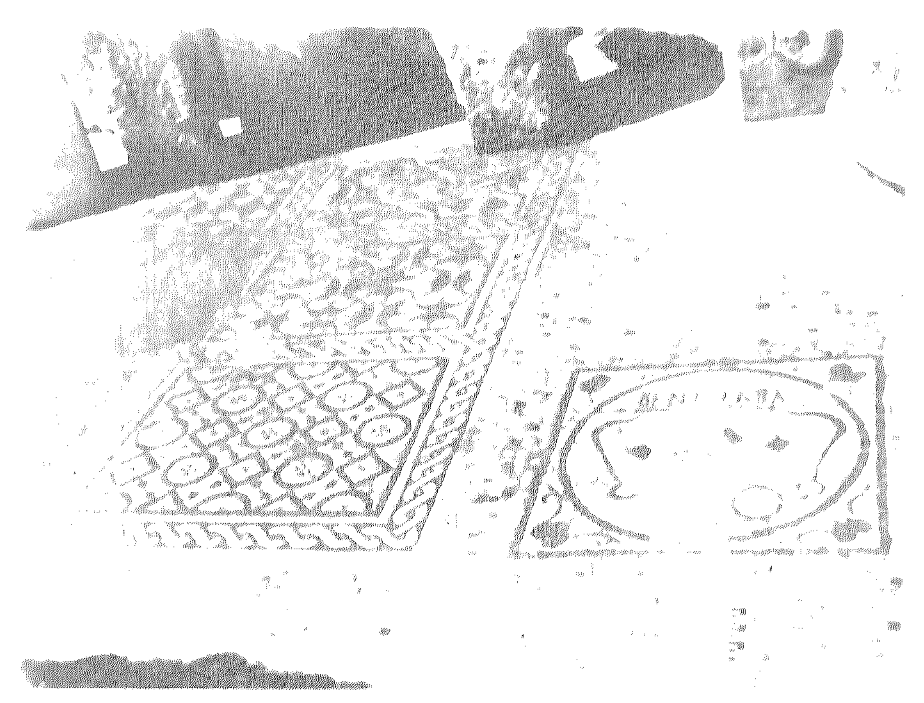




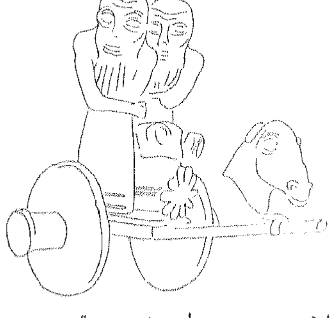
٥٥ ــ رسم يمثل طريقة تغليف الجدران بالطين وتزيينها بمخروطات الفسيفساء، كما عند السومريين.



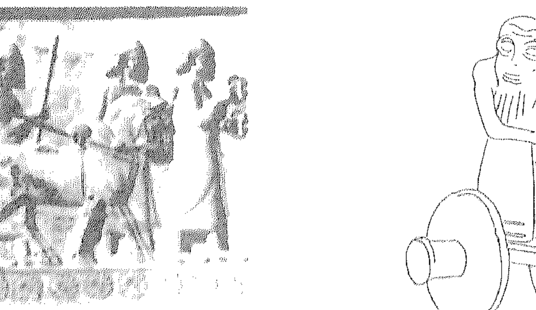
٥٦ ـــ فسيفساء من تونس في متحف باردو تمثل بيت أحد الأغنياء والحديقة المحيطة به.



٥٧ ـــ إحدى لوحات الفسيفساء من حمام المسرح في مدينة صبراته ـــ ليبيا ـــ تلحظ كتابة لاتينية تعني: « استحم جيداً » BENE LABA.



٥٨ ـــ رسم لمصغر عربة من الفخار المطلي بالميناء، عجلاتها مليئة، رأس شمرا ـــ سوريا.



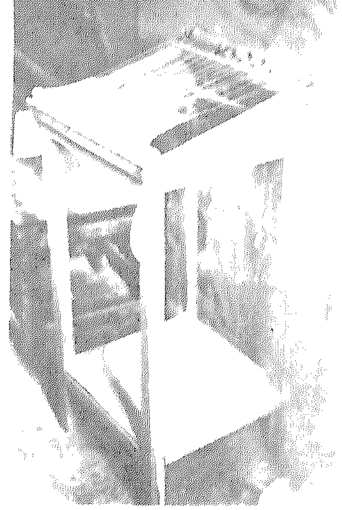
٥٩ ـــ منحوتة تمثل عربة عجلاتها مفرغة (مشععة) ـــ برسيبوليس.



٦٠ ـــ عربة فلاح من القرن العشرين، عجلاتها مليئة.



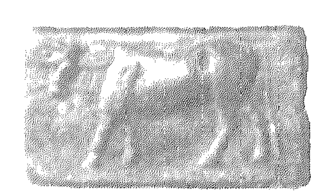
٦١ ـــ نصب يمثل امرأة تغزل الصوف من بلاد ما بين النهرين (متحف اللوفر).



٦٢ ـــ آلة حياكة عثر عليها في هيركيلانوم ـــ ايطاليا.



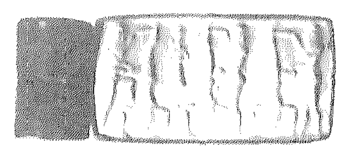
٦٣ ـ حانوت من هيركيلانوم ـ ايطاليا



٦٤ ـ قطعة نقود برونزية رومانية ـ الثور يمثل القيمة الشرائية.



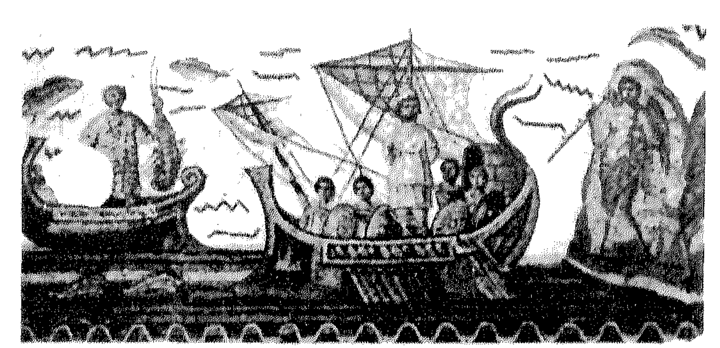
٦٦ ـ ختم اسطواني الشكل من بلاد ما بين النهرين، الى جانبه أثر دمغته على الجص.



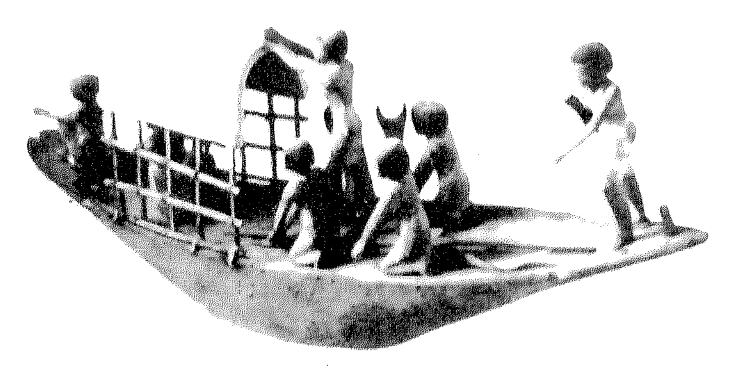
٦٥ ـ آلة تشبه الملزمة لضرب المسكوكات.



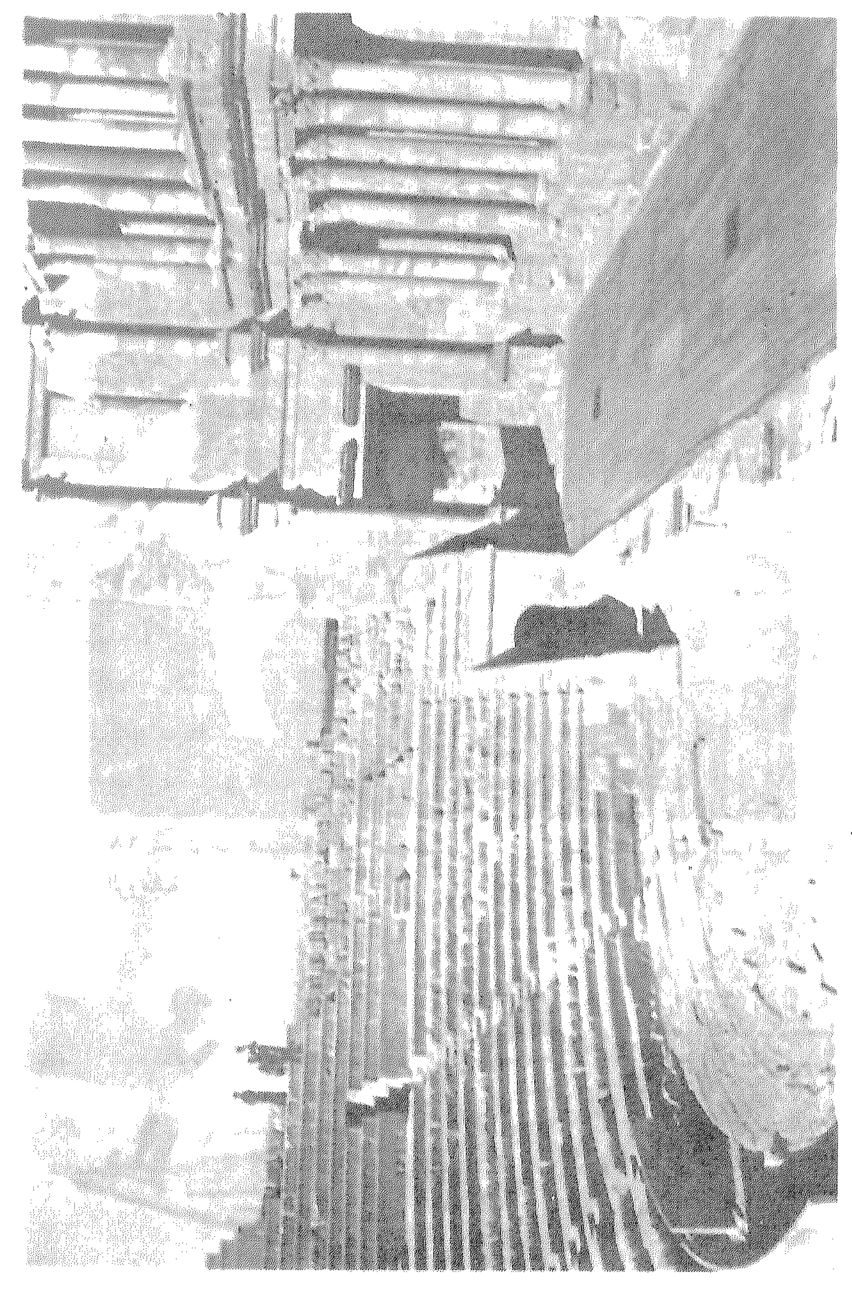
٦٧ ــ مرفأ قرطاجة القديم كما يبدو حالياً.



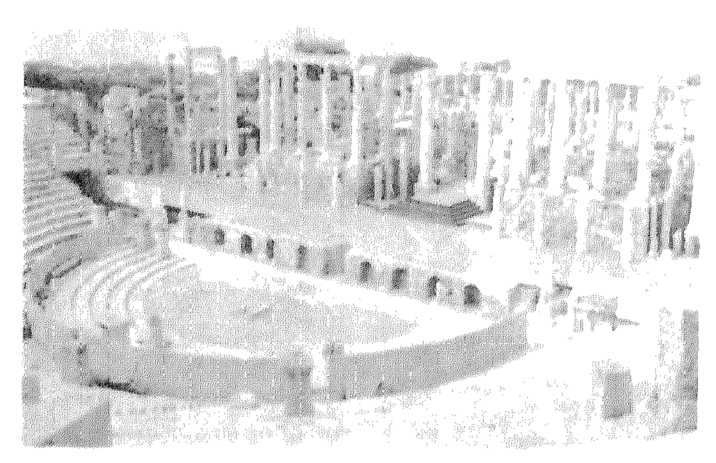
٦٨ ــ لوحة فسيفساء من متحف باردو في تونس تظهر فيها المراكب الرومانية.



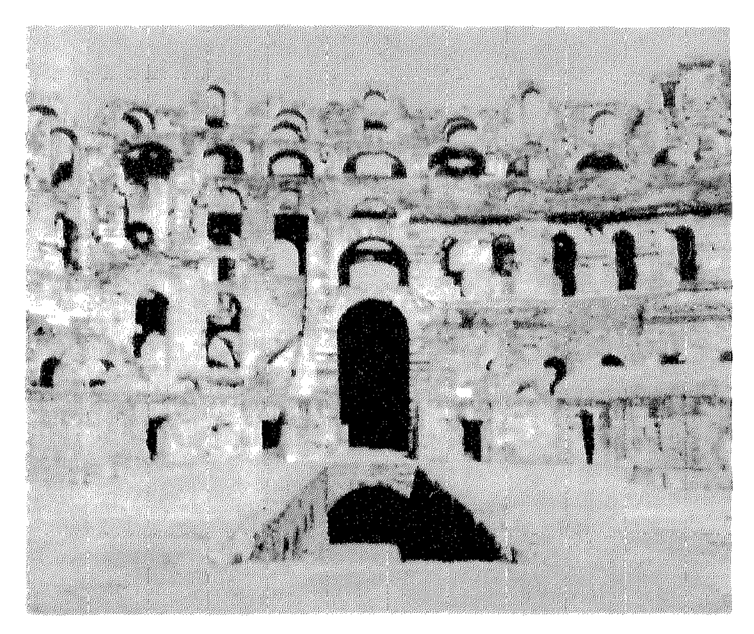
٦٩ ــ نموذج مصغّر لمركب مصري.



٧٠ — مسرح مدينة صبراته — ليبيا — يظهر الممرات الأفقية وسلالم التنقل.



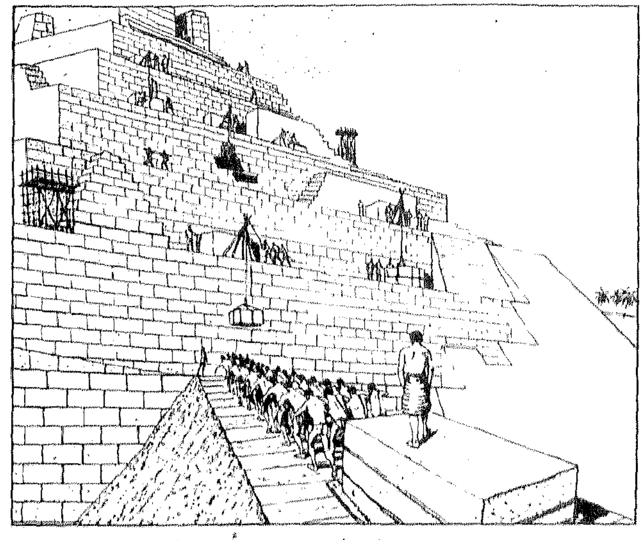
٧١ ــ مسرح لبده الكبرى الروماني ــ ليبيا.



٧٢ — المسرح الدائري في الدجم (El Djem) — تونس.



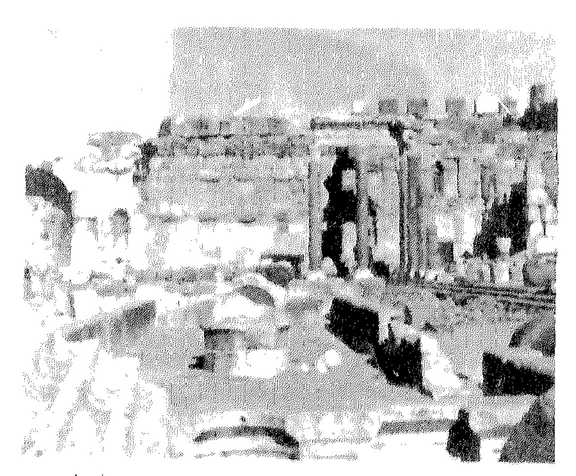
٧٣ — بقايا المسرح الغنائي في أفروديسيا — تركيا.



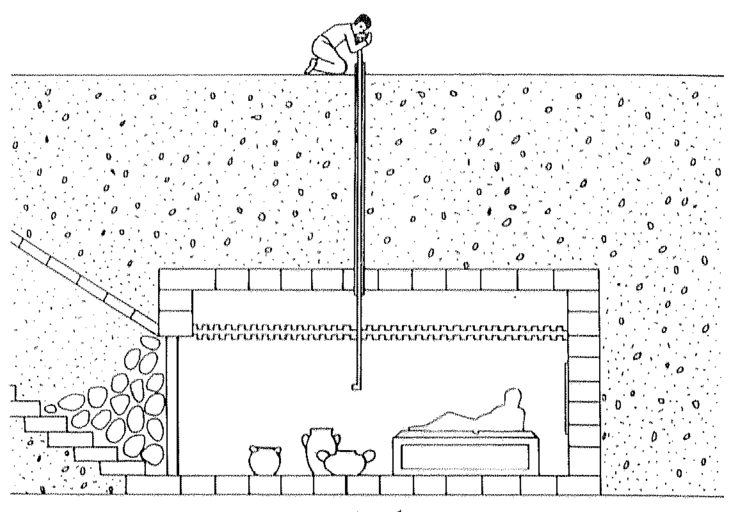
٧٤ ــ رسم يمثل طريقة بناء الأهرام في مصر.



٧٥ ــ أعمدة كورنثية من تدمر ــ سوريا.



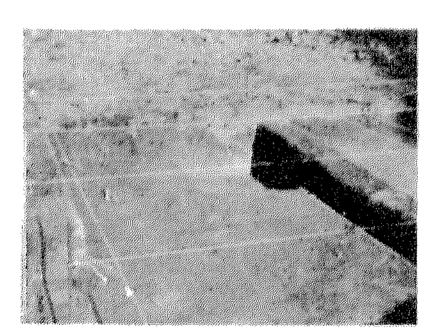
٧٦ ــ قسم من هياكل بعلبك ويبدو المذبح في وسط الصورة ــ لبنان.



٧٧ ـ رسم يمثل استكشاف مدفن بواسطة المثفاق.



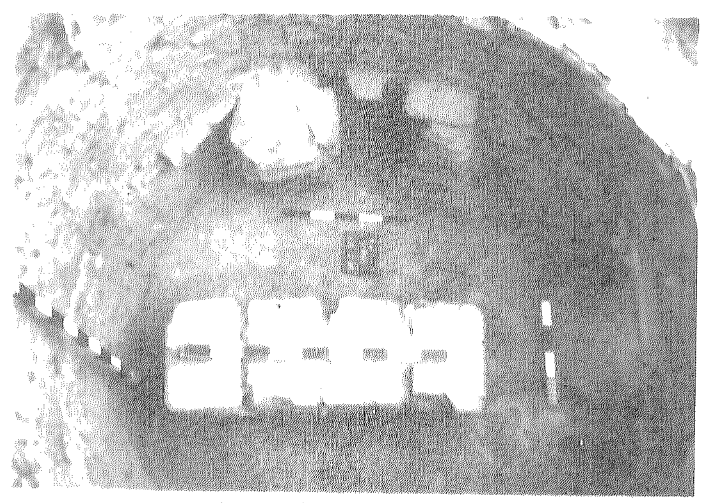
٧٨ ـ تثبيت آلة التصوير الى طائرة ورقية.



٧٩ ـ الحبال تساهم في تحديد موقع المكتشفات داخل المربعات.

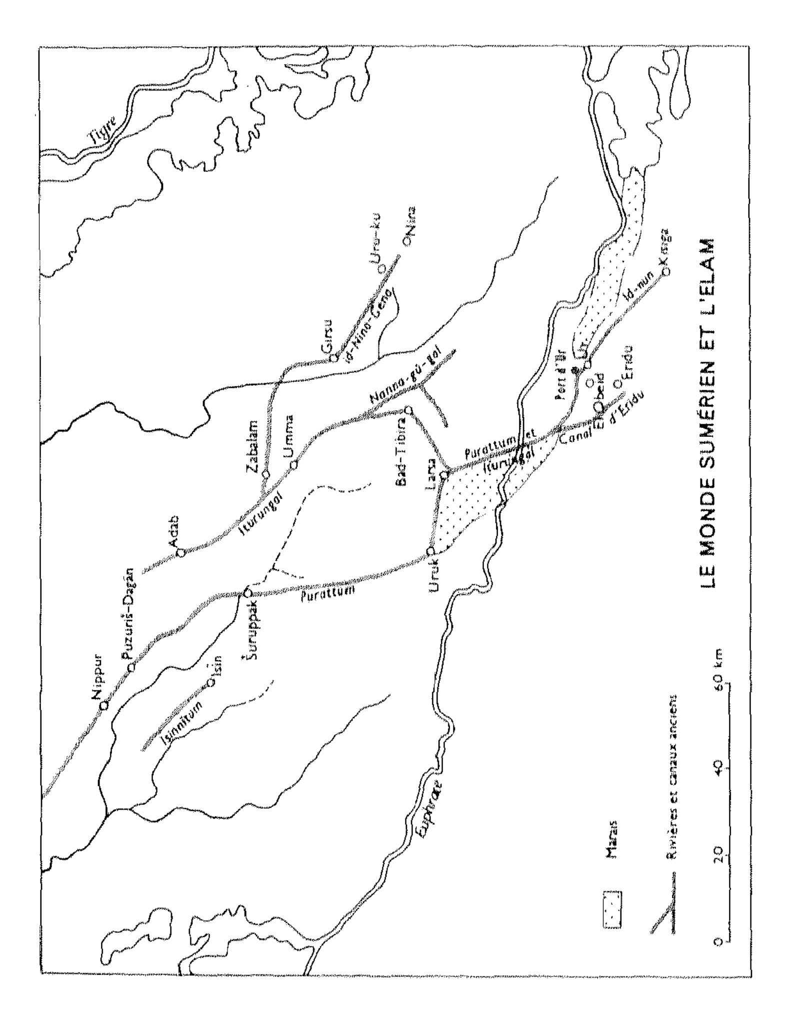


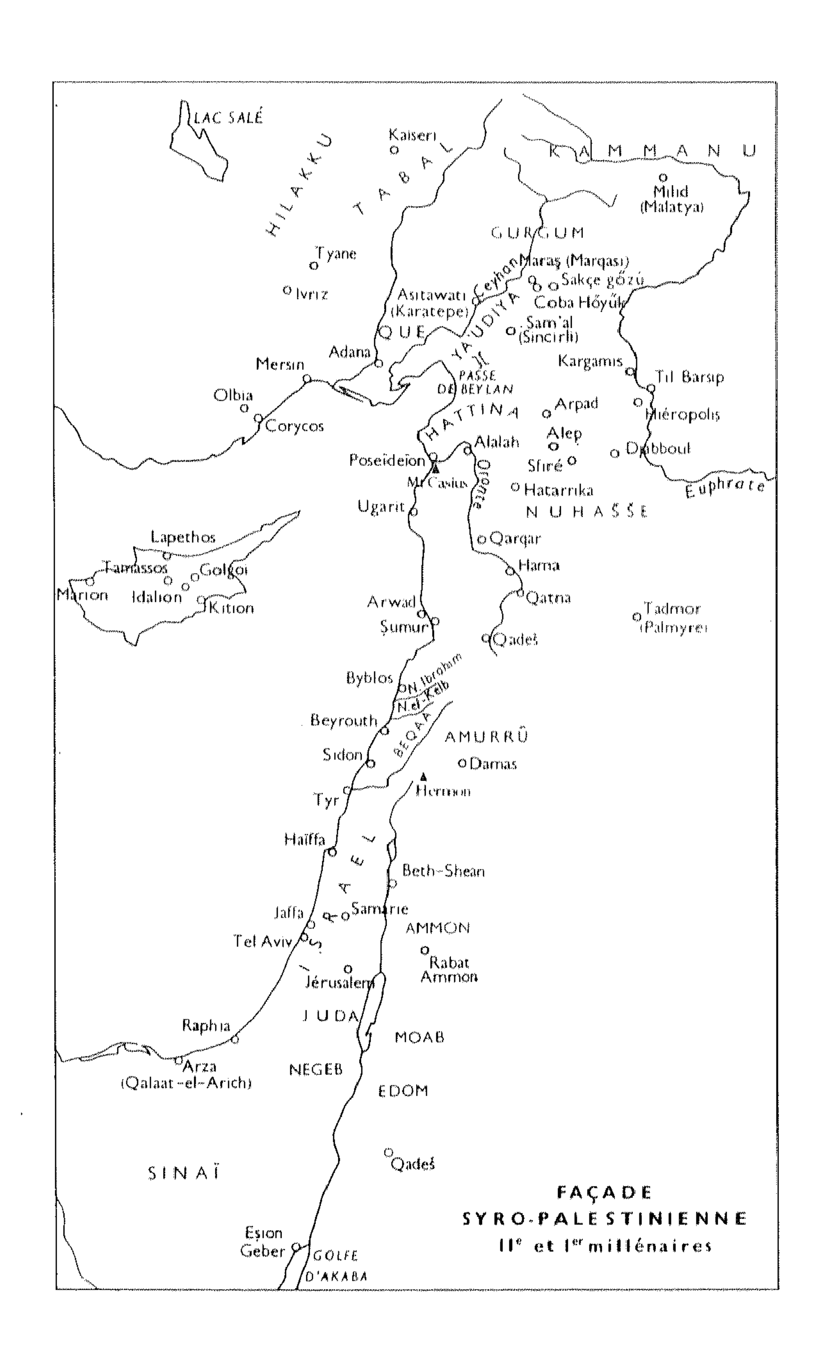
٨٠ ـــ القيام بالأعمال المختلفة في آن واحد يساعد على انجاز التنقيب.

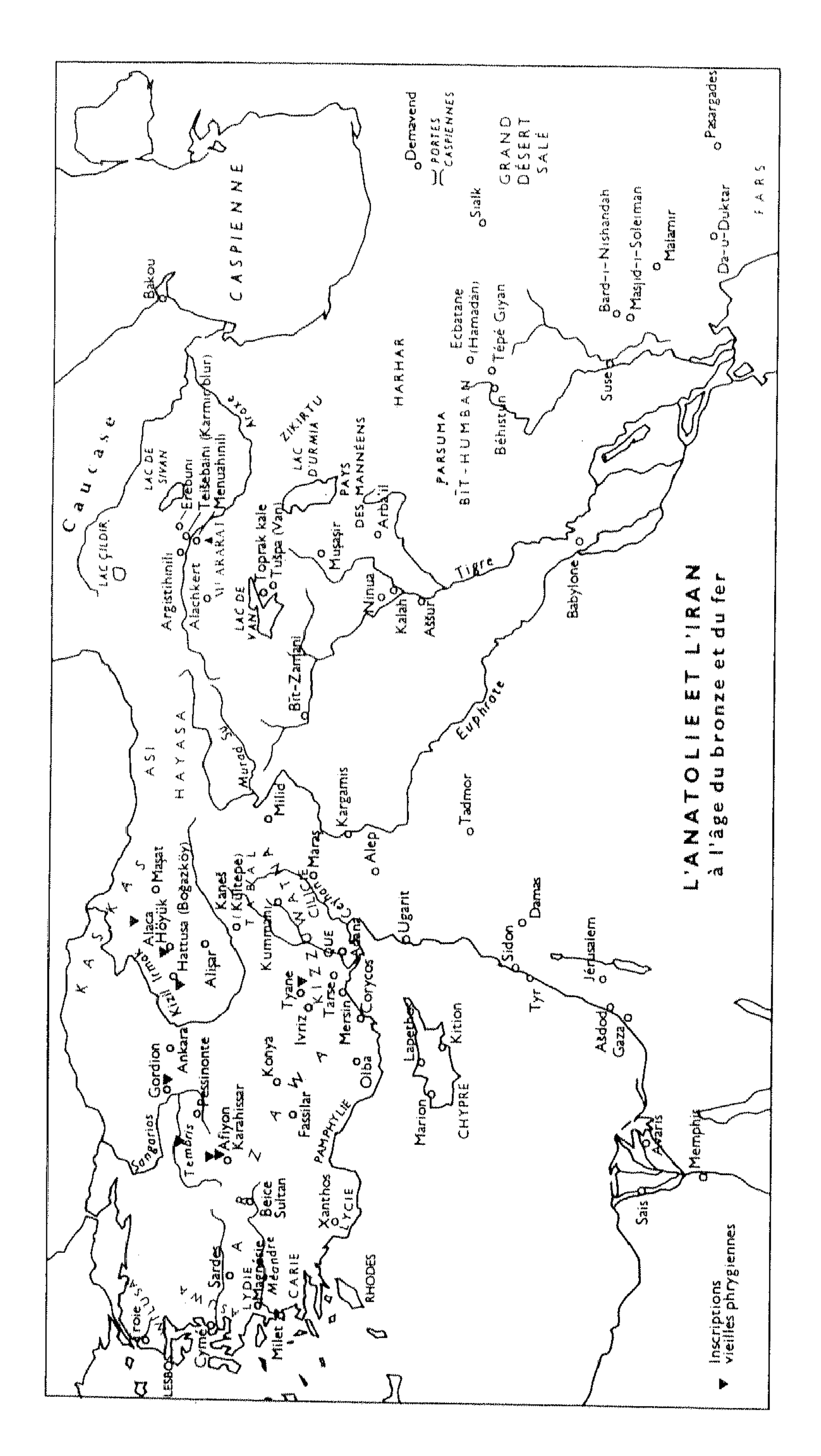


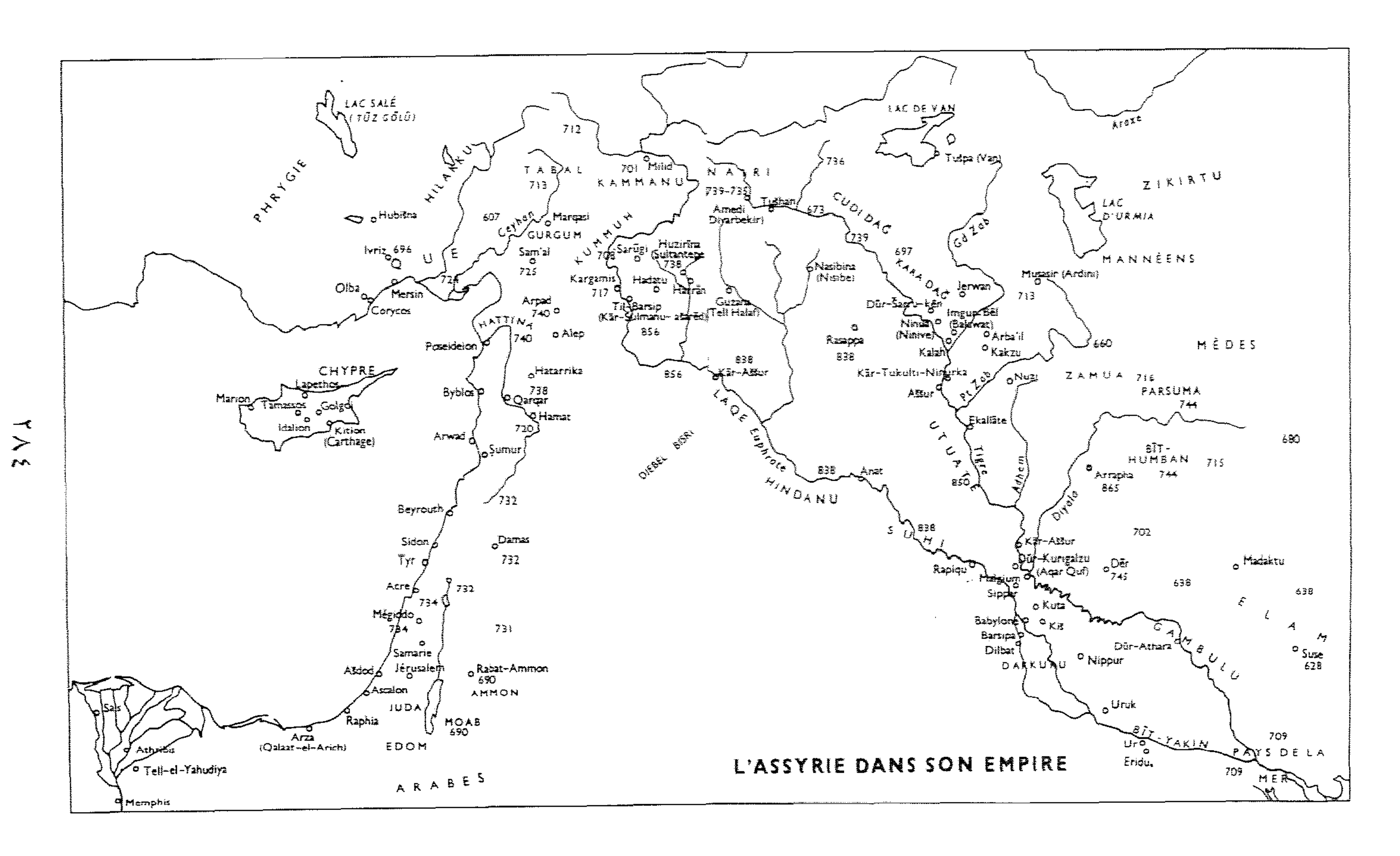
٨١ ـــ وضع مقياس (مسطرة) ملون بالأحمر والأبيض يساهم في إظهار الأبعاد والألوان على الصور.

CARTES


Tigre
Nippur
Puzuriš-Dagān
Adab
Zabalam
Umma
Girsu
Id-Nina-Gena
Uru-ku
Nina
Iturungal
Nanna-gú-gal
Bad-Tibira
Larsa
Purattum et Iturungal
Port d'Ur
Ur
Obeid
Eridu
Canal d'Eridu
Id-mun
Kisiga
Uruk
Šuruppak
Purattum
Isin
Isinnitum
Euphrate
Marais
Rivières et canaux anciens
0 20 40 60 km
LE MONDE SUMÉRIEN ET L'ELAM


LAC SALÉ
HILAKKU
TABAL
Kaiseri
KAMMANU
Milid
(Malatya)
GURGUM
Tyane
Ivriz
Maraş (Marqası)
Sakçe gözü
Coba Höyük
Asıtawatı
(Karatepe)
Ceyhan
QUE
YAUDIYA
Sam'al
(Sincirli)
Adana
Mersin
PASSE
DE BEYLAN
Kargamıs
Til Barsip
Olbia
Corycos
HATTINA
Arpad
Hiéropolis
Alep
Alalah
Poseideion
Mt Casius
Sfiré
Dabboul
Oronte
Hatarrika
Euphrate
Ugarit
NUHASSE
Lapethos
Qarqar
Tamassos
Golgoi
Hama
Marion
Idalion
Kition
Arwad
Qatna
Tadmor
(Palmyre)
Şumur
Qadeš
Byblos
N. Ibrahim
N. el-Kelb
Beyrouth
BEQAA
AMURRŪ
Sidon
Damas
Hermon
Tyr
Haïffa
ISRAEL
Beth-Shean
Jaffa
Samarie
AMMON
Tel Aviv
Rabat
Ammon
Jérusalem
JUDA
MOAB
Raphia
Arza
(Qalaat-el-Arich)
NEGEB
EDOM
Qadeš
SINAÏ
FAÇADE
SYRO-PALESTINIENNE
IIe et Ier millénaires
Esion
Geber
GOLFE
D'AKABA


L'ANATOLIE ET L'IRAN
à l'âge du bronze et du fer
Inscriptions vieilles phrygiennes
CASPIENNE
Caucase
Bakou
Demavend
PORTES CASPIENNES
GRAND DÉSERT SALÉ
Sialk
FARS
Pasargades
Da-u-Duktar
Malamir
Masjid-i-Soleiman
Bard-i-Nishandah
Ecbatane (Hamadân)
Tépé Giyan
Béhistun
HARHAR
PARSUMA
BIT-HUMBAN
Suse
ZIKIRTU
LAC D'URMIA
PAYS DES MANNÉENS
Arbail
Mușașir
Ninua
Kalah
Aššur
Tigre
Babylone
Euphrate
Tadmor
Kargamis
Alep
Ugarit
Sidon
Damas
Tyr
Jérusalem
Ašdod
Gaza
Memphis
Avaris
Sais
LAC ÇILDIR
LAC DE SIVAN
Erebuni
Teišebaini (Karmir-blur)
Menuahinili
Argistihinili
Alachkert
ARARAT
Toprak kale
Tušpa (Van)
LAC DE VAN
Bit-Zamani
ASI
HAYASA
Murad
Milid
KASKAS
Maşat
Alaca Höyük
Hattusa (Boğazköy)
Kaneš (Kültepe)
Alişar
Kızıl Irmak
Kummanni
Maraş
CILICIE
Adana
Corycos
Tyane
Tarse
Mersin
Ivriz
Olba
Konya
Fassilar
Gordion
Ankara
Pessinonte
Afiyon Karahissar
Sangarios
Tembris
Beice Sultan
Xanthos
LYCIE
PAMPHYLIE
CARIE
LYDIE
Magnésie du Méandre
Sardes
Troie
Cymé
Milet
LESBOS
RHODES
CHYPRE
Lapethos
Kition
Marion


L'ASSYRIE DANS SON EMPIRE
PHRYGIE
LAC SALÉ (TÜZ GÖLÜ)
HILAKKU
Hubišna
Ivriz 696
QUE
Olba
Mersin
Corycos
CHYPRE
Lapethos
Marion
Tamassos
Golgoi
Idalion
Kition (Carthage)
Poseideion
HATTINA
Byblos
Arwad
Şumur
Beyrouth
Sidon
Tyr
Acre
Mégiddo
Samarie
Jérusalem
Ascalon
Ašdod
Raphia
Arza (Qalaat-el-Arich)
Saïs
Athribis
Tell-el-Yahudiya
Memphis
JUDA
EDOM
MOAB
AMMON
Rabat-Ammon
ARABES
Damas
Hamat
Qarqar
Hatarrika
Alep
Arpad
Sam'al
Marqasi
GURGUM
Ceyhan
TABAL
KAMMANU
Milid
KUMMUH
Kargamis
Sarūgi
Hadatu
Harrān
Huzirina (Sultantepe)
Til-Barsip (Kār-Šulmanu-ašared)
Guzana (Tell Halaf)
Kār-Aššur
DJEBEL BISRI
LAQE
Euphrate
HINDANU
Anat
SUHI
Rapiqu
Sippar
Babylone
Barsipa
Dilbat
Kiš
Kuta
Nippur
Uruk
Ur
Eridu
DARKURU
BĪT-YAKIN
GAMBULU
Dūr-Athara
Dēr
Madaktu
Suse
ELAM
PAYS DE LA MER
BĪT-HUMBAN
Arrapha
Diyala
Adhem
PARSUMA
ZAMUA
MÈDES
MANNÉENS
ZIKIRTU
LAC D'URMIA
Araxe
LAC DE VAN
Tušpa (Van)
Muşaşir (Ardini)
Gd Zab
Pt Zab
Arba'il
Kakzu
Nuzi
Ekallāte
Tigre
UTUATE
Aššur
Kalah
Ninua (Ninive)
Dūr-Šarru-kēn
Imgur-Bēl (Balawat)
Jerwan
Kār-Tukulti-Ninurta
KARADAĞ
CUDIDAĞ
Nasibina (Nisibe)
Rasappa
NAIRI
Amedi (Diyarbekir)
Tušhan
Kār-Aššur
Dūr-Kurigalzu (Aqar Quf)

المراجع

الفصل الأول

L.- R. and S. Binfort, New perspectives in Archaeology, Chicago, 1968.
R. Bloch et A, Hus, Les conquêtes de l'Archéologie, Paris, 1968.
L. Frédéric, Manuel pratique d'Archéologie Paris, 1978.
E. Meyer, Histoire de l'Antiquité, t I et II,Paris, 1912 et 1926.
D. Miles, An Introduction to Archaeology, Londres, 1978.
E. Pyddoke, Wat is Archaeology? Londres, 1970
G. Rachet, L'Univers de l'Archéologie (2 vol.), Verviers, 1970.

الفصل الثاني

H. Alimen, Atlas de la Préhistoire Paris, 1950-1955.
H. Boule et H. Vallois, Les hommes fossiles, Paris, 1952.
C.W. Ceram, Le passé entre vos mains, Paris, 1967.
G. Daux, Les Etapes de l'archéologie, Paris, 1958.
R. Furon, Manuel de préhistoire générale, Paris, 1943
A.M. Kenyon, Begining in Archaeology, Londres, 1952.
J. Mascart, Notes sur la variabilité des climats, Lyon, 1925.
E. Massoulard, préhistoire et protohistoire d'Egypte, Paris, 1949.
A. Maurizio, Histoire de l'alimentation végétale, Paris, 1932.
J. de Morgan, La préhistoire Orientale, t III; L'Asie Antérieure, Paris 1925-1927.
A. Parrot, Archéologie mésopotamienne, Paris, 1953.
D. Peyrong, Elements de Préhistoire, Paris, 1946.
A. Varagnac. l'homme avant l'écriture, Paris, 1959.

R. Weil, Bases, méthodes et résultats de la Chronologie égyptienne, Paris, 1928
H. Weinert, l'homme préhistorique, Paris, 1940.

الفصل الثالث

مراجع عامة

القرآن الكريم — العهد القديم

D. Arnaud, Le Proche Orient Ancien, Paris, 1970.
- De l'invention de l'Ecriture à l'hellénisation, Bordas, 1970.
P. Briant, Alexandre Le Grand, Paris, 1974.
M. Burrows, Les Manuscrits de la mer Morte, Paris, 1975.
F. Chamoux, La Civilisation Grecque, Paris, 1963.
A. Champdor, Les ruines de Palmyre, Paris, 1953.
J. Charbonneaux, R. Martin, F. Villard.
- Grèce archaïque, Paris, 1967.
- Grèce classique, Paris, 1969.
- Grèce hellénistique, Paris, 1970.
G. Conteneau, Manuel d'Archéologie Orientale, I-IV, Paris, 1927-1947.
F. Cumont, Les fresques d'époque romaine ... in les travaux archéologiques, en Syrie, 1920-1922, Paris, 1923; Fouilles de Doura-Europos, Paris, 1926.
L. Delaporte, La mésopotamie, Paris, 1923;
- Le Proche Orient asiatique, Paris, 1938.
- Les peuples de l'Orient méditérannéen, I, Paris, 1938.
M.Dunand, «Rapport préliminaire sur les fouilles de Sidon», BMB,(1966),
103-105, 20(1967), 27-44, 22(1969), 101-107.
R.S.Ellis, A Bibliography of Mesopotamian Archaeological Sites, Wisbaden, 1972.
P. Fischer, Mosaïc: History and Technique, Londres, 1971.
W.B. Fleming, The History of Tyr, New York, 1915.
D. N. Freedman, «The real story of the Ebla Tablets,» BA, 41(1978) 143-164.
P. Garellt, Le Proche-Orient asiatique, Paris, I, 1969; II, 1974.

H. de Genouillac, Fouilles de Telloh (2 vol.), Paris, 1934-1936.
G. Grant, Les Cités de Vésuve, Paris, 1972.
L. Habachi, The Obelisks of Egypt, Londres, 1978.
J. L. Huot, «Larsa», Syria, 53(1976), 1-45;
Derniers travaux à Larsa en 1974 et 1976», CRAI, Avr.-juin 1977, 430-439
T. Yacobsen, The Sumerian King List, Chicago, 1939-1975.
C. - F. Jean, Larsa d'après les textes cunéiformes, Paris, 1931.
N. Jidéjian, Tyre, Beyrouth, 1969.
- Sidon trough the Ages, Beyrouth, 1971.
C. - A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, des origines à la conquête arabe, I, II, Paris, 1978.
K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, Londres, 1960 - 1965.
J. R. Kupper, Les Nomades en Mésopotamie au temps des rois de Marie, Paris, 1957.
G. Lafforgue, La haute Antiquité, Paris, 1969.
- L'Orient et la Grèce, jusqu'à la conquête romaine. P.U.F., France, 1970.
E. Mackay, Report on Excavations at Djemdet Nasr Chicago, 1931.
G. Maspéro, Histoire Ancienne des peuples de l'Orient Classique, (3 vol.), Paris, 1895 - 1899.
J. Mellart, «Egyptian an Near Eastern Chronology: a dilemma»?, Ant., 207 (1971), 6-18.

R. Nadourie, رشيد ناضوري

المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري في جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، بيروت، دار النهضة العربية، ثلاثة أجزاء /١٩٧٦/

L. Oppenhein, La Mésopotamie, Paris, 1970.
A. Parrot, Mari, Capitale fabuleuse, Paris, 1974.
- Tello, Paris, 1948.
P. Pouguet, l'Impérialisme macédonien et l'hellénisation de l'Orient, Paris, 1926.
G. Rachet, Archéologie de la Grèce préhistorique, Verviers, 1969.
- Exploration et voies commerciales dans l'Antiquité, RAAO, 60(1966).
G. Saade, R.S. Ruines d'Ugarit, Guide, Beyrouth, 1954.

Cl. F. Schaeffer, The cuneiform texts of Ras-Shamra-Ugarit, Londres, 1939.

H. Schleimann, Troy and its Remains, Londres, 1875.
R. Thoumin, Histoire de Syrie, 1929.
R. de Vaux, l'Archéologie et les manuscrits de la mer Morte, Londres, 1961.
Ch.Vellay, Nouveaux aspects de la question de Troie, Paris, 1930.
C. Vinolleaud, La Montagne de Cèdres dans les traditions de l'Ancient Orient, Paris, 1930.
E. Will, Histoire Politique du monde hellénistique, Nancy, 1979.
L. Woolley, Mésopotamie et Asie Antérieure, (coll. l'art dans le monde), Paris, 1961.

مراجع مختصة

الساميون:

G.A. Barton, Semitic and Hamitic Origins, Philadelphie, 1934.
H. Fleisch, Indrotudction à l'étude des langues sémitiques, Paris, 1947.
M. - J. Lagrange, Etudes sur les religions sémitiques, Paris, 1928.
E. Masson, Recherches sur les plus anciens emprunts sémitiques en Grec, Paris, 1967.
R. Montagne, La Civilisation du désert, Paris, 1947.
S. Moscati, Histoire et Civilisation des peuples sémitiques, Paris, 1955.
أ. ولفنستون (أبو ذؤيب)، تاريخ اللغات السامية، بيروت، ١٩٨٠

السومريون:

W.Andrae, «The Story of Uruk», Ant., (1936), 133-145.
G. Gadd, History an Monuments of Ur, Londres, 1929.
S.N. Kramer, The Sumerians, Chicago, 1963/1970.
- l'histoire commence à Sumer, Paris, 1957/1975.
T. Madhloom, Sumer, 28(1972); 30(1974).

A. Parrot, Sumer, Paris, 1960.
Sumer, Notes et Etudes dans Sumer: 9(1953); 20(1964); 21(1965); 28(1971); 29(1972)...
L. Woolley, The Sumerians, Oxford, 1929.
– The development of the sumerian Art, Londres, 1935.

الأكديون:

G. Conteneau, Manuel, II, 665 sq.; CAH 1, 2,417 sq.
L. Legrain, «The Inscriptions of the Kings of Agadé175, MJ, 14(1923), 203sq.
E. Nassouhi, «La Stèle de Sargon l'Ancien», RAAO, 21(1924), 65 - 74.

البابليون:

T. Baqir, Babylon and Borsippa, Bagdad, 1959.
A. Champdor, Babylone et la Mésopotamie, Paris, 1953.
A. Clay, Neo-Babylonians Letters from Erech III, 1919,
YOS.CAH, I, 2 cap. 22 (Babylonia c, 2120-1800 BC.), II, 1, cap. III.
F. Digard, Répertoire analytique des Cylindres orientaux, Paris, 1976.
A. Finet, Le Code de Hammurapi, Paris, 1973.
H. Frankfort, Art and Architecture of the Ancient Or., Harmonsworth, 1954 - 1970.
B. Segall, The Arts and King Nabounidus, AJA, LIX (1955), 315 - 318

الأموريون:

E. Dhorme, «Les Amorties», RB, 1928, 1929, 1931.
K. Kenyon, Amorites and Canaanites, Londres, 1966.
G. Lankester Harding, The Antiquities of Jordan, Amman, 1967 - 1976.
S. Saouaf, Alep dans sa plus ancienne histoire, Alep, 1972.
J. Sauvaget, Alep, 1941, CAH II.

الكاشيون :

G. Dumézil, «Dieux cassites et dieux védiques» à propos d'une bronze du Louristan, RHR, 11 (1950).
A. Goetze, «The Kassites and Near Eastern Chronology» JCS, 18(1964), 97sq.

الأشوريون :

P. - E. Botta et E. Flandin, Monument de Ninive (5 vol.) Paris, 1849 - 1850.
G. Gardascia, Les Lois assyriennes, Paris, 1969.
G. Contenau, Les Tablettes de Kerkouk et les origines de la civilisation assyrienne, Paris, 1929.
G. R. Driver and J.C. Miles, The Assyrian Laws, Oxford, 1935.
C. J. Gadd, The Assyrian Sculptures, Londres, 1934.
A. Poebel, «The Assyrian King List from Khorsabad» JNES, 1(1942), 247, sq., 460sq.; 2(1943), 56dq.
S. Smith, Early History of Assyrian, Londres, 1928.

العيلاميون :

P. Amiet, Elam, Auvers-sur-Oise, 1966.
«Archaeological discontinuity and ethnic duality in Elam», Ant., LIII (1979), 195-204.
R. de Mecquenem, Epigraphie proto-élamite, MMAI XXXI, 1949.

الأخمينيون ـ البارتيـون :

W. Culican, The Medes and Persians, Londres, 1965.
R. Ghirshman, «Masjid Solaiman, Résidence des premiers Achménides», Syria, 27(1950), 205 - 220.
- Parthes et Sassanides, Paris, 1962.
Cl. Huart et L. Delaporte. L'Iran Antique et la Civilisation. iranienne, Paris, 1943.

الحثيون :

G. Contenau, La Civilisation des Hittites et des Mitanniens, Paris, 1934.
L. Delaporte, Les Hittites, Paris, 1936.
G. L. Huxley, Achacans and Hittites, Oxford, 1960.

الحوريون ـ الميتانيون :

M. Liverani, «Hurrie Mitanni», Or. Ant., 1 (1962), 253 - 257.
E. A. Speiser, «Ethnie Movements in the Near East in the second millenium B.C.: The Hurrians and their connections with the Habiru and the Hyksos», AASOR, 13(1931 - 1932), 13-34.

الآراميون :

A. Dupont-Sommer, Les Araméens, Paris, 1949.
G. Spano, «L'Origini degli archi onorari», Neapolis, I, (1913).

الكنعانيون :

M. - C. Astour, «The Origin of terms "Canaan", "Phoenician", and "Purples",» JNES XXIV, (1965), 346-350.
J. Gray, The Canaanites, Londres, 1964.
G. Saadé, Ougarit Métropole Canaanéenne, Beyrouth, 1979.

الفينيقيون :

محمد أبو المحاسن عصفور ، المدن الفينيقية ، بيروت ، ١٩٨١.

G. Contenau, La Civilisation Phénicienne, Paris, 1928/1939.
P. Montet, «Le pays de Nagaou près de Byblos et son dieu», Syria, 4 (1923), 181 - 192.

S. Moscati, l'Epopée des Phéniciens, Paris, 1971.
E. Renan, Mission en Phénicie, Paris, 1864.
J. Vercoutter, l'Egypte et le monde égéen préhellénique. Le Caire, 1956.

لفلسطينيون :

R. Amirian, «Connections between Anatolia and Palestine in the Early B.A.», IEJ, 2(1952). 89 sq.
E. Anati, Palestine before the Hebrew, Londres, 1961.
D.C. Baramki, «Excavation at New Testament J.» AASOR, 29-30 (1955).
K. M. Kenyon, Jerusalem: Excavating 3000 years of history, Londres, 1967.
R. S. Lamon, The Megiddo Water System, Chicago, 1935.
R. Neuville, Le Paléodithique et le Mésolithique du Désert de Judée, Paris, 1951.
F. Petrie, Ancient Gaza, (4 vol.), Londres, 1931-1934.
N.K. Sandars, The Sea Peoples, Londres, 1978.
L. H. Vincent, Jérusalem, recherches de topographie d'archéologie et d'histoire (2 vol.), Paris, 1912-1926.

النبطيون :

I. Browing, Petra, Londres, 1973.
R. Dussaud, La pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.
P.C. Hammond, The Nabataeans, Gothenberg, 1973.
Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie, I, Paris, 1909, 107-250.
M.I. Rostovtzeff, Caravan Cities: Petra and Jerash, Palmyra and Dura, 1932.

« الخليج العربي » :

G. Bibby, Dilmoun, Paris, 1972.
T.H. Carter, BASOR, 207 (1972), 16 sq.
N.S. Kramer, «Dilmun, The Land of the Living», BASOR, 96(1939), 18-28;
«Dilmun Quest of Paradise», Ant., 37(1963) 111 sq.;

«The Indus Civilisation and Dilmun», Expedition, VI, 44-52.
P. Lombard et J.F. Salles, Fouilles à Umm Jidr, Paris, 1982.

اليمنيون :

- Archéologia, 160 (1981), 26-53.
محمد عبد القادر بافقية وألفريد بيتسون وكريستيان روبان ومحمد الغول، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، تونس، ١٩٨٥.

R. Le Baron Bowen et F. - P Albright, Archeological discoveries in Sud Arabia, (2 vol.), Baltimore, 1958.
E. Borrows, Tilmun, Bahrein, Paradise, Rome, 1928.
J. Caton Tompson, The Tombs and Moon: Temple of Hureida, Londres, 1944.
B. Doe, Southern Arabia, Londres, 1971.
G.L. Harding Archaeology in the Aden Protectorates, Londres, 1964.
J.A. Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabie 4 vol.), Paris, 1920-1922.
A. Lucas, «Cosmetics, Perfumes and Incense in Ancient Egypt», JEA, 16(1930) 41sq.
W. phillips, Chataban and Sheba, Londres, 1955.
J. Prienne, «Notes d'archéologie sud-arabe», Syria, 51(1974), 137 sq.
- A la découverte de l'Arabie, Paris, 1958.
- Le Royaume sud-arabe de Qataban et sa datation, Louvain, 1961.
A. Winnett, A study of the Lihyanite and Thamadie Inscriptions, Toronto, 1937.

المصريون ــ النوبيــون :

C. Aldred, Akhenaten and Nefertiti, New York, 1973.
J. Baikie, The Amarno Age, Londres, 1926.
F. Dumas, La Civilisation de l'Egypte pharaonique, Paris, 1965.
A. Erman, H. Ranke, La Civilisation Egyptienne, Paris, 1976.
G. Gauthier, Le Livre des rois d'Egypte, IFAO (5 vol), 1908-1917, (Reimp. anast.)
J. Kamil, Luxor, A Guide to Ancient Thebes, Londres, 1973.

E. Lefèbure et aliï, Les Hypogées royaux de Thèbes (3 vol.), Paris, 1882-1889.
A. Moret, Le Nil et la Civilisation égyptienne, Paris, 1937.
W. Fl. Petrie, Tell-el-Amarna, Londres, 1894.
Porter and Moss (éd), I, II, The Theban necropolis and the Theban temples.
J. Samson, Amarna, Londres, 1978.

بيربير ـ النوميد :

F. - I. Barr, Geology and Archaeology of Northern Cyrenaica, Libya, Tripoli, 1968.
J.P. Brisson, Carthage ou Rome, Paris, 1973.
J. Camps, Aux origines de la Berberie, Paris 1961.
- Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara Paris, 1974.
- Berbères, Toulouse, 1980.
J. Carcopino, Le Maroc Antique, Paris, 1943.
P.A. Février, Djemila, Alger, 1968.
St. Gsell, l'Algérie dans l'antiquité, Alger, 1903.
- Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (8 vol.), Paris, 1913-1929
- Etudes sur l'Afrique antique, Lille, 1981.
D.E.L. Haynes, An Archaeological and Historical Guide to the Pre-islamic Antiquities of Tripolitania, 1955 - 1959.
- Antiquities of Tripolitania, Londres, 1955.

محمد علي عيسى، مدينة صبراته،
منذ الاستيطان الفينيقي حتى الوقت الحاضر،
الادارة العامة للبحوث الأثرية والمخفوظات، ليبيا، ١٩٧٨.

A. Lèzine, Carthage, Utique, Etudes d'Architecture et d'urbanisme, Paris, 1968;
C. Poinssot, Les ruines de Dugga, Tunis, 1958.
- «Eléments arçhitecturaux punicissants de Thugga, RA (1967), 113-126.
P. Romanelli, Leptis Magna, Rome, 1925.
A. di Vita, «Influences grecques et tradition orientale dans l'art punique de Tripolitaine», MEFR, 80(1968), 7-84.

الفصل الرابع
الباب الأول :

W. F. Albright, l'Archéologie de la Palestine, Paris, 1955.
A. Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land, Jérusalem, 1979.
A. Choisy, l'Art de bâtir chez les Egyptiens, Paris, 1904.
C. Decamps de Mertzenfeld, Inventaire commenté des ivoires phéniciens, Paris, 1954.
R.J. Forbes, Studies in Ancient Technology, vol. IX Metals, Leiden, 1964.
V. Forbin, L'Or dans le monde, Paris, 1941.
B. Hennesy, Ancient Near Eastern Pottery, I (Serindia publications), 1981.
H. Limet, «l'Or des Hourrites», RHA, 36 (1978) 141 sq.
- Le Travail du métal au pays de Sumer, Paris, 1960.
S. Lloyd, Building in Brick and Stone, in History of Technology, Londres, 456-473.
W.F. Petrie, Les Arts et Métiers de l'Ancienne Egypte, Paris, 1912.
J. Philippe, Histoire et Art du Verre, Liège, 1982.
J.C. Poursat, Les Ivoires mycéniens, Paris, 1977.
E. Riefstahl, Glass and Glaze from Ancient Egypt, Brookling, 1948.
Cl. Schaeffer, Ugaritica IV, Paris, 1962, 17 sq.
C.S. Smith, «Bronze Technology in the East», Londres, 1973.
J. Spencer, Brick Architecture in Ancient Egypt, Londres, 1979.
R.F. Tylecote, Metallurgy in Archeology, Londres, 1962.
R.H. Vose, Glass, Londres, 1980.
M. Yon (éd), Dictionnaire illustré multilingue de la céramique du Proche-Orient, Lyon, Paris, 1981.

الباب الثاني :

J.P. Adam, l'Architecture militaire grecque, Paris, 1982.
P. Aupert, Le Nymphée de Tipasa et les nymphées et «septizonia» nord-africains, Rome, 1974.

E. Babelon, Traité des monnaies grecques et romaines (4 vol.), Paris, 1901 - 1932
A. Badawy, A History of Egyptian Architecture (2 vol.), Berkeley, 1966.
L. Basch, «Trières grecques, phéniciennes et égyptiennes», JHS, 97 (1977), 1 sq.
A. Canac, l'Acoustique ds théâtres antiques, Paris, 1967.
A. Choisy, Histoire de l'architecture, Paris, 1899.
G. Contenau, Mission archéologique à Sidon, Paris, 1921.
- La Glyptique syro-hittite, Paris, 1923.
J. Delorme, Gymnasium, Paris, 1960; Delos XXV, les palestres, Paris, 1962.
F. Digard, Répertoire analytique des Cylindres orientaux, Paris, 1976.
A. Fakhry, An Archaeological journey to Yemen, Le Caire, 1952.
B. Fletcher, A History of Architecture, Londres, 1977.
H. Frankfort, «The Origin of the Bit-Hilani», Iraq XIV (1952), 120-131.
E. Frézouls, «Recherches sur les théâtres de l'Orient syrien», Syria, 36 (1959), 203-227; 38 (1961), 54-86. Mar. I, 172-192. MAGR, III, 2, 714-975.
W. E. Geil, The Great Wall of China, Londres, 1909.
N. Gluek, Rivers in the Desert, New York, 1959.
R. Ginouvès, Balneutiké, Recherche sur les bains dans l'antiquité grecque, Paris, 1962.
R. Ginouvès et alii, Laodicée du Ly Kos, le nymphée, Québec - Paris, 1969.
R.Ginouvès, Le théâtron à gradins droits et l'Odéon d'Argos, Paris, 1972.
P. Grierson, Monnaies et Monnayage, Introduction à la numismatique, Paris, 1976.
J.A. Hanson, Roman theatre-temples, Princeton, 1959.
L.V. Hogg, Fortress, a History of military defense, Londres, 1975.
P. Johnstone, The Arch. of Ships, New York, 1914, Paris, 1934.
A. Langie, Les Bibliothèques publiques dans l'Ancienne Rome et dans l'Empire Romain, Fibourg, 1908.
N.L. Lapp. «Casemate Wall in Palestine», BASOR, 223 (1976), 25-42.
G. Leroux, Les Origines de l'édifice hypostyle, Paris, 1913.
A. Lèzine, «Thermes d'Afrique», dans Architecture romaine d'Afrique, Paris, 1962.

H. Lhote, La station de chars gravés à l'Oued Lar'ar Libyea IX-X, 61-62, 131-169.
R. Martin, Recherches sur l'Agora grecque, Paris, 1951.
- «Agora et Forum», MEFR, 84 (1972), 903-933, MAR, I, 111 sq., 227sq. MAGR III, 1, 287 sq.
F.S. Matouk, Les Scarabées royaux, Beyrouth, 1971.
J. Morrison, The Ship, Long Ships and Round Ships, Londres, 1980.
O. Navarre, Le Théâtre Grec, Paris, 1925.
A. Parrot et M. Lambert, Glyptique mésopotamienne, Paris, 1954.
A. Poidebard, La Trace de Rome dans le désert, Paris, 1934.
A. Poidebard et J. Lauffrey, Sidon, aménagements antiques du Port de Saïda, Paris, 1951.
A. Poidebard, Un grand port disparu, Tyr, Paris, 1939.
MC. M. Robbin, «Cités ou Citadelles? Les enceintes romaine du Bas-Empire» REA, 53 (1951), 301-311.
J. Rougé, La Marine dans l'Antiquité, Paris, 1975.
C. Schaeffer, Xe et XIe Camp. de fouilles à Ras Shamra - Ugarit, Syria, 1939-1940.
F.G. Simpson and G. Simpson, Waternills and Military Works on Hadrien's Wall, Kendal, 1976.
H. Thédenat, Le Forum Romain, Paris, 1904.
B.L. Trell, «Architecture on Ancient Coins», Arch., 29 (1976), 6-13.
P. Trousset, Recherches sur le Limes Tripolitanus du Chott el Djerid, Paris, 1974.
W.A. Ward, Egypt and the East Mediterranean World, 2200-1900 B.C., Beyrouth, 1971.

الباب الثالث :

Cahiers de Karnak, 6, Paris, 1982.
E. Chassinat, Le Temple d'Edfou (IFAO Mém.), 1960.
P. Collart et P. Coupel, L'Autel monumental de Baalbek, Paris, 1951.
F. Cumont, Les religions Orientales dans le paganisme romain, Paris, 1963.
E. Dhorme, Les Religions de Babylonie et d'Assyrie, Paris, 1945.

M. Dunand, Fouilles de Byblos, Paris, 1939-1958.
- Biblia Grammata, Beyrouth, 1945.
- Byblos son histoire, ses ruines, ses légendes, Beyrouth, 1963.
R. Dussaud, «Temples et Cultes de la Triade héliopolitaine à Baalbek175, Syria XXIII (1942-1943), 33sq.
A. Gayet, Le Temple de Luxor, Paris, 1894.
D. Kreneker et W. Zschietzschmann, Römische Tempel in Syrien, Berlin, 1938.
G. Legrain, Les Temples de Karnak, Bruxelles, 1929.
W. Macquitty, Island of Isis: Philae, Temple of the Nile, Londres, 1976.
A. Parrot. Sumer, AIA, 218, 228, 229, 239, 342.
- Ziggurats et Tour de Babel, Paris, 1949.
- La Tour de Babel, Neuchâtel-Paris, 1953.
Ch. Picard, l'Acropole d'Athènes (2 vol.), Paris, 1929-1932.
G.A. Reisner, Mycerinus, The Temples of the third pyramid at Giza, Cambridge, 1931.
D. Robinson,Baalbek - Palmyra, New York, 1946.
G. Roux, Delphes, Paris, 1976.
V. Scully, The Earth, The Temple and the God, New Haven, 1979.
G. Taylor, The Roman Temples of Lebanon, Beyrouth, 1967.

الباب الرابع :

L. Bernard, «Le tombeau d'Alexandre et le Mausolée d'Auguste» RA, 47 (1956).
M. Beulé, Fouilles et découvertes, Paris, 1873; t.II «Le tombeau de Mausole», 271-324.
J. Cantineau, «Textes funéraires palmyriens», extr. RB, octobre, 1930.
M.H. Chéhab, Sarcophages à reliefs de Tyr, Paris, 1968.
I.E.S. Edwards, Les Pyramides d'Egypte, Paris, 1967.
A. Fakhry, The Pyramides, Chicago, 1969.
S. Fleming and D. O'Connor, The Egyptian Mummy: Secrets and Science, Philadelphie, 1980.
J. Jéquier, Les Frises d'objets des sarcophages du Moyen-Empire, Le Caire, 1921.

– Deux pyramides du Moyen-Empire, Le Caire, 1933.
J. - P. Lauer, Le Problème des pyramides d'Egypte, Paris, 1948.
– Observations sur les pyramides, Le Caire, 1955.
– Histoire monumentale des pyramides d'Egypte, Le Caire, 1962.
– Le Mystère des pyramides, Paris, 1974.
– Saqqarah, la nécropole royale de Memphis, Paris, 1977.
– Les pyramides de Saqqarah, Le Caire, 1961-1972.
– La pyramide à degrés (vol. I-V), Le Caire, 1936-1972.
A.S. Mahmoud, A New Temple for Hator at Memphis, Londres, 1978.
A. Mariette, Les Mastabas de l'Ancien Empire, Paris, 1889.
M.J. Mellink, The Hittite Cemetery at Goedion, Philadelphie, 1956.
P. Montet, Byblos et l'Egypte (2 vol.), Paris, 1928.
– Les Scènes de la vie privée dans les tombeaux égyptiens de l'Ancien Empire, Strasbourg, 1925.
A. Parrot, Malédictions et violations de tombes, Paris, 1939.
G. A. Reisner, A History of the Giza necropolis, Cambridge, 1942.
A. Rosalie David (éd.), Mysteries of the Mummies, Londres, 1978.
J.F. Salles, La mécropole «K» de Byblos, Paris, 1980.
H. Sottas, La préservation de la propriété funéraire dans l'ancienne Egypte, Paris, 1913.

الفصل الخامس.

M. G. Aitken, The Proton magnetometer: Principles of operation, Rome, 1962.
J. Alexander, The Directing of Archaeological Excavations, Londres, 1962-1970.
G.A. Beazeley, Air photography in Archaeology, Geographical Journal, 53 (1919).
M. Bröens, Normes pour la recherche, l'observation et la description des ensembles archéologiques de caractère anhistorique, Barcelone, 1963.
L. Cagnard, La prospection géophysique, Paris, 1950.
R. Chevallier, Bibliographie des applications archéologiques de la photo aérienne, BA. Maroc II, Rabat, 1957.

D.L. Clarke, Analytical Archaeology, Londres, 1968.
A. Costes, Manuel de recherches préhistoriques, Paris, 1929.
Ph. Diole, Promenade d'archéologie sous-marine, Paris, 1952.
G. Dougan, Les découvertes sous-marines modernes, Paris, 1954.
J.P. Droop, La technique des fouilles archéologiques, Mouscion 43-44, Paris, 1938.
L. Grinsell, P. Rahtz, A. Warhurst, The Preparation of Archaeologist Reports, Londres, 1970.
P. Léon, Vie des monuments, destruction et restauration, Picard, Paris.
R. Martin, Leçons de photo-topographie, C.N.D.A.M., Paris, 1963.
S.K. Mattheurs, Photography in Archaeology and Art, Londres, 1970.
I. Mecu, Le régime juridique des antiquités et des fouilles..., Paris, 1940.
A. Merlin, Les fouilles sous-marines de Mahdia, RH., Paris, 1949.
H.J. Plenderleith, The preservation of antiquities and works of art, Londres, 1956.
L. Réau, Dictionnaire polyglotte des termes d'Art et d'Archéologie, Paris, 1953.
A.I. Rees, Electrical prospecting method in archaeology, Cambrdige, 1962.
C. Schaeffer, Stratigraphie comparée et chronologie de l'Asie occidentale, Londres, 1948.
UNESCO, l'archéologie subaquatique, une discipline naissante, Paris, 1973.
- Musées et recherches sur le terrain, Paris, 1970.
- Publications diverses.
M. Wheeler, Archaeology from the earth, Londres, 1956.

الفهرس

المقدمـة ٩

(الفصل الأول)

علم الآثار : مفهوم ومضمون ١٣

(الفصل الثاني)

المراحل التاريخية لعلم الآثـار ١٩

- أولاً ــ حضارات ما قبل التاريخ: ٢٠
  - ١ ــ العصر الحجري القديـم ٢٠
  - ٢ ــ العصر الحجري الوسيط ٢٢
  - ٣ ــ العصر الحجري الحـديث ٢٣
- ثانياً ــ حضارات ما قبيل التاريخ : ٢٥
  - ١ ــ العصر البرونزي : أ ــ العصر البرونزي القديـم . ٢٧
  - ب ــ العصر البرونزي الوسيط ٢٨
  - ج ــ العصر البرونزي المتأخر ٢٨
- ثالثاً ــ العصور التاريخية : العصر الحديـدي ٢٨

(الفصل الثالث)

العالم العربي وحضارات الشعوب القديمة ٣٥

١ ـــ الساميون ٣٦
٢ ـــ السومريون ٣٩
٣ ـــ الأكديـون ٤١
٤ ـــ البابليون ٤٥
٥ ـــ الأموريون ٤٨
٦ ـــ الكاشيـون ٤٩
٧ ـــ الآشوريون ٥٠
٨ ـــ العيلاميون ٥٢
٩ ـــ الفرس والأخمينيون ٥٣
١٠ ـــ البارتيون ٥٦
١١ ـــ السلوقيون ٥٧
١٢ ـــ الساسانيون ٦٠
١٣ ـــ الحثيون ٦١
١٤ ـــ الحوريون ـــ الميتانيـون ٦٣
١٥ ـــ الآراميـون ٦٤
١٦ ـــ الكنعانيون ٦٦
١٧ ـــ الفينيقيـون ٦٨
١٨ ـــ العبريون ٧٣
١٩ ـــ الفلسطينيون ـــ شعوب البحر ٧٦
٢٠ ـــ النبطيون ٧٧
٢١ ـــ « الخليج العربي » ؟ ٨١
٢٢ ـــ اليمنيون ٨٦
٢٣ ـــ المصريون ٩٨
٢٤ ـــ النوبيون ١١٧
٢٥ ـــ البيربير ـــ النوميد ١١٩

(الفصل الرابع)

المعالم الأثرية والحضارية ١٣١

ـ الباب الأول ـ ١٣٣

المواد : الطوب ـ الحجارة ـ الخشب ـ المعادن ـ الخزف ـ الزجاج ـ العاج.

ـ الباب الثاني ـ ١٤٨

الآثار المدنية : البيت ـ هيلاني ـ البيت ـ الميغارون ـ القصور ـ الأكروبول ـ المدن ـ الساحات العامة ـ الأسواق ـ المكتبات ـ المسارح ـ الملاعب ـ الحمامات ـ الأقواس ـ الأعمدة ـ التاج ـ الطرقات ـ حجارة المسافات ـ الحدود ـ التحصينات ـ المخيمات أو المعسكرات ـ عيون الماء والينابيع ـ الجسور ـ قنوات المياه ـ السدود ـ المرافئ ـ المراكب ـ العربات ـ المسكوكات ـ الأختام ـ المنسوجات.

ـ الباب الثالث ـ ١٩٦

الآثار الدينية : المعابد ـ المذابح.

ـ الباب الرابع ـ ٢٠٥

الآثار المدفنية : الـ «Ciste» ـ حقول الجرار ـ النواويس ـ المصاطب ـ الأهرام ـ الأضرحة الفخمة (موزوليه) ـ الثل المدفني ـ النصب المدفني ـ المدينة المدفنية.

(الفصل الخامس)

● أين نحن من آثارنا ؟ ٢١٩

ـ كيف نراها ونحددها ؟ ٢١٩

ـ كيف نكتشفها وندرسها ؟ ٢٢٠

أ ـ الاستكشاف السطحي ٢٢٣
ب ـ الاستكشاف الباطني ٢٢٤
ج ـ الاستكشاف الجوي ٢٢٥
د ـ أعمال السبر ٢٢٥
هـ ـ أدوات التنقيب ٢٢٦
و ـ حقل التنقيب وفريق العمل ٢٢٦
ز ـ التنقيب ٢٢٧
ـ المراجع ٢٨٥

